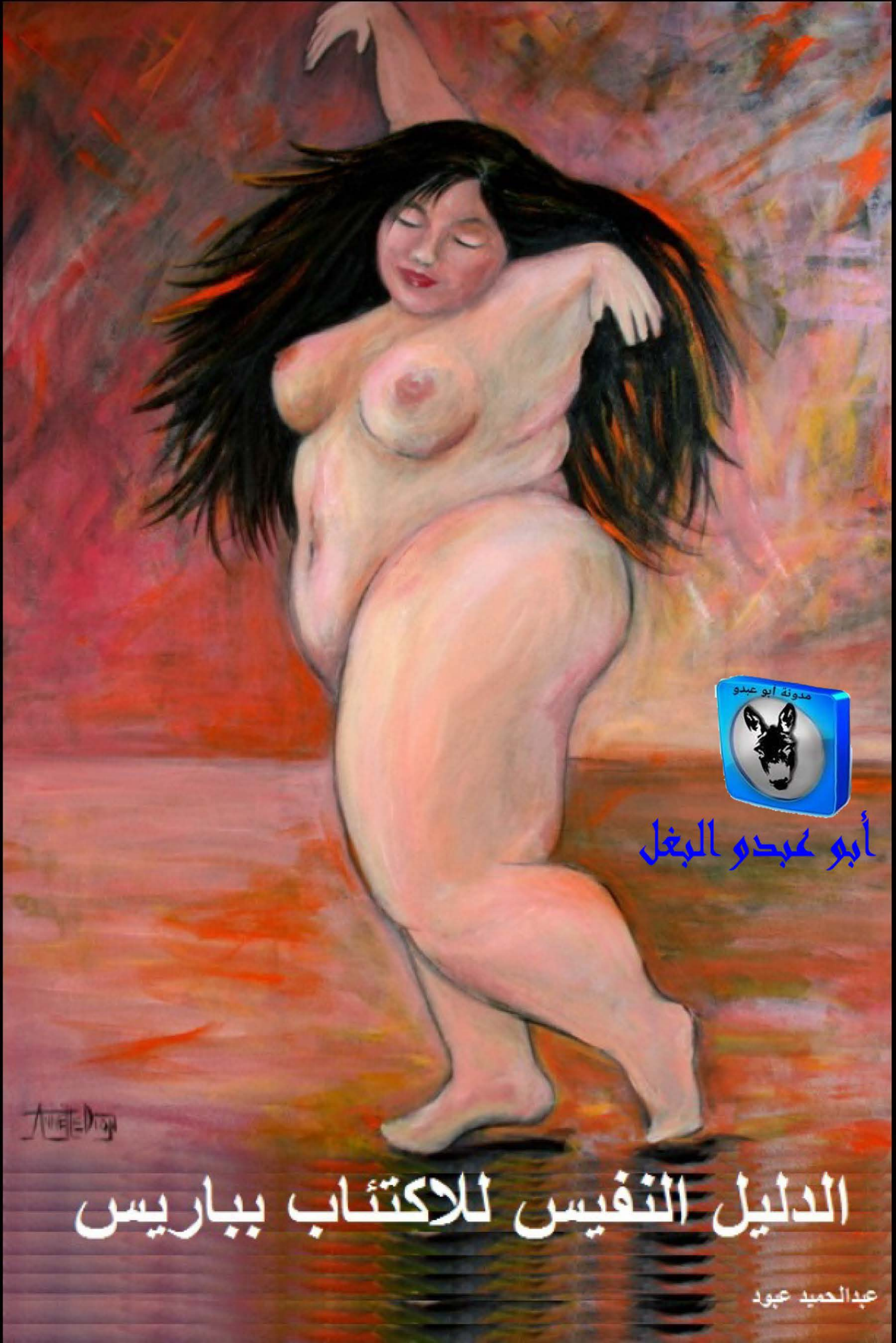


مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
الدليل النفيس للاكتئاب بباريس
عبدالحميد عبود

الدّليل النفيس للإكتئاب بباريس

عبد الحميد عبود

الإسم : رمضان
اللقب : أبو عيد
البرج الفلكي : الأسد
المهنة : بطال .
الهواية : الشعر والصياغة والتحشيش
العمر : 25 خريفا
العنوان : باريس مأوى المُشَردين
المقام : لاجئ سياسي من أصل فلسطيني
الوضع الاجتماعي : أعزب مع تجربة حب فاشلة
السجل عدلي : نظيف باستثناء بضع أيام حبس على ذمة التوقيف بتهمة تشبيك مئة دولار مزورة في صدر رقاصة
الدين : مفيش، لا صلعم ولا طوطم ولا يحزنون
علامات فارقة : الاكتئاب

من النافل ان اقول ان احداث هذه الرواية حقيقية وليست متخيلة

إلى محمد البوعزيزي
الذي بانتحاره نحر الخوف في قلوبنا
وبإسقاطه الأصنام الصغيرة شجعنا لإسقاط الصنم الكبير

السندباد في رحلته الثامنة

الإشارات تبشر بالخراب، ولستُ متماسكاً ولا مطمئناً إلى ما سيحدث.
انطفئتْ فوانيس الطريق، أعولتْ الريح، والهباء هبّ من كل مكان، ضاقت المساحات والأمدية، التحم الرصيف بالشارع، التحمتْ العناصر الأربعة حلكةً مفتوحة على مصراعيها، وكل ما كان عيانا صار مجردا، صار خريطةً للاشكل، مساحات من ميتافيزيقيا سوداء، تبقع وجه تمثال نرفال بالدم ، أحسستُ بحرقة في أحشائي ما عتمتْ ان تحولت إلى وحمة للخبز المحلى بالزبيب، وشعرتُ بأعصابي يعصرها ألم مجهول، تسمرتُ مكاني مكتظا بسوء الفهم والالتباس، ألتقطُ التفاصيل التي ما ان تُلتقط حتى تتلاشى، جاهدتُ لتحديد واقعي وموقعي في عمهوت العماء، باحثا عن ثغرة في الفراغ، عن مكبح لإيقاف الآلة الجهنمية، عن نقطة ثابتة في العالم الدوار، عن نظام في الفوضى يمكنني من الذي لم يعد ممكنا، مرّرتُ يدي على بدني أتحسس من خلاله علاقاتي الواهية بالعالم حولي، فكانت يدي مغلولة، من تراني أكون حقا؟ رمضان أم أبو عيد؟ الحقيقة أم المجاز؟ المركب أم البحر؟ الماشي أم الطريق؟ المفكر أم الفكرة العارضة؟ رحتُ أقول لنفسي (وأنا أعد على أفتار أصابعي جريا على عادتي في شحن نيوروناتي المتبلدة).. أنا رمضان، رمضان أبو عيد، شقيق رجب وشعبان وحجة وبقية الأشهر الهجرية، أنا موجود الآن هنا في باريس، وبالضبط في حديقة شاتليه، هذا البرج الشاهق الذي يبخش السماء هو برج القديس يعقوب، ذلك الرجل اللابس الميري هو فيلكس ناطور الحديقة، على العموم فإنني لستُ أخرقاً لأصدق خوارق الطبيعة، بَيْدَ أن أغرب الأمور أثبتها دليلا، إنكار الواقع لا يلغيه، وثمة (في رأسي فقط) من الأدلة ما يثبته وما ينفيه، يحصل للإنسان ان يطفو على الذاكرة ليسبح في عالم الأمنيسيا، يحصل لأي إنسان أن يحلم لأنه يدرك تخاريج الزمان الثلاث، لكن الحيوان الخرافي عادة ما يستفيق ليلا ونحن في وضح النهار، الساعة بمعصمي تشير للعاشرة وخمس دقائق (هذا يعني إنها العاشرة إلا خمس فأنا أقدمها عشر دقائق كي لا أصل متأخرا لمواعيدي) ربما انه حلم يقظة شفيف، أو كابوس يفتقدُ أدنى صِلة

بالواقع، أو لعله من صميم ترسبات الواقع، من السفرات الباطنية التي يقوم بها المسافر دون أن يتحرك من مكانه، بكل مرة أحشّشُ تأتيني شياطيني المرافقة، اللعنة على هذه الجمرة الخبيثة، مزاج للملعنة، على ذمّة يانوش البولندي فإنها عشبة تطلق الطاقات المكبوتة، أينه هذا الوغد البولاك ليرى الأشباح النائمة التي أطلقتْها، لعله هرع للسوبرماركت ليختلس قنينة فودكا، تركني وحدي في مزلقان، أنا الرجل الوحيد على الأرض، وما يانوش وعبد السميع وسائر الكائنات سوى تصوراتي وأفكاري، الناس حولي بيادق وفرازانات في مربعات رقعة الشطرنج، ما دامني الرائي الوحيد الذي تتراءى له هذه الرؤية الطوفانية فهذا معناه ان الطوفان يحدث في رأسي فقط، سيمياء رواد الحديقة اللامبالين تثبت أن الدنيا لم تتغير على الإطلاق (في أعينهم) الدنيا تغيرت فقط في عيوني، فأنا كل ما أرى، البرق والبيارق تتراءى لي أنا وحدي دون غيري، الوحش وحشي والسواد سوداويتي والألم حكر لي...

جرجرتُ دهشتي كالسائر بنومه، رأيتُ نافورة ميدان شاتليه تفيض قيحا وصديدا، حاصرني من الخارج أربعُ طوابير، من الداخل حاصرني طابورٌ خامس، وإذ بلغتُ جسر أوشانج حُوصِرتُ بما هو أكثر فظاعة، على الضفتين كانت صفصافات النهر تنتظرني كمقاصل إعدام، المعدية النهرية السياحية التي عبرت تحت الجسر تهيئتْ لي على هيئة سفينة قراصِنة عليها راية سوداء من عظمتيْن وجمجمة، على صفحة النهر طفت كلاب سود نافقة، فوق الضفتيْن تقوَّس قوسٌ قزحي أطيافه كلها تنويع على الأسود، أكحل غامق زفتي دامس أسمر باذنجاني أبنوسي شاحب،

كل هذا السواد. عجبا!

كان بورخيس في عماه يرى كل الألوان عدا الأسود، فما بال عيناي المتفتحتان لا تريان إلا الأسود! من قال ان الله ليس كله زنجيا؟ من يوقف النزيف في دماغي؟ من يدلني على درب العلامة؟ ظلمة عميقة وشاسعة، مخيفة وفاجعة ، مغبشة كنيجاتيف الصور، ورأيتُ عقارب الساعة تدور بالاتجاه المعاكس، رأيتُ الألفا والأوميغا، البدايات والنهايات وخرائب الإمبراطوريات،

كلروس ماغنوس وملوك فرنسا طرّاً من فرانسوا الأول إلى فرانسوا ميتران، رؤية مركَّبة من تزامناتٍ عشوائية مُكدَّسة، مشهد طاعوني أبوكاليبتيكي، رجال لهم مناقير طيور، طيور لهم هيئة زحافات وسحالي، بشر لهم زعانف وأسماك لها نهود، قرد يُدَوْزِنُ أوتار عود، براكين، نيران تلمع مثل مصابيح في الظلمة، عراة يتشابهون كالأموات ويشربون من شراب الزقوم في احتضارات النزع الأخير، نساء عاريات تلتف الأفاعي على عوراتهن، مسوخ هجينة تمشي على أربع، مصاصو دماء يمارسون متعة الشر بتفانٍ يقترب من حد الصوفية، ورأيتُ وحشاً أبشع من الغيلان وَالتنانين،كان الوحش / التنين يفتح شدقيه ويبتلع القديس جورجيوس وحصانه، كان ثمة 20 ألف جنازة على جبل الكرمل، و10 آلاف مصلوب على جبل آرارات، رأيتُ جملة الهالكين في السفربرلك، المطعونين بالطاعون والمصائب العمومية، ومن حصدتهم الحصبة مبكرا، حشودا مترنحة من هياكل عظمية يتحركون بمشية بطيئة، يرفعون بمناديلهم المدماة غبار القرون الغابرة، يرقصون رقصة المقابر، ينسجون المدى جماجما متراصة منخورة، منجنيقات مهترئة تطل مكشرة من أوقات ميتة، موتاً موتاً، جثثا تحتفي بجثث، ما أخيب الموتى اذا بعثوا بشعين وبطيئين. من يحدق عبرَ الموت والموتى يرى وجهه، لكن الموتى يتجولون فقط في المنام ونحن في عز النهار، نظرتُ إلى الساعة بمعصمي فكانت بلا عقارب، وكان هذا كافيا لإرباك مخيلتي، مُباركة هي الكوابيس فبفضلها أصدّق بوجود الجحيم، ما أن ينأى الإنسان حتى تأتي الرياح، الكاوس التام، اليأس والتوّحُّد والدهشة الخرساء، التوريات حيث يتوارى واضح المعاني في طلسميها، هل أحلم أم أحلم أنني أحلم؟ أم أن حواسي تخدعني في أوهام بصرية وهلوَسات رخيصة؟ كيف يمكنني أن أُفكّر بما أراه، بكلّ السوءِ الذي أراه؟ الرؤية الخاصة التي أراها بعينِي الخاصّة، اشتباكات العقلِ الكاذبة. الأحلام الباطلة جداً. العوالم السفلية الديماسية الماورائية، لعله تحالف الأوهام مع أباطيل الحواس الخمس أو الارتجافة الأخيرة للبدن الميت؟....

سَرَتْ ببدني رعشة صقيعية باردة كأني يحاصرني أربعون شتاءا، فقدتُ بوصلتي فترنحتُ كمركب برتغالي جانح، تبعثرتُ في أمكنة قصية خلف الزمن يصعب التعرف عليها، بين بين، منزلة بين المنزلتيْن، القرن العشرين بعد المسيح والقرن العاشر قبل نوح، أزمنة مركبة من العتيق والراهن، رحتُ أستشعر رخاوة جسدي اللزجة مقرونة بصلابة الواقع الفولاذي، رأيتني تائهاً إلى أبعد حد ولا أحد يتعرّف علي باستثنائي، مفرداً ووحيداً، بعيداً ووحيداً، ذابلا، منكسراً، لاهثاً، محطماً، محصورا، على حافة الحال الأكثر تفاهة، بحثتُ عن وجهي في العتمة، بَحثتُ بين الوجوه عن وجه كان وجهِي، وفتحت شدقي طالبا نجدة فلم تسعفني الكلمات، ترقق صوتي متهدجا ثم أخرساً، انحَنيتُ عن غير قصد كشجرة مقطوعة وهويتُ إلى أسفل كطير أبله، ثم مستفيداً من القوّة التي منحني إيّاها انعدام الوزن ارتفعتُ نحو الأعلى كشيء مجرّد، ثم نحو الأعمق، ثُمَّ متصَاعِدًا إلى الأمام ، ثم مسْحوبًا إلى العمق مثل زورق بلع الماء، مثل زورق بلعته الماء، انقفل الباب من الجهتين، وأوصدت النوافذ، رحت أتضائل وأختفي إلى أن صرتُ ثقبا في الهواء.

زين الشباب أبو عيد لم يُمتَّع بالشباب

لن أثير فيكم السرور فحالي محزنة، سآتيكم بنبأ الإنسان المكتئب وأحدثكم عن أتعس أيامي، سأحكي لكم قصة شاب عبيط كان يحلم بأجمل العوالم وكان يشَيِّدُ قلاعا رملية فوق شواطئ اسبانيا، ثم أتى تسونامي الوحش وجرف كل شيء، وأنا أتعلم كيف أعيش كنت أتعلم كيف أموت، وأنا أدرك العالم كنت أدرك مأساتي في العالم، في مشوار كهذا كان يجب أن أقرأ خريطة الطريق جيدا وأن أحفظ خط الرجعة، فات الأوان، ولا شيء أسوأ من فوات الأوان، كل شيء تحطم في لحظة عابرة، اختلت الثقة بيني وبين العالم وانهارت نظرتي النيتشوية للعالم، فقدتُ كنوزي وبراءتي وشبابي الأنضر، هذا ما عشّمتني به الأبراج الفلكية ،الانهيارات والكوابيس والهاوية الملعونة ، لم تقتلني الحروب الكبيرة بل سحقتني حزازات صغيرة، لم تقتلني السباع بل التهمتني الضباع، لم أمُتْ برصاص الحرب الطائش بل مُتُّ بطيشي، أمضيتُ سنوات في التنظير للسعادة ثم جاء الوحش وقلب المعادلة، جاء مفاجئا كالهدف القاتل الذي يصيب المرمى في الوقت الضائع.
كيف نصنع وحشنا بأنفسنا؟
كيف ندخّر يأسنا لأنفسنا؟
بهذه الرقة المُشينة تُقْتَرف المصائر ويتحول رجل إلى شبه رجل، أقسمُ لكم (باللّات) أن الإنسان أهشّ وأخفّ مما ظننتم، ما بين خطوة أولى وتالية يسقط إنسان، ما بين شارع ورصيف يسقط إنسان، ما بين لمحة عين وإغماضتها يسقط إنسان، المرض دائما خائن ويأتي في اللحظة التي لا ننتظره فيها ليثبت ان الأصحاء هم الناس الذين لا نعرفهم جيدا، الفعل ليس الحياة لكنه وسيلة لإفساد قوة ما، الإنسان بطبعه يخشى الحرية، والسقوط هو التعبير المباشر لهذه الخشية، الإنسان مشروط بشرطه الإنساني وحين تتكاثر عليه الأزمات ينكسر، بحسب ماركس ففي نفس اللحظة التي يطوِّر فيها الكائن إمكانيات هائلة للسيطرة على حياته، فإنّه يخسر تلك القوة بفعل انقساماته الداخلية، ليتني كنت راعي غنم في

سهول عكّار ولم أعرض نفسي للتجربة، (للأسف فرمضان لا يتعلم أبدا من تجارب أبي عيد) الحشيشة عجَّلتْ في تقويض استطاعتي الداخلية، أردت أن أتوسل بها للوصول إلى الحرية، فإذا بالوسيلة تنسيني الغاية، وإذا بإرادتي تتلاشى في مطب الفعل الميكانيكي والإدمان، على المرء أن يكف عن فعل الحماقات، لكن ما أسهل القول! 25 عاما، بهذا الشباب الغض يتعسر إدراك الحكمة، وليس أشق على النفس من تحمل سلسلة من الأيام الحلوة، الحياة! نصبح فرسانها ونمسي صرعاها ، من يأكل ثمرة مانجا يعرف شيئا عن رمزية الحياة، ما أن يقشر القشرة حتى يرتطم بالنواة، تدبق أصابعه بالقطر أكثر من لسانه، يغص في مصِّها أكثر من حلاوتها، السعادة في جوهرها سلبية، وإذا ما تحقّقت فلا تُعاش طويلا، الحياة دائما تفاجئنا باللامتوقع، أولئك الذين لا يقضون بالسرطان، السماء تهددهم بالصواعق، الهواء يحصدهم بالعواصف، الأسلحة الفتاكة تبيدهم بالجملة، الفارّون من الكوارث تحصدهم حوادثُ السير، الهاربون من الحريق يموتون بالغرق، والناجون من الطاعون يقتنصهم الاكتئاب، عندما يتخلص إنسان من الفخ النّصبته له الطبيعة يقع في الفخ النَّصبه لنفسه، الإنتكاص بُعْدٌ أساسي ، والصحة الوحيدة هي المرض، سقطتُ في غمرة الإرْبَاكَات المتتالية سقوطاً فجائعيا كأحسن ما يكون السقوط، الإمبراطورية السوفيتية بجبروتها سقطت، هذا عصر البيرويسترويكا والغلاسنوست والتغيرات السريعة والطفرات التقنية، زمن يلهث بسرعة ومن لا يسايره ينتكص، في اللحظة التي توهمت فيها إني أمتلك حريتي فقدتُ نفسي، يا لوهم الحرية! كل خياراتي كانت تافهة ومن صنف: هل أشرب فودكا جبروفسكا أم فيبوروفا؟ هل أحششُ حشيشة كتامية أم أفغانية؟ هل أبيتُ ليلتي في المهجع بتاع جيش الخلاص أم في ذلك التابع للإغاثة الكاثوليكية؟ هل أقضي نهاري مع عبد السميع في مركز بوبور أم مع يانوش في حديقة شاتليه؟ ساذجاً كنت باعتقادي بحرية الخيار، فجسدي الذي لم أختره هو الذي صاغ روحي، وماضيَّ الذي فُرِض علي هو الذي يقرر مستقبلي، كلّه مكتوب ومقدر كما في قدر إغريقي، كل شيء انفرض عليَّ فرضا، حتى الصعلكة

مارستها باضطرار اختياري، رغم تبجحي بالحرية فأنا مجبور مثل جاك القدري، أنا ابن الحتمية الضرورية للصدف العمياء، لو أن أمي أنجبتني قبل شهر رمضان أو بعده لكنت رجب أو شعبان، الحياة تُحَرِّكنا كبيادق وفي المرات القلائل التي يتسنى لنا فيها ان نختار فإننا نسيء الاختيار، وندرك ذلك متأخرين، لو أننا تفادينا الحماقة في اللحظة المناسبة لما كان هناك أخطاء البتة، ولما كان معنى لوصايا عبد السميع الأللاوية، وبالمحصلة لانعدمت الحياة، إنما الخطأ قدر البشرية، كنت أعرِّض نفسي لرعب الانكشاف وأبحث عن الخطر، فجاءني ما هو أخطر، الوحش العلامة الإيسخاتولوجية، الأدلة قاطعة ودامغة، إحباط لا ريب فيه، النطاسي النفساني في مستشفى سانت آن شخَّص المرض:

Déprime ;un certain dérapage de l'âme[1]

وطبيب مستشفى مارموطون للمدمنين أكد التشخيص، فضيلة جديدة تنضاف إلى فضائلي، ولستُ وحدي بل أنضاف إلى القائمة المجيدة من المكتئبين العظام: نرفال، بايرون، السيّاب، خليل حاوي وهولدرلين وفرجينيا وولف وهمنغواي بيتهوفن وسترافنسكي إلخ، سقطَتْ السعادةُ في بازار السعادة، سقطتْ الحريةُ في فخ الحرية، سقطتْ الكينونةُ في عار الكينونة، سقطْتُ مثلَ حصان حصدوا ركبتيه بمنْجَل[2]، دبَّ فيَّ السقامُ المتسارع، وقلبي الذي كان هائجاً ذاتَ مرة خمد للأبد، فرَّ الشِّعر من قلبي، إقفل يا سمسم، الإحباط مغارة علي بابا، نعرف كيف ندخلها ولا نعرف كيف نخرج منها، الداخل أصبح محدودا والخارج شاسعا، ذهبتْ الأيام الجيدة لكن أيّام الذلْ لم تأتِ بعدْ، حلت مشاعر النفور محل المسرات، لم أعد أدندن بأغانيَّ المفضلة، ما عدت أتسائل : هل هناك حياة بعد الموت؟ بل بت أسئل : هل ثمة حياة قبل الموت ؟ صرتُ أخاف على نفسي وصرتُ أخاف من نفسي، الوحش كله عشش فيَّ وتبعني كأنه بدني، انحدرتُ من الهامشية

---

[1] ترجمتها اكتئاب ما، ضربٌ من انحراف الروح/ سانت آن هي مستشفى الأمراض العقلية والعصبية بباريس

[2] سقطتُ مثلَ حصان حصدوا ركبتيه بمنْجَل " اقتباس من سركون بولص

الاختيارية إلى تهميش قسريّ، ديونيسوس رحل مني وترك مكانهَ بوذا، الحياة باخت وما عاد لها نكهة بالمرّة، علاقاتي أصبحت مرتبكة، انسحبتُ من الحياة، جعلتُ أراقب الحياة من بعيد كالعجائز يراقبن الشارع من وراء النافذة، الفاجعة لم تنته ولكنها بدأت بالكاد، الاكتئاب دخل حياتي وأدخل معطيات جديدة في حياتي : البروزاك، برشامة صغيرة دورها تجفيف منابع القلق، يجب أن أبلعها يوميا لأنها لا تفيد بشيء (بعكس ادعاءات الطبيب المتواطئ مع لوبي مختبرات الأدوية، فهو (الطبيب) يقضي كل عام عطلته الصيفية في منتجعات راقية تحت ستار مؤتمر طبي مدفوع بفلوس المختبرات التي تسرقها من جيبي ثمنا لهذه السموم الباهظة الثمن) الرأسمالية الظافرة تخلق الأوجاع والأدوية الناجعة للأوجاع، المحبط مجرد رقم اقتصادي في معادلة الإنتاج والمردودية، الأزمة الكائنة في الفرد لا تأزِّم المجتمع الرأسمالي بل على العكس تقويه، أنا كأي محبط أُعْتبَر (لا بالرغم من شَلَلِي بل بسببه) محركا لا يستهان به للاقتصاد، أساهم في تزييت ماكينة الإنتاج، أنا من منظور براغماتيكي بحت مريضٌ ناجع وشر لا بد مني، إذ إني أرفد السينما والدراما ب سيكولوجيا الفشل والأزمات ، كما أساهم في رواج بضاعة الصيدليات ودكاكين المُشعوذين والمعالجين النفسانيين، أستهلك يوميا كوكتيل سموم من مضادات الاكتئاب والمنوِّمات، كما ترون فإن الإحباط يشَلّ أعصاب المحبَط ويحرِّك عجلة الاقتصاد، كارثتي الخاصة كبقية الكوارث تساهم في الخير العامّ، الإحباط والحوادث والحرائق والزّلازل والفيضانات، ما دامت تجرّ إلى الإنفاق العام فلها تّأثير ناجع في نموّ النّاتج القوميّ الخام، ولكن كيف يكتئب بني آدم في عصر الصواريخ الذكية؟

يتساءل الإنسان دائما لأن السين والجيم أساس أبجديات الإنسانية، إن كثيرا من الأحداث الروتينية تحدث ولا تهمني، لماذا يقودون السيارات عن اليمين؟ لماذا يصوِّتون لليسار؟ لماذا يوجد خمس أصابع بكل يد؟ انما حين يتعلق الحدث بكينونتي، فلا مناص من استنفار فضولي، لماذا(تي) المقلقة مع كل ما يترتب عليها من أجوبة وأسئلة مضادة، السقوط إسقاطٌ للفوضى السائدة في الكون

على الكائن، اختلال الأخلاط الأربعة في الجسد البشري (البلغم، الدم ، المرارة ، اللمفة) يقابله اختلال العناصر الأربعة في الطبيعة (الماء والهواء والتراب والنار) وجه الشبه أن كليهما لا يمكن التنبؤ به، ظاهريا لا يوجد قاعدة ثابتة في الاختلالات، تَذَبْذبُ العقل، اضطرابُ الميكانيكا الكمية، الشواذ الذي يشوب الوراثة، الشبق الجنسي الصاخب، الانقلاب المفاجئ في المناخ، اختلال الحركة الدورية المنتظمة لديناميكا السوائل، التشابك العنقودي للنجوم، الانقطاع الملازم للاستمرارية، هذه كلها ظواهر استثنائية لا تندرج تحت قاعدة، وكل ظاهرة فريدة بميكانيكية حصولها وتخضع لقوانينها الداخلية الصميمة، الإحباط كذلك، يتصرف عشوائيا بمنطق الإحباط نفسه، تختل الأعصاب مما يؤدي إلى انخفاض مادة السيروتينين المسهلة للتواصل الكيميائي بين النورونات، تحصل الفوضى، الفوضى ملازمة للنظام وموازية له، الفوضى كائنة في الطبيعة في شكل براكين، الفوضى كائنة في التاريخ بشكل حروب، الفوضى كائنة في الهندسة المعمارية بشكل حارات عشوائية، الفوضى جليّة في الأفكار بشكل جنون، وفي السلوك البشري بشكل إحباط، هذه العلامة الغامضة تأتي دائما لتبرهن على عدم امكانية التنبؤ الصحيح، نحن لا نعرف أنفسنا بالمرة، نحن نتخيل كينونتنا فقط ثم يأتي السقوط فيظهرنا كما نحن، الإنسان كائن ثنائي، وراء ظاهره يختبئ باطنه، في جسده تتجسد روحه، على وجهه ثمة قناع، كل الحقائق بسيطة، أليست هذه كذبة مضاعفة؟ يجب دائما وضع كلمة [حقيقة] بين قوسين، ولئن تسلحنا بكل الاستدلال المنطقي فأننا عاجزون عن تفكيك رموز الوحش الطلسمية، مع ذلك فإننا نحاول، دائما نحاول ألا نستسلم أمام المجهول، لِسبرِ أغوار الكائن العميقة نحتاج إلى كرسي الاعتراف (الشيزلونغ)، نحتاج لمعادلة شاملة تستوعب النسبية والإطلاقية، الكم والكيف، الباطن والظاهر، الواقعي والافتراضي، الواعي واللاواعي، الفيزيقيا والميتافيزيقيا، الخاص والعام، التفاصيل وتفاصيل التفاصيل، ما يفعله النيورون العصبي منفردا وما تفعله ملايين النورونات مجتمعة، لكننا هنا نطالب بالمستحيل، بكشف سر من أسرار العالم، فالإنسان مُدان بأن يكون

ويظل دون الأسرار، العقل قاصر والحواس الخمس تحس بالظاهر، نفس المعطيات لا تعطي دائما نفس النتائج، والراسخون في العلم هم آخر من يعلم، يستطيعون دائما محاولة حل مشكلة بأن يثبتوا انه ليس لها حل، العلم الحديث يجيد إرسال مكوك إلى الفضاء الخارجي ويجهل دهاليز النفس الداخلية، العلم ليس عالِما إلا بتخيره ما يناسبه وبتركه ما عداه، للاكتئاب ماهية واحدة وأشكال جمة ودلالات لا حصر لها، ورم خبيث في الروح، جذام باطني، آفة شمولية تصيب النفس والعقل والقلب والضمير، فاجعة خاصة، حياة تالفة ، مبتورة، غيبة الروح وغيبوبة الجسد، طوفان، زلزال، ريح عاصفة، نكبة روحية، هو كل هذي المحن وكل ما هو غامض وغير محسوس وطارئ، وما لا حيلة في دفعه، الإحباط نتيجة مرئية لأسباب مخفية، في العموميات تتشابه قصص المحبطين ولكن في التفاصيل كل محبط هو حالة فريدة، يختلف كاختلاف البصمة عن البصمة، نحن أمام مرض نسبي أعقد من أن تفسره نظرية جاهزة، شعور يمكن تصنيفه ضمن نطاق القلق العام، له إكسسواراته الأثيرة، استنفار دائم للأعصاب، نوبات الهلع والتوتّر والتفكير الدائم بالموت، أما أعراضه ورموزه الوجيهة فهي: حزن دائم، إنهاك عام، اضطراب وقلق وأرق وفقدان تركيز، شعور بالذنب ووساوس وخيالات وفوبياءات الغم والوهم والكرب والصداع والفم الناشف والإمساك والتشنج والسمنة والرجفة والدوخة وتعكّر المزاج، شحوب الوجه، اهتزاز الصوت، تندّي الجبين، خفقان القلب، زوغان العينين، الخ.
لكن من عساه يكون هذا الزائر الطارئ اللجوج؟
نقّبتُ عن ملامح الوحش في تفل فنجان القهوة، في المتون الكلاسيكية، في الفاجعة الإغريقية، في قصائد الشعراء الملعونين، في الأنتروبولوجيا والإثنولوجيا وأركيولوجيا الطفولة، في دهاليز النفس الداخلية، في الذاكرة والمشاعر المُوَضَّبة من الداخل، في شجرة العائلة، لم أجد علة مباشرة، يتعسر على عقلي المحدود إدراك روحي اللامحدودة، كيف نتهجى حروف الوحش؟ البعبع اللزج اللامنظور، يبحث الباحثون، يُنَظِّر المنظِّرون، من هذا المنظور ثم من المنظور المعاكس، يعيدون النظر في النظرية،

يقولون شيئا والوحش يثبت العكس، يفترضون افتراضات يمكن إثباتها ودحضها بالقدر ذاته، يقرئونه قراءة تفكيكية فتخرج معهم قراءة تركيبية، يرسمون له صورة روبوت تقريبية فتخرج معهم صورة تجريدية، والخلاصة هي ذاتها، استنتاجات فاسدة من مقدمات صحيحة، الوحش الضاري المبهم يربك المعادلات المعروفة، فيه من كل مرض أسوأ ما فيه، الأدلة معه قاطعة وليست دامغة، حين التكلم عنه (عن هلاميته) يُستحسَن ترجيح الصيغة الشرطية حفظا للتشكيك، بالفرنسية يقولون على سبيل الحذر il semblerait que la dépression soit [3] مشكلة الذين يحاولون فك شيفرة الإحباط انهم لم يحبطوا، يحيطون به من برّة، بِغَضّ النظر فإن الإحباط يبقى حالة ذهنية غامضة غموض النفس، هو الهيئة التي عليها يجد الموجود عدمه الخاص، هو ارتباك الإنسانية وحيرتها إزاء مأزق وجودها، انقلاب سلوكي ناتج عن اختلال الانسجام بين الروح والجسد، صدمة نوعية، اضطراب عصبي، صفعة قدرية، صراع شرس مع الوهم، انه ذلك الإثم، ذلك الإثم في النفس.

لكن، ما هي أسباب السقوط؟ هل تكون الحرية سببا للإحباط أم أن الإحباط نتيجة للحرية؟ أتساءل (وأنا أعرف الإجابة جيداً لكنني أتعمد الإكثار من الأسئلة مع الإقلال من الأجوبة حتى أورطك أيها القارئ وأقحمك في حياتي) هل هو الإدمان على الحشيشة والتسكع. الإدمان على حديقة الشاتليه ومركز بوبور [4] وعلى أفلام البورنو ومواخير سان ديني. أم هو الإدمان على كل هذه الإدمانات. هَبْ إني أخطأت بإدماني فهل يعني هذا أن أحمل على عاتقي كل خطايا العالم وإدماناته؟ إفرِضْ انه عقاب على الخطيئة الأصلية فَلِمَ أختص به دون غيري من المخطئين الأصليين؟ التوسل بالأسئلة الضحلة يوصل إلى العميقة، فالسؤال جوهر الجدل المفضي إلى كشف التناقض، ما هي النفس؟ هل يتسنى القبض على سيرورتها؟ وهذا الوعاء الذي يستوعبها؟ هل هي

---

[3] ترجمتها على ما يبدو فإن الإحباط قد يكون

[4] مركز جورج بومبيدو يطلقون عليه اسم بوبور وهو اسم الشارع الذي يقع فيه

نفسي المتصدعة التي أحبطت أم جسدي الهش الذي انهار؟ إنني أبحث عن أسباب الفشل وليس عن تبرير الفشل، لَن أُنْكِر أخطائي كما لن أحملها أكثر مما تحتمل، ثمة مشكلات يستحيل حلها ولا مفر من طرحها، سأعري نفسي ما أمكن، وأظهر عيوبي دون إخفاء مثالبي، سأكنّي عن وجعي بالوحش، وسوف أعطيه اسما شائعا: اليأس، او اسما علميا: الإحباط، أو أدبيا: الاكتئاب، أو أسميه باسمه الفرنجي: دبرسيون، أو باسمه اللاتيني: الملنخوليا، أو أسمه التراثي: السويداء، قد يكونُ السقوط كفارة على حياة سابقة غلطتُ فيها كثيرا وتوجّب عليَّ أن أدفع ثمنها، ربما يكمن السبب في تراكم مشاكل الحياة اليومية؟ ضغوط العالم الخارجي على ضغوط العالم الداخلي؟ أو تراكم هذه التراكمات؟ السؤال تمرين شاق للعقل ولا يسمح للفضول بالاحتراق فينا، والأسئلة الأكثر سذاجة هي الأصعب، هل هو توعك مزاجي ينتفي بانتفاء أسبابه؟ أهو عنصر جيني وراثي أم عنصر بيئي خارجي؟ هل هي عقدة أوديب أم عقدة الأديب؟ هل ثمة فاعل للإحباط أم إنّه حركة بلا محرِّك؟ هل يتعلق الأمر بالأبراج الفلكية أم بسلوك عليه بعض الغبار؟ هل وقع عليَّ النرد بالقرعة أم إني أختزن في أعماقي عوامل السقوط؟ طبعا أنا مُشْ من هواة نظرية المؤامرة وأميل إلى الخيار الثاني، أللّاه لا يلعب بالنرد لأنّه ببساطة مُشْ موجود، ها قد وصلنا إلى نتيجة إيجابية، الإحباط على الأقل يثير أسئلة، والأسئلة تحتوي على إحساس بوجود شيء كالخطأ والصواب، من الثابت ان فائض العنف يجد مخرجا في الحرب، وأن فائض الكبت يتبدد في العادة السرية، وأن تكاثف العنف والكبت يأخذ شكل الاكتئاب (ثمة على الأقل علاقة لفظية بين المكتئبين والمكبوتين) ولنعترف هنا بفضل فرويد الذي فتح لنا الباب واسعا باختراعه سيكولوجيا الأعماق، كما يخرج الزيت من الزيتونة فقد خرج الوحش من رحم الليبرالية التي تنتج المنافسة والتطاحن والأزمات والعاطلين عن العمل وعن الأمل، خاصة المكتئبين الذين لم يسايروا دابة الحياة في سعيها الحثيث نحو النجاح، الليبرالية وهي تؤكد على فردية الفرد تُمَتّنه بالحرية وتهشّشَهُ باحتمالات الزلة والسقوط، صحيح أنه حر يفعل ما يريد لكن في إطار ما يُراد له، أزمتي هي أزمة

الحضارة، إفراز جانبي للحياة العصرية، فالحضارة وهي تحضِّر تكبت، التربية وهي تُربّي تكبت، الدين وهو يُدَيِّنْ يكبت، النظام وهو ينظِّم يكبت، حين تجمع كل هذه الكبوتات يحدث الانفجار، بووم. بطبيعة الحال فإن كل رأس مفكّر فيه قابلية السقوط، الذاكرة الحادة حافز للسقوط، وكونك شاعرا حافزٌ آخر، كونك في الغربة سبب وجيه، كونك فلسطينيا سبب أوجه، أما كونك فلسطينيا ومغتربا وشاعرا موبوءا بذاكرة فالإحباط تحصيل حاصل، أضف إلى هذا كله، أضف فوق هذا كله، مزاجي الحاد، حياتي المحتدمة، عائلتي المُمرِضَة، نفسيتي السريعة العطب، عدميتي الفاوستية، شخصيتي المتطرفة، تفكيري المريض، انتمائي إلى اللقاطة، هامشيتي، همشريتي، صعلكتي، استثنائيتي، سيكولوجيتي الخاصة، لامبالاتي، وطواطيتي، مسلكي الشائن، زعرناتي الخرقاء، أفكاري البرصاء، أيامي السوداء، إلحادي وعدميتي السالبة، الخ. تنوعت الأسباب والإحباط واحد، حتى اللغة العربية لها نصيب بوصفها لغة مُحبِطة، فأنا مقسوم على نفسي بين العامية التي أحكيها والفصحى التي أُشْعِر بها، وكيف لا يسقط من يتصبح يوميا بوجه عبد السميع اللّميع وجريدة الأهرام والأبراج الفلكية وإذاعة الشرق وصوت وليد العمري، الإنسان نتاج لبيئته، وليس نفس النتيجة ان يلد في زمن السلم او في زمن الحرب، في كانتون سويسري او في مخيم لاجئين، لكن مهلاً، لماذا حين الاعتراف يتموه المرء دائماً بكلام عمومي ومبرِرات غير مبرَّرَة فيسقط أمراضه على بني قومه؟ للأمانة فإن إحباطي ليس مشروطا بالشرط الفلسطيني، لاسيما أني لا أعرف فلسطينيا واحد قد اكتئب، فالفلسطينية انتماء قطيعي يصون من السقوط، أنا معقّد ليس بمعنى أني أحمل عقدا نفسية ولكن بمعنى إني لست بسيطاً، قصدي إني فلسطيني وبنفس الوقت أكثر تعقيدا من بلدياتي، يعني أنا أقل فلسطينية من الفلسطينيين، يعني أكثر إحباطا، أنا بنفس الوقت متحد ومقسوم، والأنكى من ذلك هو أبني وحدتي على انقسامي، فأنا واقعيا من أكونه، وأنا افتراضيا من أود أن أكونه، وثمة بين الكينونتين بون بحجم الإحباط، سقطتُ ضحية عدم الاكتمال، عدم التحقّق، عدم القناعة بما تيسر، عدم الانسجام مع المجتمع، العدم ببساطة،

سقوطي هو شغفي الصافي في التقويض الهدام والتخريب الذاتي، أخذتُ دون أن أعطي، ركَّزتُ على الحقوق دون الواجبات، استغليتُ الحياة بغض النظر عن هدف الحياة، تطرّفتُ في تطرفي، كرعتُ فودكا حتى الثمالة، نكحتُ شراميط حتى السفلس، دخنتُ حشيشة حتى السماء السابعة، اغتصبتُ الحياة، عشتها بالدقيقة والثانية، عشتُ بحواسي كلها، بمنتهى الأنانية، في حال اشتباك دائم مع الحياة، أطلقتُ رغبة الحياة إلى آخر حدود وحشيتها، ارتكبتُ الحياة حتى آخر هفوة، أسرفتُ فيها حتى آخر رمق، لوّثْتُ نفسي قصدا في الصياعة والمتع المحرمة، توغلتُ بعيدا وراء الأثر المضلِّل، أردتُ أن أجتاز أبعد مدى بقفزة واحدة فاختل توازني، شئتُ أن أعيش العمر عمرين فشطرته إلى شطرين، أردتُ أن أتطور من كلب مدجن إلى ذئب شرس فإذا بي أتحول إلى ضبع نتن، حدّدتُ أهدافا عالية ولم أفعل شيئاً لتحقيقها ، مثل مدام بوفاري التي بقيت في مستوى الإنكباب على الحلم، مثل أوبلوموف الذي كان يجترّ المشاريع الوهمية، فسقط في الخمول وكراهية النفس، أنا الذي صرت لا أحد، الوحش الضبع ، الأفعى، الغراب، الكركي، البجع، ميكي ماوس، أنا لست سوى أوهامي عن نفسي، أوهامي عن الحياة هي كل الحياة ، أنا الضفدعة التي أرادت أن تصير بقرة، أنا عاشق الحياة الذي اغتصبته الحياة، أنا الشاعر الذي أكلته الأشعار، وقعتُ ضحية السذاجة البشرية والتفاؤل اللامحدود والأفكار الجاهزة عن فرنسا، كنت أتخيلها مصنعا كبيرا للنساء والدولارات فإذا بها فخ منصوب للاكتئاب، بلاد الأنوار والظلمات، تؤمن بحقوق الإنسان لا بالإنسان، تبهر بكلمات ليبرتي فراتيرنيته إيغاليته[5] على واجهات المباني الرسمية، وتفاجئ بشعارات عنصرية على جدران المراحيض، على أنه لا ينبغي أن أجرِّم فرنسا لأبرأ ساحتي، فأنا مهما تأوْرَبْتُ لا أتنصل من بداوتي، كنتُ أحسب أن مجرد إتقاني للغة الفرنسية سيعجل في فَرْنَسَتي (كالزنجي البدائي يظن إنّه إذا أكل قلب محارب شجاع فإن الشجاعة تنتقل إليه) للحق فإن اللغة منيعة عليَّ فأنا عاجز عن

[5] حرية مساواة إخاء".

لفظ الراء المرققة، ما يكتب ولا يلفظ، وما يلفظ ولا يكتب، لغة موليير مُشْ لغتي وبلد غوبينو مُشْ بلدي ، ولو وضعوا جمجمتي مع جمجمة أي غولي في طنجرة واحدة وسلقوهما لمدة مائة عام فستعطي شوربتيْن مختلفتين (هذه الفكرة مُشْ من بنات أفكاري بل هي للجنرال بيغو محتل الجزائر الذي تنبأ بفشل هذا الاحتلال) مفيش أمل، لستُ شجرة الدردار تنبت على ضفتيْ المتوسط لكني شجرة الطلح لا تنبت إلا في الصحراء، أنا ككل العربان يتوقون للحرية وحين تصير في متناول أيديهم يسيؤون استعمالها، الحرية تورط وتوريط وهي أساسا غير قابلة للتعريب، وقد أقصرتها على إشباع الرّغبات الفورية، ولخصتها بفكرة رعناء مفادها إن السعادة تأتي من العالم الخارجي وإن علينا أن نستهلكها بغباء، اللعنة تبدو منطقية، التراكمات الكمية أدت إلى تحولات كيفية، لا تستغربوا إحباطي، صحتي هي العجب، أنا إنسان مجروم علي وجارم، وأعترف بأن عظائمي عظيمة وكبائري كبيرة، وأعترف (لأن إسلامنا لا يعترف بالاعتراف إذ ليس ثمة كرسي اعتراف بالمسجد) أعترف لأن الاعتراف تنفيس، إنني وأنا أعترف أنزع الأقنعة عن وجهي لألصقها بوجوهكم، ولكني لم أستنفد الكلام، ما أظهرته لكم هو نزر يسير مما أغمطه، بصراحة فإن الصراحة لا تنسجم مع ميلي، أسعى دوماً لأظل غامضاً نكايةً بالوضوح، التواءات الحياة درّبتني على أن أقول الحق بِغَضِّ النظر عن الحقيقة، ما أكذبني حين زعمتُ إني لن أكذب عليكم. (لا يقتصر الكذب على قلب الحقيقة بل يتعداه إلى طمس الحقيقة) أنا بئر الأسرار، تروني طبيعيا من برّه ولكنكم لو فتحتم رأسي لوجدتموه يمور بالأفاعي والثعابين، في داخلي غرفة سوداء مغلقة أنا بوابها الوحيد، وإنّه لمؤسف أن أكون كذلك ولكني لم أختر قدري كشاعر جُبِلَ على الغموض بين أقرب الظن وأبعده، ما زال هناك حلقة مفقودة في السلسلة، سبب مجهول لا أعلمه، أو سبب معلوم أتجاهله، لن أكشف كل أوراقي فليس عندي الجرأة الأدبية، أو إنّه لم يحن حين الاعتراف الكلي، من منا يقدر على الاعتراف الكلي؟ من هو هذا المسخ الرهيب؟

[6] No trepassing

على إنني أفضِّلُ ان أكون مسخا من أن أبتسر الحقيقة، الحقيقة كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، من يحتفظ بسر ثقيل كمن يحتفظ بخنجر مسموم بقلبه، وكل حقيقة أكتمها تتحول إلى غنغرينا بدمي، لا يحسن برجل أن ينشر غسيله غير النظيف، لكن مثلي لا يُكتَم له سر (السر إن لم يخرج إلى الخارج فانه سيدخل إلى الداخل قرحةً في المعدة)، دعوني أكشف لكم الغاطس من جبل الثلج الآيسبرج، منطقة الظل المظلمة في الوجدان، لنترك حاضري في باريس ونرجع إلى طفولتي ومخيمي، فالفلسطيني يحب أن يكبر بسرعة وأن يصغر بسرعة، الاعتراف الكلي هو الوسيلة الوحيدة التي تجعلنا نفهم سبب سقوطنا. في قصص تشيخوف كان السائس يبوح لحصانه لأن البوح يحرر، وحين تتحطم الطائرة يبحثون عن الصندوق الأسود [الذاكرة] مقبرة الخوازيق والأيام الفائتة، ما يستمده البطل من ماضيه أكثر ضخامة مما يمد به هو المستقبل، ذاكرتي، تلك الغلطة التي ستسمم حياتي كلها، التجويفة الهائلة بصدري التي اتسعت لجرب الماضي وقهره، بأس الطفولة وبؤسها، سيل الذكريات وسِلُّها، رعودها وعواصفها، قيحها وصديدها، دائما تهب رائحة خنزة من تلك الأيام القديمة غير المباركة، إحباطي، قدري الخاص مصنوعاً من ذاكرتي وذكرياتي العقيمة، جراح الماضي التأمتْ على السطح وظل الصديد في الأعماق، لا أنسى، برج الأسد حقود، لا أستطيع أن أنسى، نسيت أن أنسى، ما أحسبه طي النسيان يبقى طي الحسبان، ذاكرتي ماكرة عاهرة كائدة، حدّية، خربانة، انسيابية، مسعورة، معطوبة، وتتسع للضّرّاء دون السّرّاء، تتسع للحسرات العتيقة، للأوجاع، للنفايات المتّحجرة، لكل شيء الا للنسيان، لا تسمح للماضي بالاحتراق فيَّ، لا تصدئ ولا تبلى ولا تسقط في التقادم، ذاكرتي خائنة لأنها لا تخون، استحضارها كاستحضار الأرواح، فيه

---

[6] بهاتين الكلمتين يبدأ فيلم المواطن كين وينتهي وترجمتها ممنوع الدخول (إلى داخلية الشخص)

خطورة وألم وفرح ومعاناة (حين تخيل السرياليُ رينيه ماغريه الذاكرةَ رسمها على شكل رأس صبية من رخام مغمضة العين والفم وعلى الوجه لطخة دم) لم أسقط دفعة واحدة بل انحدرتُ على مهل، المأساة حبلت هناك وخَلّفَتْ هنا، وللحق فإن اليأس راسخ أصيل في وجودي، ثمة وحشان، واحد أعيشه منذ ذلك اليوم المشؤوم على جسر أوشانج، وآخر يعشش فيّ منذ سقوطي من بطن أمي، يجب الإمساك بمعنى الوحش من منظور البيرسبيكتيف الأشمل لا من بُعد واحد، كان بودي أن أقول للطبيب النفساني إنَّ الحشيشة لم تسقطني بل عجَّلَتْ بسقوطي، كانت مجرد صاعق مفجر لشحنة مركبة من قهر عميق وعتيق، الوحش [صُنِع في مخيم البداوي] هو أيضاً مجموع الخسارات التي وسمت حياتي، جيناتي الوراثية، مخاضاتي، وعورة طفولتي، مدرستي الابتدائية، بداياتي العويصة، قصائدي العمودية، جذوري الطبقية، تربيتي الحاقنة، عقلي الباطن وذكرياتي المؤلمة، الماضي هو الحقيقة الوحيدة التي تواجهنا، ومهما تنصلنا منه فإنّه ملاحقنا كلعنة أبدية، من خصائص الكائنات الحية أنها لا تتغير بسبب ظروفها وحسب ولكنها تحتفظ مع ذلك بكل ما يحدث فيها من تغيير كأنها تحوله إلى شيء عضوي لتوجد فعلا جديدا، لا جرم أن حروف المستقبل كُتبت بحبر الماضي، وهناك أفلام كفيلم [المواطن كين] تبدأ من النهاية ثم ترجع للأمام في فلاش باك، حين يشرع شاب في سرد سيرة حياته فاعلموا أنه هَرِمَ قبل الأوان، الشباب لا يسردون حياتهم، الشباب يحيون حياتهم وحسب، اسمحوا لي قبل ان أحدثكم عن حكمتي وجنوني أن أقدم نفسي، اسمي رمضان، فتحة على الراء وسكون على النون، ولقبي أبو عيد، رمضان أبو عيد، شأني بذلك شأن [قبيحة] جارية المتوكل الجميلة، سُمِّيَتْ من باب تسمية الشيء بعكسه (الحادق يفهم).رغم سِجِل النّفوس فهو اسم مستعار استعاره لي والداي من روزنامة التُّقى ومصادافات الولادة ، كنت أتمنى ان يُطلق علي اسما قفقاسيا: باتور او تيمور او شاهبور ، لكن علاقتي توطدت مع اسمي فأصبحت الاستعارة مُلكيةً خاصة ، رأيتُ النور في مخيم لاجئين قرب طرابلس، كان ذلك في منتصف الستينات، أمي حين أسألها عن سنة مولدي كانت تمط شفتيها

وتقول "بعد فيضان نهر أبو علي [7] بشوية " وحين أسألها متى كان الفيضان؟ تقول "قبل ولادتك بشوية " (علما إن شوية بقاموس أمي تمتد من ثلاثة إلى ثلاثة عشر سنة)، أبي (ويقال انه كان زير نساء) تزوج ثلاث مرات، المرأة لأولى لم تنجب له البتة فهجرها، والثانية أنجبت بنتَيْن فقط فطلقها، والثالثة (أمي) أنجبت له خمس ذكور وأنثيين فحشرته في خانة الياك، أنا هو بكر الذكور، أخي التالي أسمه شعبان، والذي يليه أسمه رجب، أختي الكبرى أسمها حجة وهو اسم يلائم فقط شكلها الورع إذ أن الملائمة تنتهي عند هذا الحد فهي أبعد ما تكون عن الورع ولم تطأ مكة، هكذا تفتقت قريحة والدنا ليسمينا بأسماء الأشهر الهجرية، أبي كادح من عامة الشعب أو الطبقة التي تصحو باكرا، رجل على السبحانية والتوكُّل، لهذا السبب لم يفكر طويلا في إنجابنا وكان ينفخ بطن أمي بانتظام، المرة الوحيدة التي ترك فيها مهلة عاميْن بين بطنيْن استدرك الفرق وبذر في أحشائها توأما هما محرّم وربيع، أنا صَدَفَةٌ مغلقة وهناك عدة زوايا نظر يمكن من خلالها استبطاني، إذا تطلعتم إليَّ من منظور الأبراج الفلكية فسترون أسدا ناري المزاج، إذا جاز الحكم علي من المظهر الخارجي فأنا بعيد عن الوسامة وأشبه بالقراصنة الصوماليين، لو تمعنتم بوجهي فستتبينون قبسا من فطنة وجمال، ولدتُ في الزمان الخطأ وفي المكان الخطأ وفي العائلة الخطأ ، هي الصُدفة التي جمعت أبي الهادئ بأمي النقاقة، ومن هذه الصدفة تفتقتْ بقيةُ الصدف، تمنيتُ لو اخترتُ والدَيَّ ولكنهما لم يختارا بعضهما بل اختارهما رجل أسمه [المختار] ليقبض حلوان الزواج، تمنيتُ لو ولدتُ فوق خط الطول 36 وليس تحته، في غير تلك البلاد التي لم تعد تنتج سوى الموت والدمار، تمنيتُ لو ولدتُ يابانيا لولا خوفي من صرامة الساموراي حين ينتحرون بهاراكيري لأقل هفوة في الإتيكيت، تمنيتُ لو جئتُ سويسريا لولا خوفي من الاختناق في البلاد التي لا بحر لها، كما ترون فكُلّهُ مكتوبٌ كي لا أكون إلا ما أنا عليه، الصُدفة بمجرد أن تحدث تصبح ضرورة ضارة، وعسعس يسمي

---

[7] أبو علي نهر يمر بطرابلس فاض ببداية الستينات وخطف كثيرا من الضحايا

هذا [القضاء والقدر] لم أختر شيئا في حياتي، أبي فرض علي اسمي ورسمي وكسمي ولون عيوني وديني وفلسطينيتي وجيناتي الوراثية، نشأتُ هناك في الشرق الأوسط (بين شرق موسى وشرق هارون الرشيد) حيث يسود الطوطم والصلعم، وكان الفرح ضئيلا إلى أبعد الحدود، لم ألعب كرة ولم أنتسب للكشافة ولم أحتفل البتة بعيد ميلادي ولم تستهوني أغاني البوب، في حياتي ثلاث نكبات، نكبة الـ 48 التي انتكبتُ بها نيابة عن الفلسطينيين، نكبة الدين التي انتكبت بها نيابة عن المسلمين، ونكبة الإحباط التي انتكبت بها بالأصالة عن نفسي، معي، مع صفاتي يجب الإكثار من جداً ويجب استعمالها جدا، فأنا متطرف جدا جدا، كل أترابي كانوا بروح إيجابية يعرفون أنهم سيكونون أطباء أو مهندسين أو محامين إلا أنا كنت أحلم أن أتسلق السلم الاجتماعي من فوق لتحت، عبد السميع يزعم إني ضاغن على العالم لأني مُشْ شبعان حنان، هذا صحيح إلى حد ما ولا يحتاج لدليل، منذ طفولتي كنتُ مختلفاً، أقصد، كنتُ مخالفا، لم أكن ذاك الفتى النموذجي الذي تتغنى به النصوص المدرسية، المهذب، المقلم الأظافر، الذي حين يستيقظ يخلع بيجاما النوم ويغسل أسنانه ويغادر إلى المدرسة بعد أن يتناول وجبة إفطار متوازنة، لا أبدا ، مفيش منه، أذكر جيدا أن وكالة الأونروا [8] كانت تزودنا بشوالات طحين مكتوب عليها [هدية للاجئين الفلسطينيين، ليس للبيع ولا للتبديل] كانت أمي تفصِّل من شوال الخيش الفارغ ألبسة لنا، فكنتُ ترى على سروالي عند مستوى الخصيتيْن [ليس للبيع] وعلى المؤخرة [ولا للتبديل] طفولتي لم تكن عادية، طفولتي لم تكن وادعة، طفولتي لم تكن بالمرة، كان والدي يشغلني معه أيام العُطَل المدرسية، يحمِّلني شوال اسمنت وزنه خمسين كلغم وأنا وزني لم يتعدى الأربعين، كنتُ أقبل هذا العنت، أقبله دون تذمر فالحياة درب جلجلة، وكل واحد يحمل صليبه على طريقته، أجَلْ، الحياة ليست دائما عادلة، بعض الدروب مفروش بالورود والكثير منها مفروش بالأشواك، تلك المحنة التي تبدو لكم شذوذا كانت لي قاعدة، ليس الفقر رذيلة

---

[8] وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين

بعكس البؤس الذي يجعلك بائسا، أغلبية الفلسطينيين يقبلون البؤس (وبعض هؤلاء البؤساء يتباهى به) أنا أرفض البؤس حين يتحول إلى إيديولوجيا أو نمط حياة، وأطالب بإخصاء الجُهّال رأفةً بالأجيال القادمة، كان عليَّ أن أكابد محنة القليلين المتمردين على ديكتاتورية الذوق العام، كنتُ مُشاغبا وعلى استعداد فرداني خصب، نذلا لأن أحدا لم يشرح لي معنى الشهامة، أنانياً لأن أبي لم يلقنني قيم الإيثار (هذا ليس ذنبه بل ذنب جدي الذين لم يلقنه سوى قيم القبيلة: التعصب والإنجاب) عبد السميع يقول إن أباه أيضاً أُمِّي ولكنه أحْسَنَ تربيتَه، هراء! خراء! الجهل لا يربي الا الجهل، أبوه ليس أفضل من أبي ولا أسوأ، كلاهما من نفس المسطرة، كل الفارق هو إني أختلف عن سُمْعة في إنني قتلتُ أبي بينما هو قتله أبوه، عسعس صلعمي بامتياز وعاجز عن التحقق بذاته لذا يحتاج لسلطة خارجة عنه يتحقق بها: نبي، فقيه، رب، انتماء، أب وأم يقدسهما، هذا كله عندي مدنس، كله باطل، لماذا نسكت عن خطايا آبائنا؟ هل هم معصومون؟ لم يكن أبي مُلْزَما بإنجاب كتيبة أطفال لفقره وأميته وسواد أيامه، اقترن بأمي في سن متقدم يضمن لنا مستقبل اليتامى، أصرَّ على الغلطة التي يصر عليها كل فحول الشرق، الإنجاب الذي يعني الخلاص من الجوع بالجوع، مات أبي في ذروة مراهقتي وقتلني بموته، ترك برقبتي ستة أخوة كلهم أصغر مني، مع ذلك فالحياة لم تكن كلها سوداء، كان فيها أشياء أخرى أقل سوادا كاليتم والمواساة والشفقة ومفرداتها الرائعة [يا حرام، خْطية، ، أرملة، أيتام ، قواريط] شي ظريف أن تكون بكر العيلة. هذا يعني انك مرشح بين ليلة وضحاها لتكون حمار العائلة، الواجب واجب وأي عديم مروءة يتنكر للواجب، وعلى هذا الأساس توجب عليَّ أن أنزل للورشة لأكدح وأرقِّع ما لا يرقّع، تعطلتْ حياتي، كبرتُ بسرعة وهرمتُ قبل الأوان، تحولتُ من رمضان إلى أبو عيد، حرقتُ المراحل التاريخية قفزا من المراهقة إلى الكهولة، الذي أوجعني أكثر هو أولئك اللئام الذين جاؤوا يتصدقون على الأيتام، جاؤوا يريحون ضميرهم بسحق ضميري، جاء أحد النشامى طرق على الباب، اصطنع تواضع المحسنين وهو يدس في جيبي ورقة زرقاء من

فئة مئة ليرة "صدقة جارية لليتامى المساكين"، طأطأتُ رأسي ومزقتُ الورقة ولعنتُ الرجل ولعنتُ أبي في قبره، لحسن الحظ لم تستمر الحال فحركة فَتْح نفسها هي ضمان اجتماعي للفقراء والعاطلين، انتظمنا أنا وبقية الأشهر الهجرية في صفوفها، عشنا من بركات الثورة ومرقنا من فصيلة الأيتام إلى فصيلة الفدائيين، ليس مستحسنا أن نكذب ولكن يحسن بمن يَسقط أن يُسقط سقطته على الجميع، إذا صارحتكم بهذا فلأنّه من المهم أن تعرفوه، القصص القصيرة تقص قصصا كبيرة، حياتي فيها من التراجيديا ما يكفي لصناعة كوميديا، تخيلوا المسلسل الدرامي، رجلا أمّيا جاهلا في الستين يتزوج بامرأة أمّية جاهلة ينجب منها سبع أطفال (شبه جهلة) ويرحل في السبعين، وكل هذا في بلد منهك بالحروب وليس فيه ضمان اجتماعي، وفوق هذا لازم نحترم آبائنا لأن صلعم أوصى بالوالدين إحسانا، غير أني لا أعترف بصلعم ولا بقيمه الميتة، من حطّم الصنم الكبير [الطوطم] لا تهمه الأصنام الصغيرة، أستطيع أن أقول بصوت عال ما يقال بصوت خافت، الإسلام يريد أن يحتكر الأخلاق كما احتكر بقية مجالات الحياة، وذلك بتأبيد الخضوع والاستسلام، فَوَلِيّ أمرِنا أدرى بأمرنا حتى وهو يبذرنا لينذرنا لليتم أو الشقاء أو للتسول على أبواب أوروبا، الإسلام يريدنا قطيعا من أغنام خاضعة للآباء والبطاركة والرموز والأبطال، لأنني كنت فضوليا فقد كان أكثر ما يريبني في أبي أنني كنتُ أسأله عن معلومة ما فيقول لي "لا أدري"، أتعجبُ وأسأله "كيف لا تدري وأنت من بذّرني؟" تشهيتُ لو أن لي أباً غيره يجيب عن أسئلتي بدقة أكثر، وكنتُ أخجل منه لكونه أكبر من آباء زملائي، كان أقرب لجد منه لأب، على أي حال فاللعنات العائلية ليس شرا محضا، والنقص غالبا ما يدفع إلى الكمال، الصدفة السيئة قد تصبح ضرورة جيدة، كنتُ سبّاقا مجليا بكل مضمار وخاصة في الرذائل، وفضلا عن عقوقي كنتُ على درجة عالية من الديالكتيك، أملك أسرار اللغة وما يكفي من وعي المُفارقات، أتكلم مع الرفاق الماركسيين في اقتصاد الصين وليس بجيبي فرنكا واحدا، أجيدُ الكلام الطليعي، أميِّزُ بين التكتيك والإستراتيجية، وبين التناقض الرئيسي والثانوي، أتكلمُ في مساوئ الاشتراكية

وفي محاسن العادة السرية، أعرف تضاريس بلاد الغال وجرمانيا وأسم عاصمة الأكوادور وتوغو والدول الحدودية للمكسيك دون أن أخرج من المخيم، أينعم، كانت القراءة فاكهتي المفضلة، أطالع كل ما يقع تحت بصري، أوراق الجرائد التي يلف بها الدكنجي السكاكر، كنت أقرأ النعواتَ وأدبيات حيطان المراحيض والإعلانات المبوبة وصفحة الوفيات والأبراج الفلكية والمنوعات وحوادث متفرقة. كنتُ أمتثل الأمثال واستظهر المعلقات السبعة وأقرض شعر المناسبات، وفي الحقيقة فأنا مُشْ ألمعي ولكني موهوب بذاكرة فظة، كل ما أقرأه أبتلعه تواً، في الصف رغم كوني من النجباء لم أجلس البتة في المقاعد الأمامية بل في الخلفية مع تيوس الصف العتاولة الأشقياء الذين كانوا ينفرون مني لأن وجودي بينهم يلفت نظرات المدرس إليهم، وكنتُ صرحا فكريا قائما بذاته، أقرب إلى طفل أنبوبة بذكاء اصطناعي، مَن مِنْ بين أربعين تلميذا يقدر على حل كلمات متقاطعة؟ من سوى [أبو عيد] يستطيع إعراب جملة فيها مضافين (الأستاذ نفسه لا يستطيع) كنتُ الزبون الوحيد للمكتبة الوحيدة بمخيمنا، قرأتُ فيها كتب التاريخ والأدب (باستثناء أدبيات المقاومة التي لا أفقه منها شيئاً، البروباغاندة لا تناسب عقلي، أفهم حين يكون الفكر حرا لا تلقينيا) كنتُ هجنة تدهش وتقرف بمقادير متساوية، لا أحب أحداً ولا أعبأ بكارهي، بتٌّ معروفا لدرجة أن أهل المخيم أطلقوا لقبي على كل إخوتي، حتى أختي حجَّة لقبوها أخت أبو عيد، والدتي أم أبو عيد، والدي أبو أبو عيد، لم يكن أحد يعرف اسم عائلتنا الحقيقي الذي غطيتُ عليه بلقبي الطاغ ، كانت دارنا نقطة علامة ليس لأنّها الوحيدة المبنية بالباطون المسلح وإنما لأنها بيت أبو عيد، فلان من يكون؟ قريب أبو عيد، هذا الخط الرقعي على شاهد القبر من خططه؟ مين غيره، أبو عيد، من ذاك الصبي الذي ألقى قصيدة حماسية بعيد المعلم؟ كنتُ أحب المدرسة وأكره المدرسين بسبب ميوعة أسماء أبنائهم المستعارة من أبطال المسلسلات (شادي، سمير، فادي، أسيل، وسيم، نسيم، زب حمار والذي منه) رغم ذلك فقد كنتُ أدلس على المعلمين بقصائد يوم عيد المعلم، لم أكن آبه بالمعلمين بقدر ما كنتُ أهتم بمعلميتي في القريض، كنتُ كذلك

أكتب قصائدا حماسية تمجد الموت في ساحات المعارك التي لم تطأها أقدامي لأظهر أني أمتلك معلقاً ذهبياً بينَ شفتي، كما ترون فعيبي الوحيد هو عدم التناغم مع الواقع، (أن تكون مختلفا لا يساعدَك متراً واحداً) حياتي كانت دائماً أوسع من أن تكون، وقد أردتها أن تكون مغامرة مع ماركوبولو على طريق الحرير، مع السندباد في البحار السبعة، مع الغجر المغامرين في أرض الله الواسعة، إنما الصدف وظروف الحرب الأهلية تضافرتْ كي أبقى في سجن المخيم الكبير (قطعة أرض بمساحة حاملة طائرات أمريكية) أنا من صنف طيور الحبارى التي إن مكثت بمكانها تفقد ريشها، أنا مذنب بالفطرة ملوث بالخطيئة الأصلية، لست بطلا ولا قديسا، لي شخصيتي الفريدة التي لا تنطبق إلا على مواصفاتي، يمكن تصنيفي ضمن الشخصية المضادة للمجتمع، لست الشاب المطيع البار الذي تختار له أمه خطيبته، حسي النقدي استقيته من أخطائي، فكل ما ألوم الآخرين عليه هي أخطاء اقترفتها بنفسي، أنا عصابي أكثر مما تظنون، في أعماقي عفونة المساجين والمطعونين والمصابين بالبرص، في تكويني الروحي نقطة سوداء، في رأسي ثآليل ودمامل، صحيح ان الصدفة خلقتني بائساً لكن تعتيري لم يمنع دون اهتمامي بالأدب، وحسبي اني أقرض الشعر وأحس بغير المحسوس وأستقرأ الطبيعة وأحوِّلُ الجمادات إلى رموز، عبد السميع يقول إني شاعر درجة ثانية ، معلش، أنا دائما مصنف في خانة ما رغما عني، صفدي بين الفلسطينيين، فلسطيني بين اليهود، عربي بين الفرنسيين، مسلم بين غير المسلمين، لكني، رغم أنف من ينسبوني إلى غيري، شاعرٌ لا غير، شاعر متمركز حول ذاتي، ولست كبقية الشواعير الفلسطينجية، ينصرون القضية على ذاتهم، وينصرون البلاغة على الشعر، وينحازون للمجد ضد الشرط الإنساني، أنا إشكالي ، هوايتي الرقص على الألغام ومداعبة الأشواك، الاستقرار لا ينسجم مع ميلي، التجارة لا أحبها، الدراسة لا تناسبني، أنفر من السعادة البيتوتية، لا أسعى لمكان نهائي، أحبذ الالتواءات على الخطوط المستقيمة، أكره النهايات وأرى فيها نهايتي، أحب المخاطرة وأعيش مكشوفاً في عين الاعصار، المرتبة لا تهمني،

الشهرة والعار عندي سواسية، بكلمتين، أنا هو وعيي الخاص، فلسفتي جدّ بسيطة والأشياء التي أؤمن بها قليلة، أظن أن ماركس أتى بأفكار جيدة عن العدالة ولكن البشر يرفضون العدالة، وأظن كذلك ان المال أقل أهمية من الحياة، وأن الحياة أقل أهمية من الحب، وأن الحب أقل أهمية من الحرية، هذا ما أظن إنني أظنه، لكن لماذا تنظر دائما إلى الوراء يا قلب؟ بإمكان أي إنسان أن يختصر حياته بأربع أو خمس جُمَل، فلماذا كل هذه الاستطراد وإفشاء الأسرار؟ أعترف بأني لم أعترف بكل شيء، ومهما قلتُ يظل المقال فيما لا يُقال، وراء كلامي الظاهر كلامٌ مستَتِر، ووراء الكلامين رمضان آخر، أنا مثل جريدة البرافدا التي تعني بالروسية [الحقيقة] وتقول كل شيء الا الحقيقة، أنا مفهوم لا يُفهم، ألعبها عالمكشوف وأوراقي مخفية، شخصيتي تقبل القسمة على اثنين، على ثلاثة، كدمية البابوشكا التي تحوي بداخلها عدة بابشوكات، أخفي الحقيقة في المجاز، واللغة في اللغو، والتسمية في التعمية، أذوِّبُ الدلالات الخاصة في العامة، البراني في الجواني، لا أجيد الكلام عني، ومهما طوّحتُ بوجوهي المستعارة أظل مقنعا وأقنعتي تسهم في تعريف من أكون، أنا توليفة عجيبة منكم كلكم ولا أشبه إلا نفسي، أنا آخر بعينه، ومهما صارحتكم تظل شخصورتي ناقصة، بابي ينفتح للداخل ولا يظهر ما بداخله، لا أحد يشبهني ولكني أشبهكم كلكم، وأختلف عن الكائنات طرّاً وجميع المخلوقات، أنا الواحد في لعبة الجميع، أنا صوتكم يا رفاقي المنافقين، الصوت الحق لأحلامكم الباطلة، تقولون إني شاعر محبط، حسنا، مع ذلك لن أحرق أشعاري، سيأتي يوم تدرسون فيه قصائدي ويصلكم شعري ناضجاً فجاً، ستكون نذالتي مثلا أعلى للجميع.

24 ساعة في حياة محبط

entre se reveiller et se relever C2EST NEST PAS UN SIGNE DE BONE SANTé MENTAL QU éTRE ADAPT2 A UNE SOCIET2 \MALADE افتح عيني في السادسة وانهض في الثامنة ù الفارق بين اللحظتين طويل بطول ساعتين ، ممض لا اريد ان انهض ان افتح عيني ان ارى الوحش اتقلب يمنة ويسرى اتعارك مع الفرشة اجدف على الله الذي خلق الليل والنهار ، اشقة ساعتين في يومي ، لحظة العبور من اللاشقاء الى الشقاء، ومن النوم(الافلتان من براثن الوحش) الى الوحش ، اتصارع، اعرق ألهث ، ارتجف، أكظ اسناني لأكتم غيظي من النور اتصارع مع البطانية مع عوارض السرير اريدان انام نومة ابدية اريد الا افيق لكني فقت كرمال عيون الوحش، تحممت تصارعت مع الشفرة ، بهاتين الساعتين اختصر كل شقاء الاشقياء، جسدي متخشب ذراعي متخشبة في النوم لا احس بشيء حلقت ذقني شعيرات تحت ذقني تركتها الماء لسعات ، بؤسا للحالمين اليقظة اقذر معاناة كنت مرتاحا هناك في الظل (النوم) ظل العالم النوم ، بصقات على خدي شتائم بوجهي لبطات اشتريت سندوشية قبل ان اكل اول لقمة بصق صيني على الشارع في حي شاتودان كان منظري نشازا بين الزنوج احدهم سألني هل تريد عشبة سحرية لتصحي راسك الصباح عتمة المحبطة ، الظلمة نور المحبط صباحه المشرق ، الصباح بالنسبة لكم أنتم للأغيار الاصحاء هو البداية بداية الحياة ، هو الاشراقة ، اشراقة الامل ، النور ، نور النهار ، هو زقزقة العصافير وانبثات الحياة في الشرايين، شرايينكم ، هو بث السم بشراييني ،بالنسبة لي هو بداية الرعب ، يقظتي هي المجزرة الموت المسلخ ، الرجفة ، الوجع اللامنقطع، مواجهة الوحش، انا كائن ليلي ، ، انا محبط في النهار فقط ، اما ليلا فأنا معافى مثلكم أحلم وأنام ليلا انسى اني محبط ، مهما كانت كوابيس ليلي مرعبة فهي ارحم من كوابيس نهاري ، الوحش هو اول من أراه ، دبقه اللزج، منظره الاخطبوطي المتشكل بشكل الأمكنة ، نهار جديد يشبه كل النهارات ، لا نهاية له على قصره ، موت مكرر للموت

اليومي ، اتذكر اني ميت حين أصحو حين تنخر اذني جملة الحكم بالاعدام debout tout le monde يقولها ناطورالليل بصوت يشبه منشار يأز في لحم طفل طري ، نتيقظ كلنا انا ونزلاء المهجع هم للحياة وانا برسم الموت ، لماذا يا ترى لا يكون اليوم ليلا من 24 ساعة ، نومة أبدية بلا فيقة ؟ تزول غشارة الليل وتنجلي عن واقع صدأ ، الدم البصاق ، الرجفة الالفة اهتزاز بدي ، تيبس يداي ، يزول سواد الليل فيبدأ سواد الوحش، سواد بسواد ، بالنسبة لبريمو ليفي في اوشفتز هذه اللحظة الصباحية هي الارعب وتختزل الجوع والتعب والعمل الشاق الاجباري والبرد واليأس والموت عينه ، لحظة الم كثيف ، حين يسمع بالالمانية Aufstehen او بالبولندية wstawac ، انهض تقال بصوت خافت ومرعب لانه يعرف انه مطاع ، يتلاشى دفء اللحاف ، دف النسيان يبدأ النزع النهاري ، أنهضُ بطريقة نهائية أتعارك مع تبس اطرافي ، أجذف على الله الذي خلق النهار واليقظة ، لا طائل للمماطلة وإلا ركلني الناطور برجله لينتزعني من السرير ، فعينه علي عشرة عشرة لأنه يعرف اني أبلد الناهضين ويريدني ان أتأخر ليركلني ، أنهض نحو الدمار الزلزال اليومي الوحش اليومي ، الوحش يتوحش في النهار فقط في الليل ينام ينام قربي ولا ينام في ، يتخفف عني نهارا ينهض معي ويحتلني ، صباح الخير ايها الوحش

كانت الساعة تشير للسابعة حين لفظني مأوى جيش الخلاص، وضعتُ في زنبيلي علبة تِتِنْ (من قبيل الاحتياط) وأربع علب بروزاك ولوكسوميل (من قبيل الإحباط) جرجرتُ جسدي، اشتريت الخبز المحلى بالزبيب، اشتريتُ جريدة الأهرام ودلفت إلى مقهى، انتحيتُ مكانا قصيا بطرف المشْرب وطلبتُ قهوة مع كأس ماء، بلعتُ نوبة الصباح من المسكّنات (أغمضتُ عيني فمذاقها كريه كطعم زيت السمك) وفتحتُ الأهرام على صفحة الأبراج الفلكية.. ثق بنفسك يا أسد، لا تتخاذل

قلبْتُ صفحات الجريدة بآلية.. الشعب يطالب الرئيس بالبقاء، الدربي المنتظر بين الأهلي والزمالك، إعلانات مبوبة، إبادة حشرات، عطاءات ومناقصات، وزارة الثقافة تحتفل بعيد الشرطة،

سائح خليجي يغتصب ناقة، باب الوفيات، طوبى يا رب لمن اخترته ليسكن في ديارك للأبد...
طويتُ الجريدة وتنهدتُ، الأهرام كالأهرامات لا تتغير، إنجازات هنا وجنازات هناك، لعلها سبب من أسباب إحباطي. لماذا يقرأ فلسطيني جريدة مصرية تكذب حتى بنشرة الأرصاد الجوية؟...
تردَّدتُ عند الناصية في حالة من الرجفان، مركز بوبور يفتح أبوابه عندما ينتصف النهار، أين أبدد الساعات الأربع؟ فتحتُ مفكرة العناوين، مريم المغربية! صارت تتطير مني وآخر مرة أطبقت سماعة الهاتف بوجهي، يانوش البولندي! صعلوك همشري لكن ما عنده عنوان، حسام الكحلوت! من جماعة [أبو نضال] وهاتفه مراقب، يكفيني إني مشبوه بشبهة الإحباط، بقي صديقي اللدود، سُمْعة، ما غيره
هاتفتُ عبد السميع من كابينة العمومي، رد علي تسجيل صوتي، دخلتُ حديقة غوبلان، قعدتُ أتفرج على متقاعدين صينيين يمارسون ألعاب لياقة بدنية، فكرتُ أن أقحم نفسي بينهم وتراجعتُ، ماذا يفعل شاب مثقل بإحباطه بين مجموعة كهول مفعمين بالحياة؟ مررتُ بمحاذاة عمارة [جاك] الشاهقة فشعرتُ بانقباض أوتوماتيكي، رأيتُ الناس تسعى لأرزاقها بخطى حثيثة فتباطأت، انخرطتُ مع سيل الجموع في شارع موفتار، هطل المطر فلم أفتح مظلتي نكاية بالسماء، عبرتُ إلى جهة اليمين نكاية باليسار، تسللتُ بين الأرصفة وباعة الأرصفة حتى بلغتُ ساحة كونترسكارب، انعطفتُ نحو مدفن البانتيون، لم أعرف أين أتجه فدُرْتُ دورة كاملة حول الصرح الضخم، حاذيتُ ميدان جيسيو، لم أدخل معهد العالم العربي، (أكره هذا الوكر الإكزوتيكي الشبيه بحظيرة خنازير بشرية) مشيتُ وفي يداي جيوب فارغة، نحيتُ في هذا الاتجاه ثم بالاتجاه المعاكس بلا هدف واضح سوى محاربة الوقت، لاشعوريا دخلت مكتب التشغيل، أعرف إنني لن أجد شغلا ولكنه طقس عبثي والفتُ عليه لتضييع الوقت، انتظمتُ مع العاطلين أمام لوحة إعلانات الوظائف الشاغرة، الإعلان الوحيد الذي يناسبني هو ناطور ليلي في فندق، لم أستوفِ الشروط المطلوبة، يريدون

رخصة سواقة ونبذة حياة مهنية وثلاث لغات، كل ما لا أملك، مهزلة هذه الفرنسا. صار الCV فيها أهم من الأناجيل الأربعة،
هرعتُ إلى مقر جمعية SOS دبرسيون فاستقبلتني موظفة الاستقبال، قالت دون ان تنظر لي "انتظرْ"، انتظرتُ قليلا قبل أن أتبين أن انتظاري سيطول، نظرتُ للساعة فرأيت العقارب تمشي ببطء، كم هو مختل مفهوم الزمن في رأس المحبط! يومه كبيس من 42 ساعة، تحرقصتُ فغيَّرتُ قعدتي، تصفحتُ مجلة باري ماتش المرمية على الطاولة، صور الجت ست، المشاهير، العشيقة الأخيرة لجوني هاليداي، شيلا في عطلتها الأسبوعية ، صوفي مارسو برفقة البوي فرند في جزيرة نائية، عالم من السعادة يفاقم إحساسي بالكآبة، أطلَّتْ المرشدة الاجتماعية وقالت انه ليس عندها ما ترشدني إليه سوى مراجعة مستشفى مارموتون للمدمنين (الذي بدوره سيتخلص مني بإرسالي إلى جمعية SOS دبرسيون) لعبة بينغ بونغ، منذ سقوطي وأنا أطرق الأبواب الخلفية للحياة، جمعيات البر الكنسية ومطاعم الحي الجامعي التي توزع طعاما رخيصا للطلاب، أنا بعثرة خطواتي في الشوارع، أنا القط الأعور الذي لا تريد أي عجوز أن تداعبه، أنا مرفوووض، رمضان أبو عيد اسم ممنوع من الصرف لا يلحقه تنوين ولا كسرة، أين المفر!
سقطتُ فَسقطتْ باريس من عيني، هذه المتاهة الموحلة التي أحببتها أكثر من كل المدن وتمرمرتُ فيها أكثر من كل المدن، جزيرة الكنز التي كنت أبحث عنها في الطلاسم وحين وصلتها وصلتها أعمى بلا حواس، المقبرة الفسيحة ، الجدران السود الطويلة، الوجود الناقص والأفق الكئيب، الوحش كماشة تكمش من الجهتين ، كآبة، سويداء، انكسار، طحن، قسر، نكد، واحتضار أيضاً...
حملتني ساقاي إلى قصر العدل لتبديد ساعات الضجر الطويلة في سماع قضايا المحكومين، مرر الجندرمة آلة التفتيش على بدني فرنّت عند مستوى فخذي، قلتُ هي رصاصة بقيت بساقي من أيام الحرب فتركني أدخل، شعرتُ باختناق بسبب كلاوستروفوبيتي، فانسحبتُ وسحبتُ سيجارة من علبة الدخان ثم تنبهتُ انها آخر سيجارة فقررتُ مجَّها بتركيز شديد، عند نافورة السان ميشيل

أغاظني منظر عاشقيْن يتعانقان فأسرعتُ وأنا ألعنُ الحب ، ثم تريثتُ أمام كتاتيب البوكينسيت على رصيف السين، مشيتُ بلا اتجاه، بلا مقصد في الدروب المتيبسّة المعتادة (أتجول في المدينة فأتجول داخل نفسي) كنتُ في غاية التوجس لذا تجنبتُ جسر أوشانج المشؤوم، عبرتُ النهر باتجاه الضفة اليمنى فوق جسر أركول مزدحما بإحباطي وخرمتي، فتشتُ في جيوبي لعلي أجد ما أشتري به علبة غلواز فوقعتُ على خمس فرنكات فقط وهذا ما جعل شعوري بالخرمة مضاعفا، رباه ماذا أفعل والسيجارة عزائي الوحيد؟ أعرف مقهى يبيع سجائر بالمفرق، بالسيجارة، لكنه بعيد بعيد بميدان كليشي وأنا تعبان، تعبان، دنوْتُ من رجل يدخن ولم أجد الشجاعة الكافية لأجمركه بسيجارة، أمام مسرح الشاتليه سمعتُ معزوفة كالينكا تعزفها جوقة الجيش الأحمر إشهارا لحفلتها المتوقعة في السواريه، خطرت لي فكرة كويسه لكسب قرشين، فتحتُ زنبيلي وأخذت ألم تبرعات (لي) باسمهم، لكن عازف البالالايكا قال لي "سباسيبا [9]"واستولى على الغلة حتى آخر كوبيك، اندحرتُ خائبا حتى كنيسة سان ميري، رأيتُ الباب مفتوحا فدخلتُ، في أشد لحظات الوحش حين تضيق بي المدينة ألوذ بهذا المكان الاستثنائي الهادئ، أرتاح، أتأمل اللوحات ذات المواضيع الدينية، يسوع في المزود مع ملوك المجوس، مع أمه المادونا، في مصر مع العائلة المقدسة، في العشاء الأخير مع حوارييه، على الصليب وحده، لوحات زيتية ورسومات وخيال وزجاج ملون وأرغن وبخور وسكينة وكل ما لا أجده في مسجد عبد السميع، انشالتْ عيناي نحو لوحة زيتية تُظهر المسيح في درب الجلجلة مع جلاديه والصليب يثقل كتفه والسوط يسوط ظهره وإكليل الشوك يدمي رأسه، حملقتُ بلوحة ثانية تظهره مصلوبا، رجلاه مائلتان عكس ميلان رأسه بطريقة تغلِّب إنسانيتَه على ألوهته، هذا الرجل / الإله الذي أحيا ألعازر وأبرأ الأبرص وزاد غلة الصيادين، يشبهني هذا المحطم المتعاظم بحطامه. عيناه

[9] شكرا بالروسية، / كوبيك فراطة العملة الروسية/ الشمّاس = خدام الكنيسة

عيناي ، وتلك هي أمه التي حبلت بلا دنس، هل معكِ سيجارة أيتها المملوءة بالبركات؟
طفقتُ أراقب صندوق الزكاة، فكرتُ أن بإمكاني شفط ما فيه من زكاة بواسطة شفاطة كنس كهربائي، وفكرتُ أيضاً أن أطرق باب غرفة الشمَّاس لأطلب منه أن يسلفني ثمن علبة غلواز، مجرد تفكير قذفني إلى الخارج نحو شارع سان مارتان، التقطتُ عن الرصيف بقايا سيجارة مستهلَكة لنصفها ودخنتها دون حرج، راودني حنينُ المجرم لمكان الجريمة فتوجهتُ إلى حديقة الشاتليه، قعدتُ بمكاني الأثير تحت برج القديس يعقوب، رحت أتسلى بتفتيت ما بقي من الخبز المحلى بالزبيب لزغلول حمام برجل واحدة، لكنه تلكأ في نقرها اذ تجمع الحمام نقروها ونقروه حتى يبتعد، يشبهني هذا الزغلول. الكئيب دائما حيطه واطي لأنه لا يجيد القفز عن حيطان الأصحاء،
انتبه لوجودي فيليكس الأنتيلي ناطور الحديقة، وسألني عن غيابي وهل كنتُ في زنزانة التصحية؟
أجبته أني مريض.
"بأي مرض؟"
"بمرض لا أدري طبيعته، العدمية السالبة أو الدبرسيون. "
"ربما انك تعشيت على مائدة ضمن 13 شخصا؟"
قال فيليكس المتطير ثم رسم إشارة الصليب على صدره ورجع مسرعا إلى ربيئته، الكئيب دائما مريب ومشْبوه باكتئابه، قلت لنفسي، ثم فوجئتُ بالصعلوك البولندي يانوش، رأسه أقرعا تماما، مد قنينة خمرة باتجاهي :
" ارشفْ رشفة يا رمدان، انها فودكا حلال مسروقة من متجر فرانبري بتاع اليهود "
تحججتُ اني أبلع أدوية والكحول لا تناسبني، عرض عليَّ سيجارة جيتان بدون فلتر فقبلتُ، عاينَ لهفتي للتدخين فأعطاني سيجارة أخرى شكلتها خلف أذني، كانت المفرزة الصحية قد قادته إلى المحجر الصحي في نانتير حيث حُجِر عليه قسرا وغُسِل رأسه بالكيروسين وحُلِقَ شعره على الصفر .

" تخيَّلْ يا رمدان، هيبياً لا يملك في الحياة الا شعره ويحلقوه! هؤلاء الأوغاد! "
قال هذا وكرع كرعة ناشفة ثم سألني :
"بأي مأوى ترقد؟"
" بمأوى جيش الخلاص "
" هل يسرح فيه القمل؟ "
"في بعض الرؤوس فقط"
"هل يمكنك أن تتدبر لي فيه مكانا"؟
"سأحاول".
هكذا رديت عليه، اقترح علي مرافقته إلى مبرّة أبرشية سيدة الفقراء لتناول الشوربا مجانا، قلت اني فاقد للشهية، أمسكتُ زغلول الحمام العليل بيدي ورحت ألقمه الخبز، في هذه الأثناء كان البولندي قد شرب حتى انحلتْ مفاصله وفاجئني بقوله :
" تخيّل يا رمدان، بولندة كانت تمتد من بحر البلطيق للبحر الأسود، لم يكن عندها مستعمَرات عربية قط ".
خرج عقب السيجارة من بين شفتي مسحوقا من شدة الرجفة والتوتر:
"كيف تريدها بمستعمَرات وهي نفسها مستعمَرة روسية؟"
أخذ الصقيع يرتفع من قدمي إلى ركبتي إلى مصاريني فانتزعتُ نفسي انتزاعا، تركت يانوش وحده يشتم الروس والشيوعيين، تسكعتُ نحو شارع الطعريس في سان ديني، رأيتُ النيون الأحمر يشع من دور السكس وصالات البورنو، بصبصتُ على المومسات فلم ينتصب البتاع كالعادة، (هكذا حلَّيتُ مشكلة الجنس) مشيتُ بخيبة محارب يسير إلى هزيمة ولقيتُ نفسي قبالة بوبور، دائما أبحثُ في التياعي عن ميناء آمنٍ فلا أجد سوى هذا الخازوق، مثل برج إيفل مهما ابتعدتَ عنه تراه، يشدني بوبور كما يشد مغناطيس جبار نشارة حديد، أعود إليه دوما بعد أن تلفظني الشوارع، أصيب فيه قليلا من الدفء وأحياناً أغفو بعيدا عن أعين العسس، أتلصص على الطالبات والسائحات وأقرأ الجرائد العربية مجانا (عسعس يعرف أين يلقياني إن ضعت في باريس) الفكرة الأساسية عن بوبور هو انه مكان أساسي للحشود العشوائية المنظمة، مثل بلاج

السباحة في يوم صيف يكتظ بكذا ألف من السابحين ويمكنه أن يتسع لألف آخر، إنه على كل حال مكان ديمقراطي مضياف بِرَسْم الكل، أدمنتُ على بوبور كما أدمنتُ على الإحباط والبروزاك وعلى أكاذيب جريدة الأهرام.

في بلازا بوبور لم يكن ممكنا تجنب جماعة شهود يهوه لكثرتهم، كانوا يوزعون منشورات بكل لغات البلاد المصدِّرة للمهاجرين، تلقّفني أحدهم وأعطاني نشرة [برج المراقبة] باللغة العربية، وقللي بالفرنسية:

" الله يحبك"

ماذا أفعل بهذا الحب المِنْ طرف واحد ؟ بهذا الحبيب الذي يحب الذكور والإناث والطيبين والمجرمين ؟ هذا الخالق (أن كان موجودا حقا) فإنه قد خلقنا ليتلذذ بتعذيبنا ، أخبرته إني محبط وتشق علي القراءة ، فانفعل الشاهد وتشبث بي أكثر، بلل باطن إبهامه بريقه وفتح العهد القديم على إشعيا ثم قلّب صفحاته على مزمور 29 رؤيا 21 :

"الرب بسيفه الباتر سيقتل التنين في البحر ويدمر الموت ويشفي من الإحباط "

انضبعتُ بنظراته الضابعة أكثر من كلماته الضارعة، وضَّبتُ النشرة في الجيب الخلفي، انتظرتُ مع المنتظرين لدخول بوبور، صف طويل من الطلبة والعواطلجية والمُشردين الصياع والنشالين والسياح والباحثين عن الدفء وعن العلم، تأملتُ عداد النيون الأحمر الرقمي الذي يعد عكسيا الثواني الفاصلة عن نهاية الألفية الثانية، ثمة كثير من المعايير أؤرخ بها سقوطي، مثلاً عدد السجائر التي أدخنها (سيجارتين بالساعة) مقعرات البروزاك الفارغة (ستة يوميا)، المعاينة الدورية في مستشفى مارموتون (مرة أسبوعيا)، عدد ثقوب الإبَر المهدئة في فخذي (ثلاثة شهريا) لكني أفضِّلُ عليها العدادَ الرقمي لبوبور، فهو يقول لي كم من الثواني مر عليَّ في وحشة الوحش، خمس ملايين ثانية، شهران كبيسان، كم هو مختل مفهوم الزمن في رأس المحبط. الثواني تمشي مسرعة بينما الوقت ينساب بطيئا، النهار على قصره طويل، الحياة طويلة، طويلة أكثر من اللازم.

تصفحتُ الكتيب بتاع الشهود فوقعت على فردوس طوباوي حيث الماعز يمُشْط لحيته بمخلب الأسد، وحيث الكل ، زنوجا بيضاً أسيويين هنودا، تشف ابتسامتهم عن أسنان ناصعة كأنها دعاية لمعجون أسنان، رميتُ الكتيب في أول صندوق قمامة صادفته، رحتُ أبحث عن وجه أليف مدخِّن يجبر خاطري بسيجارة، صادفتُ صباح العراقي بيّاع الجرائد، اقتربْتُ منه ولم أكن قد سألته بعد حين هبَّ في وجهي:
"وداعتك يابه ماكو[10] جكاير".
ثم مد يده إلى جيبه وأخرج سيجارة واحدة ودسها بطرف فمه، صعدتُ الدرج الزكزاكي إلى الطابق الخامس، تمهلتُ عند الشرفة، ألقيتُ نظرة بانورامية على البلازا والإنسانية الشاسعة تحتي، نقاط سود من العازفين المهرجين والمُشاة والسياح وجماعة شهود يهوه، كومة هائلة من النقاط السود، عالم أسود يستدعي الأفكار الأكثر سوداوية، وهرولتُ نزولا إلى المكتبة، دخلتُ المرحاض وبلعتُ نوبة الظهيرة من العقاقير المهدئة وشربتُ من ماء الحنفية، تسكعتُ بين رفوف الكتب وقد نسيت عمن أبحث، ثم فطنتُ إني لا أبحث عن أحد، توجهتُ تلقائيا إلى ركن الجرائد وتناولتُ جريدة الأهرام، ثم تذكرتُ أني اشتريتها فلعنتُ البروزاك.
ذاك هو سُمْعة سيء الصيت والسُمْعة، لمحته لابسا بدلة أنيقة متنافرة مع وجه بدوي صارم، تجنبتُ النظر اليه في عينيه وحاولْتُ أن أبذل جهدي لأبدو طبيعيا، لكن كيف تبدو طبيعيا وأنت محبط؟
شد على يدي فتوجعتُ، شدَّ أكثر كأنه تعمد إيلامي، عرف أني لست على ما يرام، أخاله سألني بالفصحى ليسخر مني:
"ماذا جرى للشاعر الهمامْ؟
"وقعتُ في الفخ"
وأكملتُ قبل أن يسألني عن الكيفية والسبب:
"غمة عابرة، سوء فهم للواقع انتهى باكتئاب"

---

[10] وحياتك لا يوجد سجائر.

أثارته طبيعة المرض أكثر من المرض، ظنني ألعبها معه رجلا خاسرا لأطلب منه تسليفي مبلغا من المال لكنه سرعان ما تأكد إن خسارتي حقيقية، تهدلتْ عضلات وجهه بشكل علامة تعجب شامتة:

" بني آدم لازم يدفع ثمن حماقاته، من لا يحترم أصول البداية يحيق به خطر النهاية البائسة، دروس الحياة بالذخيرة الحية مُشْ بالرصاص الخلبي، لا التزمتْ ببيت الله مع المصلين، ولا عندك رأسمال توظفه في البورصة متل الأوادم الماشين صح، ما درستْ في السوربون مع الناجحين، تستاهل. اللي يرفض المجتمع لازم يدفع ثمن الرفض، المجتمع يستقيم بالعمل مُشْ بالكسل، بالمستقبل مُشْ بغض النظر عن المستقبل، المجتمع خلاصة التعايش والذكاء والفطرة والحكمة، وحضرتك عاوز تلغيه بسطرين من سارتر وسواه".

انذهلتُ من صوابية تحليله، أهو حقا ذكي أم إن بروزاكي يجعلني أبدو غبيا لهذه الدرجة؟ المرة الوحيدة التي اتفقت بها معه شعرتُ انني على خطأ، لكني لم آتي إلى هنا من أجل النقاش البيزنطي، سألته أن يسلفني خمسين فرنكا لأشتري علبتي دخان فأفحمني بقوله إن التدخين حرام.

قلتله:

" انت متل ابن حنبل، كله عندك حرام، السُّكُر والأبراج الفلكية والمواخير"

قللي:

"وأنت متل الصرصور، غنّى في الصيف وجاع بالشتاء".

خرجنا من بوبور تماشينا نحو حديقة الشاتليه، لاحظتُ أن مشيته أخف من مشيتي، وإن خطواته (على قصره) أطول من خطواتي، توقفنا (أوقفني هو) في مقهى مسترال، طلب قهوة بحليب له وقهوة سادة لي (في الأحوال العادية كنت أنا هو من يبادر بالطلب، كنتُ أطلب كأس جعة سادة لي وقهوة بالحليب له، لكنه اتخذ القرار نيابة عني)

مج قطعة السكر بالقهوة ومصها:

" صدقني يخوي يرمضان عرفَت الدنيا قبلك ولم أَرَ غير باب الله بابا"
" أنا لم أعرفها بعد، دَعْني إذِنْ أبلي فيها الثّيابا، دع عنك لومي، دعني بِغِيْ ضلالتي أتعثر"
" أنت ليش حامل السلم بالعرض؟"
" لأني لو حملته بالطول أفقد ماهيتي"
حاججني بأدلة للبرهنة على وجود الله، اعتبرتها دليلا على عدم وجوده، (أنا أقتنع بالبراهين التي أقيمها بنفسي أكثر من اقتناعي بالبراهين التي يقيمها غيري) اندفعَ بحمية تبشيرية محمومة لانتزاعي من الغلط، أخذ يرطن بأحاديثه النبوية الجاهزة وينخاني لمرافقته إلى بيت الله، واعداً إياي بقطعة أرض في السماء تسمى [الجنة] وكيف إنه بوسعي أن أصير مسلما جيداً إذا توقفت عن استهلاك لحم الخنزير والحشيشة، وإذ عاين برودتي نهرني:
" أنت ليش نشاز عن الأغلبية ولا تؤمن بالله؟
"وأنت ليش قطيعي مثل الأغلبية وتؤمن بالله، الله بتاعك لن يحل مُشْكلاتي، ربّك أكبر مُشْكل"
" إخرس يا عدو الله أنت فعلا زنديق من أهل الكفر والعناد، خرّب عقلك العفيف الأخضر، الكفر عندك وجهة نظر. أنت فأر وجودي منحرف، مضيّع وقتك على تحشيش وحلب أيور".
قلت وأنا أعد على أصابع يدي:
" أولا، أنا رجل حر بالغ وعاقل، وما كفرت بفضل العفيف بل بفضل ترهاتك، ثانيا، اليد العربية التي لا تستمني هي رِجْل، والفم العربي الذي لا يحشش هو طيز، ثالثا، الوقت الذي أستمتع بإضاعته مُشْ وقت ضائع، رابعا، أنا أحشّشُ تداويا من إسلامك ودفاعاً عن حقي في التلاشي، أما بالنسبة للانحراف فأنصحك أن تنظر لمجسم الكرة الأرضية، فلولا انحراف قطبيها عن محورها لكانت الحياة فوقها مستحيلة".
غير أنه لم يتركني بحالي، لم يفهم كيف يخرج رمضان من الإسلام في الوقت الذي يدخله غارودي، عبثا حاول ترهيبي بجهنم فجهنم أرحم من إحباطي، عبثا حاول ترغيبي بالجنة، فليس هناك ما يثير الضجر أكثر من الخلود الأبدي، جنة الصلاعمة تجنني،

مملة وشاحبة وفقيرة وتقتصر على ثلاثة أنواع من الفاكهة (خوخ ورمان وأعناب) بينما هنا بباريس لدى أبسط فاكهاني تلاقي 99 صنف فواكه، في أتفه مقهى تصادفك 77 حورية، إن كان ثمة فرنسيون اعتنقوا ديننا فلهوىً إكزوتيكي، بكل الأحوال هذا لا يدل على عظمة الإسلام بل على عظمة الحضارة الغربية التي تترك مطلق الحرية لأفرادها في الاختيار.

غضب أبو الغضب، ورفع صوته ليوحي بأن صحّة الأفكار وعمقها تقاسان بوحدة الدّيسيبال الصوتية، هددني بأنه سيمزق رسائلي ويشطب اسمي عن صندوق بريده، جلب عياطه الفلكلوري انتباه رواد المقهى فشعرت بالإحراج، تركته وانصرفتُ، ما أن تفلتْ من شهود يهوه حتى تعلق مع شهود الزور، إنه لمؤسف أن يستغل هؤلاء الكهّان يأسَنا لبيعنا صكوك غفران، يتعبني جدا هذا الموجيك الوهابي، ينزلني إلى مستواه ولا أرفعه إلى مستواي، يؤبلسني عن لاوعي ليلبس معي لبوس الملائكة، ألّلاه يلعن رب الصدفة التي عرفتني عليه، يحرّم أكثر ممّا يحلل، كلامه إيحاء عشوائي من الالتواءات، أحاول القبض على قصده فأكتشف أني أبحث عن سراب، لا أستوعب تفكيكه للأفكار، الطريقة التي يلتف بها على الأفكار، التي يبقى من خلالها طافيا فوق الأفكار...

شرَّقتُ وغَرَّبتُ حتى وصلت إلى سوق باربيس، استوقفني بصار مغربي بالبرنص وطلب ان أمد له راحة يدي ليبصر لي ويقرا حظي ، لم أتوقف ، سيقول لي ان النحس سيزول عني ان دفعت له خمسين فرنكا ، بدا برج إيفل من بعيد مائلا مثل برج بيزا، لا شك ان رأسي هو المائل بسبب الخرمة ، عرجتُ على مقهي بوسيف الجزائري، طلبتُ شاياً منعنع، تركتُ 3 فرنكات على زنك المشرب وأقحمتُ الفرنكيين الأخيرين في صندوق الموسيقى وكبستُ على وجه ليو فيري فخرجت أغنية Avec le temps, va, tout s'en vas[11]،.. كم من الوقت يلزم! الأيام تمر والوحش يشتدّ فحيحه، نَوْرَزَتْ الطبيعة، اخضرَّتْ القبورُ بأعواد

[11] ترجمتها مع الوقت ينسى الانسان/ الزعبرة = الاجتيال

الآس وأنا شجرة يابسة، جاء رمضان وتلاه العيد ورمضان أبو عيد لا زال على إحباطه، مُرّةٌ وسوداء أيام الوحش، وطأتها ثقيلة كالرصاص، الوحش الذي يصلب أعماق الإنسان كبَّرَني عامين في شهرين، إذا أفقتُ يكون أول من أراه، وإذا نِمتُ يكون آخرَ من أرَاهْ...
رأيتُ على البار لوحة تذكر الزبائن ان عليهم أن يجددوا الطلبية فخرجتُ لأدخل محطة الشمال، عملتُ جولة ميدانية في صالة الخطى الضائعة وأحجمتُ عن دخول صالة الانتظار الدافئة على رؤية العسس بكلابهم المدربة، أكملتُ تطوافي، أبحرتُ في المدينة حتى شابت أشرعتي، تسكعت حتى تعبتْ الشوارع من خطواتي، أضعت (كسبتُ) ساعات كثيفة في التسكع وتضييع الوقت الضائع، مشيتُ كالكلاب الضالة، مثل سيزيف حكمت عليه الأقدار في تراجيدية إغريقية، الشمس مزولة الوقت بدأت تنحدر نحو الزوال، هبطتُ إلى مترو الانفاق، تسللتُ بالزعبرة من تحت الحاجز الحديدي، فوجئتُ بازدحام خانق، في الأحوال العادية كنت أستغل هذه الزحمة وأتدفأ بأرداف الصبايا، أما الآن فالآلة لم تعد تشتغل، احتليتُ مقعدا شغر بنزول أحد الركاب وفتحتُ الجريدة فتعبطتْ السيدة الراكبة أمامي بحقيبة يدها، أهملتُ القراءة وطفقتُ أختلس النظر من خلال الزجاج العاكس على صبية ملحوقة تتمكيج وفي يدها مرآة صغيرة، حاولتُ أن أتخيل مهنة كل راكب من خلال تقاطيع وجهه، كلهم ميدوزات مصنمة، كل واحد غارق بعالمه، ينظر في الفراغ او في الكلمات المتقاطعة، في الووكمان، الراكب جنبي كان زنجيا يقرأ الكتاب المقدس ويعلم الآيات المهمة، كان يختلف عن البقية بفيض إيمانه وزنوجته، كان قد علّم ثلاث أرباع الإنجيل بقلم أصفر ثخين، لو كان بوسعي ان أضحك لضحكت، لو كان بوسعي أن أتكلم لقلت له " فريرو. لماذا لا تعلِّم الآيات غير المهمة هذا أهون بكثير"، نزل الزنجي ونزل كل الركاب في المحطة الأخيرة ولم أنزل لأني لست قاصدا مكانا بعينه، لبث القطار وهلة ثم انطلق بالاتجاه المعاكس، بدأ الركاب يصعدون من جديد، صعد كمنجاتي غجري وشرع يعزف على الكمان فشعرت بتراخي رموشي، ألقيتُ الجريدة على وجهي، كان القطار قد ذرع

المسافة بين محطتي الترمينوس مرتين او ثلاثة وأنا مستغرق في أحلامي، أحسست بيد تهزني رأيت شخصين بثياب ميرية خضراء، كانا محصلي التذاكر ، سألاني عن تذكرة الركوب فطأطأت رأسي، ضبطاني مخالفة، نزلت في مونبارناس، هي باريس باي نايت، كانت الساعة تشير للثامنة وخمس دقائق (هذا يعني أنها الثامنة إلا خمس دقائق) مشيتُ باتجاه بور رويال وصلت بطلوع الروح إلى وكري، رأيتُ المُشَردين متجمعين في قاعة الطعام، توجهتُ رأسا للمهجع رميت معطفي فوق الكرسيّ (عملا بنصيحة بريخت للمنفيين) بلعتُ الحبة المنوِّمة وأشعلتُ سيجارة، أسبلتُ رموشي ودخلت في رحلتي الليلية

هل يستوي الذين يكتئبون والذين لا يكتئبون

ثمة في نهاية الليلة
نافذة مُشْرعة
حلمٌ كامن
رغبةٌ للتحقق
جوعٌ برسم الشبع
قلبٌ للحب
يدٌ ممدودة
عيونٌ متيقظة
حياة تنتظر شريكين[12]

يسقط الإنسان فيدرك النواميس الكونية ، بني آدم لا يتربى الا من كيسه ، الحياة موجعة وأوجع ما فيها انه لا بد منها cést la vie[13] يقول الفرنسيس ونقول نحن " هكذا ربّك شاء "، صنعتني الصدف وبوسعي أن أصنع قدرا من هذه الصدف، والحق فإني مخيَّرٌ في تسييري (وهذه ليست أبسط تناقضاتي) تلك الحرية الداخلية العميقة التي ينميها المرضى للالتفاف على مرضهم، علاج الحياة هو الإحباط، ولا علاج للإحباط، لم تنفع المهدئات إلا في شَلْ ما تبقى من أعصابي، لكن العجز (الذي يجب ألا نتعامل معه كشيء نهائي) لا يبرِّر التخاذل ، فنحن لا نحيا حقا إلا حين نشرع باستيعاب ما يسحقنا ، وأريدكم فقط ان تعلموا إن فيّ بحرا أغواره صامدة، يوم مولدي سحبت القابلة رأسي بعنف سبَّبَ لي رضة دماغية، طبيب وكالة الأونرا رأى إن حظي بالبقاء حيا هو بالمية عشرة، مات الطبيب وبقيت حياً أرزقُ، ماتت الداية، مات الموت، ولا زلت موجودا، عندي أمل ضئيل بس عندي أمل، العشرة أحيانا تنتصر على التسعين، لنتعلّقَ بهذا الوهم بطريقة غير رسمية، هي مسألة احتمالات حسابية، تلك المرارة التي تثير

---

[12] من قصائد إيلوار

[13] ترجمتها هكذا هي الحياة / بس = عامية وتعني ولكن

الشوق، "لم أفشل " قال أديسون، "بل وجدتُ ألف طريقة لا يمكن للمصباح ان يعمل بها" الدنيا ستتكرم علي بفرصة ثانية، ما زلت متمسكا بالحياة على قلّتها، سأكون قويا بقوتك أيها الوحش، ولكنّي سأصرعُك حتّى الموت، سأجعل من الهاوية الملعونة متراسي، أرفع يدي للسماء وأقول "امنحيني القدرة على تحمُّلْ ما لا طاقة لي على تغييره، وامنحيني الشجاعة لتغيير ما يمكن تغييره، وامنحيني البصيرة للتفريق بينهما". تعلمتُ هذه الحكمة الهندوسية على ضفاف الإحباط لا على ضفاف الغانج، بدل نكبة واحدة صرنا بنكبتين، لَكَمْ أشبهُ بلاديَ الشقية. فلسطين أجمل الديار طراً في عيوني لا لشيء الا لأنها مغتَصَبة، عندما يفقد المرء شيئا يرفعه إلى مستوى فردوس مفقود، ذلك هو الفقدان الذي لا يستطيع الفلسطيني أن يفقده، المازوخية أو كيف تستطعم الهزيمة وتجعلها بطعم انتصار، الفلسطيني يحب أن يكبر بسرعة فيكون أباً لطفل لم يولد بعد، سموني رمضان لأني ولدت في شهر الصوم، ثم لقبوني [أبو عيد] لأن اسمي رمضان، لندرة الأمل علموني أن اليأس أكبر خطيئة، لكثرة الدمار دربوني على محو آثار الدمار بسرعة، أجل، ثمة مغزى للنكبة، للشتات، للاقتلاع. الحرية هي العلة الغائية للإحباط، وعلينا ان نقشع في مصيبة الوجود مبررا للأمل "لم نصل ذروة الحرية إلا تحت نير الاحتلال النازي"، كان سارتر يقول، ألمانيا كذلك لم تنبغ في فلسفة التفاؤل الا حين سقطت تحت نير نابليون، جَدَل النور وَالظُّلمة، سأكون التوليفة بين الألم والأمل، والزمن كفيل، ولكن كم من الزمن؟ الزمن مفتوح ولكن على أي غد؟ في آخر عدد من جريدة الأهرام نصحتني النجوم أن أترك الأمور على عواهنها.هراء! هذه الجريدة الصفراء! قناعتي لا تتزحزح بأن الإحباط سيتزحزح، فنسبة كآبتي لِحياتي هي كَنِسْبَة الشّتاء لِبَقِيّة الفصول، وأحياناً تتفتق حياة من عدم مثل زهرة نبتت من جدار اسمنت متصدع، ونحن نسمي هذا [القوة العمياء للحياة]، الأمل المُنبِت في قلوب الشعراء آلافَ القصائد، منذ تسكرتْ بوجهي وأنا (على سبيل التعزية) أجتر الكلام الفلسطيني المعتاد عن فوائد النكبة [السجن للرجل والقيد للبطل] و[السوط الذي لا يكسر ظهرك يقويه] و[العاصفة تجدِّد شباب الأزهار]،

وهلم جرا، الإحباط تشاؤمية إيجابية محرضة على الانطلاق، لعله أعظم شهادة يحصل عليها إنسان غر، الإحباط جدل الروحْ والجسد، جدل الذات والعالم، وآية الخروج من عصر الآلهة والقَرائين نحو عصر الإنسان والهشاشة، هو معمودية الوجود أو الثمرة المرّة للتميز والاختلاف، وهو علامة الفرد الفارقة مع قطيع مطمئن، عبد السميع يقول " في العالم مليار مسلم قَلّ أو انعدم بينهم المحبطون " هذا صحيح، الشعب المؤمن ليس محبَطا بل مُحبِطاً، لا يحبط من بقي فيه بل يحبط من خرج عنه، على إني أقبلُ إحباطي كما أقبل فلسطينيتي ولن ألتفت خلفي كي لا أجمد في تمثال ملح، ثمة في قلب اليائس كنز مطمور، خلايا الأمل النائمة، مدينة دريسدن أحرقتها طائرات الحلفاء ونهضت من ركامها، هيروشيما أبادتها القنبلة الذرية وقامت من جثمتها، العنقاء من رمادها انبعث، ألعازر من ميتته قام، الأمثلة وافرة، ورغم كارثية اللحظة فإنني ممسك بخيوط اللعبة، ولاسيما أني ما زلت (بانضباط بروسي) أزور مستشفى مارموتون، وأبلع أدوية الدمار الشامل، وأتظاهر بالبحث عن عمل، أحلق ذقني كل صباح، وأنزع الشعيرات الزائدة من أنفي، وأمرر مزيل الروائح تحت إبطي ، وفي المساء أوضب سروالي المعفشك تحت فرشة الإسفنج ليخرج في الصباح مكويا، شكلية الوجود هي إشكاليّته، هي معناه، أحتاج لدرس في التخريب والترتيب، العدم العظيم لاحق وملاحق للوجود[14]، ليس نهاية وإنما بداية مغامرة جديدة، العدم هو المعنى الوحيد حين يمسي الوجود عديم معنى، الخلل ليس في المعنى ولكن هو في طبيعة السؤال حول المعنى، أيوه، هناك كوي عالبخار وكوي عالناشف وهناك كوي عالطبيعة، الشاعر مهما مات يبقى مُغنّي الحياة، عندي مشاكل بس أنا مُشْ مشكلة، أنا مأزوم مُشْ مهزوم، انهزمتُ لكني مُشْ هزيمة، خسرتُ جولة ولم أخسر المعركة، ارتكبتُ جريمة السقوط ولا أعتبر نفسي مجرما، من كُتِبَ عليه أن يكون محبطاً وفلسطينيا فعليه أن يكون صامدا بالمعنى الفلسطيني للكلمة، الفدائي في سجون المحتل تتحصّن

[14] العدم العظيم لاحق وملاحق للوجود اقتباس من سارتر

ساحته الداخلية بقدر ما يطول أسره، أخي رجب خرج بِعودٍ أصلب من سجن الشقيقة سوريا، أوشفيتز بالنسبة لبول تسيلان هو غاية شعره وشرط رؤيته الواضحة، الألم الحقيقي ليسَ حاضراً في النفس، ليس موجوداً في الهواء، ولا في حياتنا، الألم الحقيقي هو الذي يُبقي الأشياءَ يقظةً [15]، سأحيا إحباطي، سأحياه بكل إحباطي، سأورثه للأجيال القادمة وأؤرخه بكربون 14، سأسعى بقدر المستطاع لأخلق من الوحش مبدأ جمالياً أتوائم معه، الحياة فضلاً عن كونها مراوغة هي مجابهة، السقوط نتيجة ملازمة لحركية الحياة، المستحيل مُشْ رمضان، وليس هناك شيء بعيد إلا بقدر عجزنا عن الوصول إليه، لن أرفع الأعلام البيضاء، سقطتُ حتى قاع القاع فلم يعد تحتي تحت، لم أعد أخشى سقوطا آخر وهذا جيد، من يبلغ قمة الهرم الرئاسي يعلم إن لمنصبه عيب واحد وهو انه لا ترقية بعده، الوحش سلبني كل شيء فلا يمكن أن يسلبني المزيد، ماذا أفعل بدون هذا الشقاء الباذخ؟ حين ترحلُ الريحُ من سيهز الغصون؟ [16] الإنسان يحتاج لعدو يعظِّمَه ليعظم به، الصراع دين الحضارة وضامن ديمومتها، هناك دائما صراع بين شعبين، بين طبقتين، بين دينين، فلم لا يكون الصراع في الشخص ذاته (بين الشخص وذاته) عصر الأبطال انتهى وبدأ عصر الرجل المنكسر الذي تسميه هوليوود [لوزَرْ] ويسميه الطب النفسي [بسيكوباتيك]. الإحباط فسحة وجودية تسمح للكائن بالتأمل في ذاته المحجوبة، نعمة ونقمة، عطية ومَعَرَّة، وصمة وشهادة فخرية، لكنه بكل الأحوال عبقرية المحبط، مجاز جديد لكائن جديد، واللعنة أحياناً تبدو جميلة، كل الفارق يكمن في عمق الجرح، الإنسان لا يعيش الحياة إلا إذا خبر مآسيها، المحنة منحةُ النفوس الكبيرة، الوعي هو دائما الوعي بما كنا نجهله، إن كنت أعتبر نيتشه معلمي فلأنه يعلمني أن كل حياة عظيمة هي حياة مجرمة، من وضع نفسه في قلب العاصفة لازم يتحمل لسعاتها، ما حدث لي هو ما يَجِب أن يحدث لذا أتقبله بجيرية الشرقي، أنا مجموع الفشل والحماقات التي

---

[15] الألمَ الحقيقيَ ...هو الذي يُبقي الأشياءَ يقظةً . من لوركا

[16] حين ترحلُ الريحُ من سيهز الغصون؟ من أخماتوفا

اقترفتها، سقطتُ مع سبق الإصرار لأكون جديرا بالخلاص وحتى لا أخيب البطل فيَّ، أحتاج لمصيبة وأخرى حتى أتماسك، أحتاج لمطبّات ومزالِق حتى أتذوق طعم الفرح البسيط، أن تسقط فهذه أفضل وقفة يمكن تصورها، بعد ذلك بوسعك أن تسقط أكثر، أنا المحبط المفتون بإحباطه، وقد خطر لي مرارا إن رجل مونخ الصارخ عند الجسر ليس لوحة ناتور مورت بل هو الوجه الآخر للقديسة تيريزا التي قداستها هي عين إحباطها، ثمة علاقة ديالكتيكية بين الشعر والشعور، وبين الحرية والعمق، الأسماك الحية وحدها تعرف العمق فيما الأسماك الميتة تطفو على السطح، كنت أبحث عن وحش يشبهني، عن قلق يناسب طمأنينتي الزائفة، عن هاوية تستوعب عليائي الشاهق، كنت أعرف أنني سأنتهي نادماً على ما فعلت، كان يمكنني أن أظل مثل سمعان متفرجاً في الانكفاء السلبي، لكنني آثرت أن أمارس السقوط، تحليقاً في الهاوية، سقوطاً في الأعالي، كسقطة إيكاروس الذي اقترب كثيراً من الشمس، يعلم الله كم غلطة ارتكبت لأتدرَّبْ على الكارثة قبل وقوعها، قدّمتُ كل البراهين على أن الرجل الفاعل قابلٌ لقانون التحول، من يريد أن يكون عليه أن يخرج من كينونته، سُمْعة دائما ينظر لي من أضيق الزوايا، يقول إني سقطتُ لأني شخص ساقط، وأظنني سقطتُ لأني أكلت من شجرة معرفة الخير والشر، من يفكر بطريقة مختلفة عنده مَيْل أكبر للزلة ممن يفكر بطريقة شائعة، الإحباط نداء من الخارج واستجابة من الداخل، والنداء مرهون بالاستجابة، إن نفس الأسباب (المحبِطة) لا تؤدي دائما إلى نفس النتائج (المحبَطين) فدرجة الحصانة عندي وعند عبد السميع تتباينان، أبسط الأسباب التي يمكنها أن تحطمني قد لا تزحزح شعرة في رأسه، الإحباط إذن مرض ذاتي لا موضوعي، هو عين المحبط بتعقداته وهشاشاته، هو تحولات النفس الكبرى وضوضائها، أنا كائن مطبوخ ومميَّز بإحباطي،أنا العربي الوحيد بين العربان وأجدرهم بالسقوط، لا يسقط سمعان، يتفوق علي بإسلامه وأتفوق عليه باكتئابي، السقوط يفترض السمو، والرجل الساقط لا يسقط، الحرية في عين عسعس خطر لذا يتحصن منها بالمسجد، الإسلام ينبذ الخطر ومن هنا خطورته، الإسلام يصنع

جبناء قانعين ببغاوات مرددين، أنا مثل السندباد بانحيازه الرفيع للخطر ركب الصعب ومضى إلى ما وراءَ التخوم، العيش في خطر يعني أن تعيش أسرع، أقوى، أعلى، أبعد، أخصب أنقى، حب الخطر هو الذي جعل الغربيين يصعدون إلى أعلى قمة في البر وينزلون إلى أخفض نقطة في البحر، يطيرون إلى القمر، بينما المسلمون يمشون على أربع. لم أسقط لأني أضعف من الصلاعمة بل لأني شئت تجاوز الصلعمة، هناك أشباه كعبد السميع عصمهم الإسلام عن التجربة بالحدود والمحرمات، وهناك بشر عصموا أنفسهم من القطعنة بالتجربة واختراق الحدود، وعلى أي حال لا يمكن المقارنة بين متسابقيْن أحدهما تقدم للامتحان ورسب وثانيهما لم يتقدم أصلا، الإحباط يستحيل فهمه إسلاميا، ليس مرضا عربيا لكنه مرض مجلوب من أوروبا، جاء به مستر استعمار مع كتبه الملحدة وحريته الجرثومية، وهو يصيب مواليد برج الأسد أكثر من مواليد بئر السبع (بلدة عبد السميع) الاكتئاب إن لم يكن مرض الريادة فهو حجّة طبقية وعنصرية من فصيلة الأمراض النخبوية النرجسية كانعدام الشهية وعسر الهضم والميغالومانيا والنقرس، هو الفوضى الداخلية التي تميّز الإنسان الفعّال المغامر، حالة تشبه تجربة الغياب الصوفية (الوجود حضور وغياب معا) تخترق معظم تجارب الوجوديين الفنانين وأصحاب المزاج العالي، كل الشعراء الملعونين عبروا هذه المفازة، دستويفسكي، آرتو، بيتهوفن، بيسووا، هولدرلين، دورر، غوته، كيركغارد، كافكا، بايرون موزارت، السياب، خليل حاوي، همنغواي فان غوخ، ميشيما، كاواباتا، ومحسوبكم، محبطكم، رمضانكم، أبو عيدكم، إحباطي تتويجي الخاصّ، انتمائي إلى نخبة الأنبياء الساقطين الذين دفعوا فاتورة الحياة الباهظة، مقامٌ من أوعر مقامات الوجود، يكشف الوجود عبر تقويضه، وهو ليس شرا بحد ذاته بقدر ما هو طور في التطور، من شكل بدائي (هومو أرابيكو) إلى شكل أرقى من أشكال الحياة، تستحضرني في هذا المجال المسيرة الطويلة التي سارها ماو والشيوعيون الصينيون، خرجوا مئة ألف ووصلوا ثلاثين ألفاً، لم يكن لهذه النزهة الماراتونية أي هدف استراتيجي سوى غربلة الرفاق الحمر للإبقاء

على أجدرهم بالبقاء، إنه لرائع أن نتكرم على الوحش بحياتنا، لعله بذات الوقت يتكرم علينا بخلاصنا، أصعبُ الطرقِ لا بدّ أن نمشيها وحدَنا شأننا شأن كل من يفعلون أشياء عظيمة، لا يكفي أن نحتمل أحكام الضرورة بل يجب أن نحبها، ولكن ما أسهل القول.

البروفسور جان بيير شيكل من أنصار التحليل النفسي للتحليل النفسي، من مدرسة الأنتي بسكياتري المضادة ، يفكّر خارج فرويد، طريقته للعلاج تهدف إلى إحداث صدمة لدى المأزوم، وذلك بتخييب توقعاته ووضعه وجها لوجه أمام حل يخالف أفق انتظاره ويحيله مباشرة إلى مرضه ذاته، يملك ترسانة من المصطلحات السيكولوجية، يتسلح بالمنهجية والشفافية، يوَعِّي اللاواعي، يربط السّبب بالنّتيجة، الجواني بالبرّاني، والمقدمة بالخلفية، العلة بالمعلول، إضافة لمواهبه التي أقلها إعادة الأمل لليائسين فإنه عضو فعال في رابطة مُشَجعي PSG[17] وله مكان محجوز في مقصورة الفيب في رولان غاروس، يملك كل رموز النجاح، بيتا في المدينة وآخر في الريف، يملك بطاقة زيارة ، ويملك بطاقة أميركان إكسبريس، يرتدي أجود الماركات، وكلما تقدم به العمر فإنه يجعل مفرق شعره ينحدر لأسفل ليغطي صلعته، عيناه لزجتان تتطابقان مع قتامة وجهه، أما دماثته فما هي سوى طريقة مصطنعة لافتعال الأدب مع المرضى ، كلّ ما فيه يشي بالتّحليل النّفسيّ، هدوءه الخبيث، سكسوكته التروتسكية ونظارته المدورة، غليونه ، حسن إنصاته وبرودة أعصابه وسحنته الداكنة ،

خمنتُ وأنا أنظر إلى أنفه الأبعد ما يكون عن الإغريقية انه من جماعة الأقدام السوداء، استبعدتُ فكرة أن يكون أرمينيا فاسمه لا ينتهي ب [يان]، عسعس كان أفطن مني فقال:

" أحلق شنبي اذا ما كان من الجماعة إياهم، الكاشير "

وهذه هي إحدى المرات القلائل التي لا يغلط فيها عبد السميع، فشيكل فعلا كاشير من عالم الدكاترة النفسانيين المكوَّن في أغلبيته من أولاد شلومو وكوهين، أرجو ألّا يخطرن ببالكم أني اخترعت شخصية يهودية اختراعا، لألعب دور الضحية مع الجلاد، او لأن

[17] هي اختصار أحرف باري سان جرمان فريق الكرة. رولان غاروس = ملعب التنس بباريس.

الموضة الروائية عاوزة كده، لا وحياتكم. أنا مُشْ بتاع موضة ولا بتاع نظرة مانوية وأكره العواطفجية والنوازع البؤسجية ولم أخترع أحدا، كل ما بالأمر أن موظفة الاستقبال في جمعية SOS دبرسيون نصحتني باستشارته، هي الصدفة واحتمالاتها، ففرنسا فيها 700 ألف يهودي، ما يساوي 1 %من السكان، معظمهم يقطن باريس، ومعظم الباريسيين منهم يقطنون حي لوماريه وبلفيل والدائرة 16 ونويي، اليهود كجماعة ذوي مواهب محددة موجودون بكثرة في المدن الحدودية (ستراسبورغ وترييستي والبندقية وأنتيويرب) يعرضون خدماتهم كصيارفة ومترجمين، احتمال أن تلقى يهوديا يزرع الأرض في كل فرنسا ونبارّة هو صفر باليد صفارة، احتمال أن تلقاه يعمل في ورشة هو واحد على عشر آلاف، واحتمال أن تلقاه جنديا بالجيش الفرنسي هو واحد على مليون، بالمقابل فإن حظك أن تلقاه في مصرف هو 30 %، وحظك أن تلقاه في البورصة هو % 40، حظك أن تلقاه في السلك الطبي هو 50 %، مع اليهود أنت وحظك يبو الحظوظ، أفيال الاقتصاد هؤلاء يكثرون حيث يوجد العجل الذهبي والأموال السهلة، يسلِّعون كل شئ وينقضّون على الفرص الثمينة، موهبتهم التجارية تطال كل السلع، النبيذ والأخشاب وحتى لحم الخنزير الذي لا يأكلونه، يشترونه من غوي ويبيعونه لغوي آخر ويكسبون من الغويَيْن، التجارة عندهم هي الحقيقة الشمولية، حين يربحون يربحون وحدهم وحين يَخْسَرون يُخَسِّرون الكل، عجبي من أولاد الشراميط هؤلاء. مصابون بمرض الريادة وسبّاقون بكل شيء، قدرتهم على البقاء معجزة ذلك أنهم تجاه التساؤل عن الوجود والعدم انحازوا للوجود بجعل الطبيعة زائفة، اخترعوا ألّلاه ومعه كل الأيقونات اللازمة، موشيه كليم ألّلاه، وأبراهام خليل ألّلاه، جوب الصابر ذبيح ألّلاه، ومنهم مؤسس التحليل النفسي المرحوم سيغموند فرويد رضي الله عنه، ومنهم مخترع فكرة البنوك روتشيلد قبح الله وجهه، ومنهم مخترع المادية التاريخية الرفيق ماركس كرم الله وجهه، وبقية الصحابة تروتسكي وبيتلهايم ودوركهايم وسبينوزا وبيرغسون ، كانوا أسياد التاريخ وهم بصدد ان يصبحوا أسياد العالم ، تلقاهم في المراكز الحساسة بمختلف

أسباطهم ، صيادلة وسماسرة ونفسانيين ومرابين وممولين، رؤساء تحرير صحف، مدراء للوعي يصوغون الرأي العام في المحافل الفكرية (الرأي العام هو الذي يحكم الغرب وهم يحكمون الرأي العام) تراهم مايستروهات بكل الأوركسترات، مستشارين بكل الحكومات، مضاربين في كل البورصات، خبراء في كل المختبرات، وقوميسيرات لبيع التحف في صالات درو، في هوليوود بصماتهم على كل الأفلام.

تركتُ عبدَ السميع في قاعة الانتظار ودخلتُ العيادة فوجدت فيها كرسيا للمحلِّل وديوانا للمحلَّل وعلبة محارم (المحلَّل عادة ما يبكي)، كما يحدث عادة في المعاينة الأولى فقد حرص كل منا أن يفحص الآخر دون ان تلتقي نظراتنا، تكلم البروفسور شيكل بلسانه وحركاته وإيماءته، وانعطافات أصابعه، شبه جمل متقطعة متوترة محفوظة غيبا لا تخرج عن نطاق العموميات الخشبية:

" بونجور مسيو، هذه غرفة متقشفة هادئة وآمنة، وهذا مكان مريح لتجلسون عليه، اجلسوا هنا لطفا، من الأفضل لو تمددتم على أريكة الشيزلونغ، على نفس كرسي الاعتراف هذا يتمدد كثير من الزبائن ال VIP وزيران سابقان ونائبان حاليان وبضع ممثلين سينمائيين، وأنتم نفسكم، القاعدة الأساسية في التّحليل النّفسيّ هي الصّراحة التّامّة، كيف كانت مراهقتكم؟

" مفيش مراهقة" قلتله " عبرتُ بقفزة واحدة من الطفولة للرجولة"

" ماذا ترون في منامكم ، مسيو رمدام؟ "

" كل ما هو مؤلم وصادم وما يربك القلب، هرطقات خيانات ليلية، ودائما تلاحقني تلك القصص المخزية "

" أي قصص؟"

" تلك القصص المخزية التي أراها في منامي، في داخلي شيطان نائم وحين أنام يستيقظ، وبالأمس رأيت بالمنام أني أمارس الغرام مع تمثال جان دارك البرونزي دون ان أنتصب ، مهما كانت كواليس ليلي مريرة فهي أرحم من كوابيس نهاري، حين أتذكر أرى وحين أرى أحلم، وحين أحلم أرجع طفلا، لذا تراني في طفولة دائمة، بالحلم والذاكرة ألتفُّ على النسيان، أحلم ليلاً وأتذكر نهاراً، أحلم مفتوح العينين، ذاكرتي مبرحة تحفظ هفوات ماضيي

وتسمم مستقبلي، تأتي على غير ميعاد وتشهر شوكها كالقنافذ، الله في حكمته اللامتناهية وهبني أعتى أحلام وأتعس ذاكرة "
" هل تؤمنون بالله مسيو رمدام؟ "
" لا ولكني اؤمن بحكمته اللامتناهية"
" أأنت مسلم؟ "
" بالوراثة"
قطب شيكل وجهه، مر فجأة من صيغة الاحترام الجمع إلى صيغة المخاطَب المفرد :
" لا عليك الإسلام ca se soigne[18]، أنت لست مختلفا بل متخلفا وتعاني من عدم انسجام مع المجتمع الغربي، أنت طبيعي تماما، تعاني من لا شيء، من إسلامك voila tout "
" كُوا. ماذا تقولون بروفسور؟ إذن لماذا جئت إليكم؟ أنا محبط حتى الثمالة، محتضر ممزق ثلاثين جثة، أنا كلي إحباط، الربيع حولي يسخر من شتائي، الدبابير تلسعني، جسدي المعطل يعلمني ما هو الخراب، وكما ترون فأنا بليد متكلس، البرد القارس يزيد حالتي سوءاً، أنا موجوع ولا أدري أين مكمن الوجع، عبد السميع لا يفهمني يزعم اني ممسوس بجن، لا أحد يفهمني، أتفهمونني بروفسور؟ التحليل النفسي أعجز من أن يحلل نفسي، جمعيات دبرسيف أنونيم، sos دبرسيون، حاولتُ كثيرا وكل محاولة نوع مختلف من الفشل، رغم ذلك فإنني لم أفقد الأمل لذلك قصدتكم، بروفسور "
" حسنا، هل جربت البروزاك واللوكسوميل؟ "
" نعم، ولم ينفعاني "
" بماذا تشعر الآن؟"
" بالخزي، بالموت، بالاحتراق والتبعثر، بالخوف أيضاً "
" أي شيء يخيفك؟"
" كل شيء، الناس، الأشجار، الجدران، العمارات العالية، الجيران ركاب المترو، وعبد السميع "

---

[18] ترجمتها الإسلام مرض يمكن معالجته / voila tout= هذا كل شيء

" تقصد الشخص الذي ينتظرك في قاعة الانتظار، ماذا يخيفك فيه؟"
" عناده، الرجال ذو العقائد الناجزة يخيفونني، يسحقون من لا يشبههم، يندفعون دائما إلى أبعد من مراميهم، يكره الفرديّة ويحاول تحطيم أي شيء يختلف عنه، عموما فهو يحقق سعادته في تنصيب نفسه قاضيا عليَّ "
تجهم شيكل مثل حارس السجن، جقّرني بنظرة لئيمة، دقدق فيَّ النظر بحدس السحرة السفليين، اتخذت ملامحه هيئة غورو، ركز عيناه علي كما تركز كاميرا تصوير سينمائية عدستها على منظر:
" هل أنا أخيفك؟"
" نعم تخيفني"
"ما هي جنسيتك؟"
" فلسطيني "
رمقني بنظرات مرتبكة ومُربكة، نظر في انعكاس مشروط إلى الطبنجة المعلقة بالحائط، ثم أخفى دهشته وعدوانيته وتعامل معي (مع فلسطينيتي) بعادية شديدة في المظهر (عادةً حين يستقبل شيكل مريضا فرنسيا فإطار العلاقة العام هو طبيب ومريض، أما حين يكون المريض فلسطينيا فهنا تغلب هوية شيكل على مهنته، يتحول من طبيب يهودي إلى يهودي طبيب، وبنفس الخيمياء يحوِّل مُلْتَمِسَهُ من مريض فلسطيني إلى فلسطيني مريض) عاد يسألني أسئلة غريبة غير ذات علاقة بالإحباط (علما ان كل الأسئلة حتى الأغرب لها علاقة بالإحباط) من أي شتات؟ إلى أين مخيم تشتتم؟ إلى أي منظمة فلسطينية كنت تنتمي؟ ما الفرق بين جورج هبش ونايف هواتمة؟ هل قتلتُ يهودا أثناء عسكريتك؟... أسئلة كثيرة أجبتُ عنها بطرف لساني، ب "لا" حينا أو ب "نعم" حينا آخر، أو ب "لعم" في أكثر الأحيان.
تأمل شيكل حركاتي البطيئة فعرف اني مخلّع الأوصال، لاحظ ان بقايا الكلام بفمي تأخذ شكل لعاب سائل على شفتي فأدرك أني مهزوز ومشوَّشْ، نفش صدره متألقاً بعظمته وغليونه ويهوديته، ضبعني بنظراته الضابعة، ألجمني بهيئته الصارمة، ارتبكتُ ومسحتُ العرق عن جبيني المتندي وخسرتُ اللقاء من الجولة

الأولى، استأذنته أن يسمح لي بإشعال سيجارة فرفض وأشعل هو نفسه سيجار هافانا من النوع الغليظ ونفث دخانه في وجهي، بلعتُ الإهانة وأنا أتخيل هذا التصرف جزءا من منظومته العلاجية الصادمة التي تضع المأزوم أمام أزمته، ثم سرعان ما تيقنتُ انها إساءة مقصودة ونابعة من غل صهيوني غليل، هكذا ومن أول فرصة أخذ ساحتي واستمد ثقته من ارتباكي، وما ذلك بمستهجن من ابن اليهودية، فأي أرنب لو رأى هواني لاستأسد علي، لم أقل شيئا بلساني هو الذي قال بنبرة كيدية :

" أنتم العرب دائما مدللون، عندكم البترودولار ببلادكم ،وحين تأتون لباريس عندكم سكن مجاني ومساعدات RMI، فرنسا بقرة حلوب تحلبونها حتى جفاف الضرع.

فكرت أن أرد عليه بقولي...كما ترى أنا مبسوط لدرجة فقدان شبابي، إذا كان ثمة من يحلب هذه البقرة الحلوب أكثر من العرب فهم أنتم اليهود، تحلبونها حتى الدم، واذا كنا نحن نعتاش على البترودولار فأنتم على الشووا[19] دولار...

لكن الكلمات لم تسعفني، بقيتُ غارقا في صمتي، واستمعتُ إليه وهو يتكلم بنبرة تفوق:

" un air de jamais vu[20] ابْيَضّ شعري في الكار ولم أرَ عربيا محبطا، العرب قوم خام فطريون، ما تسميه إحباطك هو الشكل المباشر لصدمتك، وأستطيع الجزم أنك لستَ محبطا بل مصدوما ومصابا بارتداد هوياتي ".

لو قال لي هذا الكلام حين كنت أمتلك كل معنوياتي لكنتُ واجهتُ وقاحته بوقاحة أكبر، أما الآن فليس بوسعي إلا التمني أن يكون مصيبا في تشخيصه فأكون مصدوما لا محبطا.

طأطأت رأسي كتلميذ لم يحفظ درسه فأدرك مدى سيطرته علي، مد رجليه على الطاولة (بوجهي) وعالجني بقوله:

---

[19] الشووا كلمة عبرية وتعني الهولوكست المحرقة النازية

[20] ترجمتها مُشْهد بكر غير مسبوق / RMI = مساعدات شهرية تعطيها الدولة للعاطلين عن العمل

" للحرية نتائج صادمة ، بدل حرق المراحل قفزا من مخيمك إلى الشنزيليزيه كان يجدر بك أن تمر بقبرص او مالطة لامتصاص الصدمة على مراحل، العربي حين يجمع الشرق بالغرب فغالبا ما يكون الحاصل تجميعا لمساوئ الاثنين، أنك سوفاج متوحش لم تستوعب المعطى الحضاري، خرجتَ من الشرق ولم يخرج منك الشرق "

رآني مُشْتدا في احتقار حالي، فضرب بيديه الاثنتين على الطاولة وانتفض بوجهي:

" Léve[21]_ toi "

ففهمت الأمر على حرفيته ونهضت عن الشيزلونغ ووقفتُ أمامه في وضعية تعظيم سلام قبل أن أتبين ان كلامه مجازي ويأتي ضمن سياق التشجيع:

"Léve_ toi، شد حيلك، أخرُجْ من سلبيتك، حقّق نفسك بنفسك، كن أنت نفسك، حرر نفسك بتجاوز نفسك، ميّز نفسَك، ثق بنفسك"

بميكانيكية مد يده اليمنى إلى جارور الطاولة الأيمن وأخرج كتيبا من تأليفه عنوانه [20 طريقة لتكون أنت نفسك] ورماه بوجهي، وبنفس الحركة مد يده اليسرى إلى جارور اليسار وأخرج قارورة زرقاء تحتوي على حبيبات بيضاء بحجم حبات الخردق، برشامة إكس 3 مصنوعة من حليب المهرة، وطمأنني ان كل شئ سيكون على ما يرام إذا قرأت الكتاب وبلعت البرشامة وتابعت بقية الجلسات، ثم نظر لساعة كارتييه بمعصمه بطريقة توحي ان مشاغله لا تسمح له بتضييع وقته مع فلسطيني غلبان، كبس فقاسة القلم وجمع على ورقة 199 فرنكا رسوم المعاينة زائد 99 فرنكا ثمنا للبرشامات زائد 99 ثمنا للكتاب. المجموع 397 (بدل الأرقام المدورة يستعمل شيكل الأرقام السيكولوجية التي تنتهي بتسعة) ثم رمى الورقة بوجهي، سجل لي موعدا آخر في الأجندة، أمرني بلهجة قراقوشية أن أحضر للجلسة التالية في الأسبوع القادم في الوقت عينه (لم يشاورني في الموعد) خرجتُ مدحورا ولم يكن بالإمكان أبدع مما كان.

---

[21] Léve_ toi ، معناها الحرفي (انهض) والمجازي (استيقظ)

تصفحتُ كتيِّب شيكل فوجدته يتسع لكل شيء الا للحقيقة، أكاذيب نوعية مزوقة بإيزوتيريك وقبّالا مع شوية فرويديات وطب بديل، واجترارا للكلام البارابسكولوجي المعتاد عن طاقة الشفاء الذاتي، ترهات مستهلكة من طراز [كيف تضاعف ذكاءك] و [تمتع بشخصية أقوى] و [20 وسيلة لاسترداد البسمة المفقودة]، كان عسعس قد حذرني منه بقوله انه بيّاع كلام أونطجي ، علاوة عن ان تيريزا ناطورة العمارة باحت لي بأشياء أكثر عنه، انه مشهود له بالكفاءة في تنظيف جيوب المرضى، يصف لهم كلهم (على اختلاف أمراضهم) نفس برشامة حليب المهرة، يعالج تساقط الشعر وهو أصلع، وله خليلة يستغفل زوجته معها (كانت إحدى مرضاه وأغواها) انما ليس الوقت مناسباً للشك، الاكتئاب كمرض مُعضِل وغير محدد يفسح المجال لعدد غير محدد من المختصين والأشباه ليدلو بدلوهم فيه، المُشعوذين والكهان وباعة الكلام والعشابين، استسلامي لشيكل يقوم مقام علاج الصعقة الكهربائية التي لا أتحملها، صدقته لأني لم أجرؤ على تكذيبه، وصدقته لأن (الخلاص يأتي من اليهودي) حسب إنجيل يوحنا، وصدقته لأن المنطق يسقط بسهولة أمام اضطراب المعنى.

توجهتُ إلى العيادة تلقائيا لحضور الجلسة الثانية فكانت دهشتي بالغة حين رأيته متمطياً في الكرسي الدوار رابطاً كنزة الصوف حول عنقه، عيناه مثبتتان على شاشة الحاسوب ورجلاه على الطاولة (بوجهي دائما)، لم يأخذ وضعية ولم يتحسس البابيون، استقبلني بتكشيرة دون أن ينظر إلي، لمحتُ بطرف عيني على الشاشة أفخاذا عارية فعرفت انه موصول إلى قناة الإباحية 3615، قال دون ان يرفع عينيه عن صور السكس:

" كنت أعرف أنك ستجيء، تحسنتْ؟

هززتُ رأسي بالنفي فأضاف بلا أي عمق في المشاعر :

" من غير الممكن إنكار أن البرشامة ليست فاعلة إذا ما استُعمِلتْ وحدها "

خلته يتكلم بيدشْ ففي الأحوال العادية وبكامل قواي العقلية كانت تلخمني الجمل التي فيها نفيان أو ثلاثة (الاكتئاب مرض إمبريالي غاشم يضرب الحواس الخمسة ويتسلل إلى الفص الصدغي حيث تتمركز اللغة ومخزون الكلمات) مططتُ شفتي في إشارة عدم الفهم،ألقى نظرةً موروبة عليَّ وقال بصوت أحادي الوتر:
" كي تفهم يجب ان تبدأ بعدم الفهم "
وضع رؤوس أصابع يده اليمنى على اليسرى وتصنّع الاستاذية :
" الوعي هو مجموعة ذبذبات في حركة دائمة وعلى درجة معينة من التذبذب، قادرة على احتواء ذبذبات أخرى بدرجة تذبذب أقل "
دوَّرَ جسده فوق كرسيه الدوار، أكمل وهو يحرك الغليون :
" هناك قواعد يجب حفظها غيبا حتى لو لم يكن لها أهمية في ذاتها، كجدول الضرب مثلا، 9 مضروبة ب 9 تساوي 81، ليس عليك أن تجمع على أصابعك تسع مرات لتعرف الحساب، المعرفة الأوتوماتيكية تفيد "
قرّب كرسيه من الطاولة رفع صوته بلهجة حازمة :
" حتى تكون البرشامة فاعلة، عليك باتخاذ خطوات أخرى أيها المغفّل، النتيجة تتوقف على مدى التعاون بين المعالَج والمعالِج، التحليل يجب ان يكون مكلفا ماديا ليكون مثمرا، وإياك أن تظن إني أضيع نصف ساعة معك من أجل ال200 فرنك، انه مبلغ تافه"
لم أجرؤ على الاعتراف أن هذا المبلغ هو بالنسبة لي ثروة بل اكتفيتُ بالقول:
"لا مؤاخذة بروفسور أنتم تبيعوني كلاما لا أفهمه مقابل فلوس لم أعد أملكها، أظنها ستكون آخر جلسة "
قال وعيناه على الشاشة :
" لستَ مضطرا أن تدفع نقدا، بل عيناً "
ولم يترك لي فرصة ان أسأله كيف بل بادر وسألني لماذا لم يرافقني عبد السميع؟ فأجبته أنه مشغول بصلاة الجمعة، اتسعت عيناه في اهتمام مفتعل، فاجئني بنبرة تستمد هيبتها من انعدام هيبتي:

" صلاة الجمعة بباريس، هيه. vous êtes en france، [22]
لم أجرؤ ان أقول ان هذه الفرنسا التي يمتدحها قد أرسلت مليوناً من أجداده إلى أفران الغاز، بل تركتُهُ يسخر :
" أنتم العرب سحركم الحقيقي أنكم لا تصلحون للقرن العشرين، ولا حتى للقرن العشرين قبل الميلاد، أنتم دائما في المكان والزمان غير المناسبَيْن، اعمل طلة على السجون 50 % عرب، اذهب إلى أي مكتب للمساعدات الاجتماعية 80 %عرب، شوف المقاهي كل الزبائن عرب، اذهب لمكتبة المطالعة، ولا عربي واحد، أنتم شواذ عن كل الشعوب، العالم يتباهي بأعظم الانجازات، الأرجنتين تتفاخر بمارادونا وجيفارا، فرنسا تتباهى بفولتير وبلاتيني، إيطاليا أنجبت دافنشي وباولو روسي، البرازيل أنتجت بيليه ورقصة السامبا، وأنتم مفخرتكم ميونيخ وكارلوس وأبو نيدال، تريدون محاربة دولة نووية وأنتم عاجزون عن صناعة عود ثقاب، عُقْدتكم يسرائيل، ماذا تريدون من بلد صغير بالكاد تراه عدسة مكبرة؟ لو أن حكامها طغاة مثل حكامكم لما رفضتوها بشراسة، لكنها متقدمة وديمقراطية مختلفة تفضح تخلفكم، نسائها يقدن طائرات فانتوم ووزارات بينما نساؤكم في الحرملك محرومات حتى من قيادة جمل "
نفش صدره نفث الدخان بوجهي:
" حقا ان العربي الطيب هو المحبط، أنت هو أطيب عربي "
ضحك ثم شد أذني:
" لا عليك، هكذا كان نابليون يداعب آذان جنوده المجمدة في البيريزينا لرفع معنوياتهم "
نهض، خطا ثلاث خطوات استدار، تذكّر ان عليه ان يكون دمثا فلطّف لهجته:
" إصغ لي جيدا يا رمدام فأنا أعلم بنفسك منك، فلتُغيِّرْ أفكارك حتى أستطيع أن أغير نظرتي إليك ، إنْ أخشنتُ القول فلصالحَك، أريدك ان تستفيد من تجربة اليهود، في القرون الوسطى كنّا نُحرَق مع الساحرات، كل أمة كان لها عبيد (ها)، فرنسا كان لها زنوج

---

[22] ترجمتها أنت (هنا) في فرنسا و(ضمنا) ليس في الشرق يقصد في بلد متقدم وليس متخلف

(ها)، إسبانيا لها باسك (ها)، أمريكا لها هنود (ها) ، بريطانيا العظمى لها ايرلندييها، وكنا نحن يهود الكل"
لم أتجرأ على قول... أنتم يهود الكل ونحن (الفلسطينيون) يهودكم،...
صمتتُ مثل طفل مصاب بداء التوحد، ورحتُ أستمع له وهو يتفلسف:
" أنا شخصيا مُشْ عنصريّ ولكنّي لا أهضم العرب، أحب كل الشعوب باستثناء العرب، وأستثنيك أنت من هذه الاستثناء، أريدك فقط ان تعرف ان سر قوة اليهود هو في كراهية الأغيار لهم، فيما مضى كان الغوييم الجنتيل[23] يركبون على ظهورنا والآن صرنا نركب على ظهورهم، أصبحنا نقود ولا ننقاد "
نقر بأصابعه على الطاولة وأكمل:
" لفرويد ملاحظة جوهرية بشأن استمرارية اليهوديّة، إنّه لو لم تُدَمّر أورشليم لكان اليهود اختفوا، تدمير الهيكل المنظور هو ما سمح ببناء الهيكل اليهوديّ اللامنظور "
شمخ رأسه وظل يفتخر:
" نحن اليوبان انتصرنا على كل مصائب الشتات والعنصرية اللاسامية، في الآخر انتصرنا على الجرمان الآريين أنفسهم، عندنا حصانة خاصة وقدرات استثنائية، طبقنا سياسة آل ميديشي وأفلحنا بالسيطرة على أوروبا بالمال والمصارف فيما عجز ملوك أوروبا بالسيطرة عليها بالحروب والمعارك، لكننا ونحن نسعى إلى ارتقاء القمة عرفنا المهاوي، الله جعل من عبوديتنا في مصر ثمنا يتوجب علينا دفعه لنكون شعبه المختار "
صمت وهلة ثم مد غليونه باتجاهي:
" وأنت كذلك يلزمك ان تتدمر لتخرج من المحنة بغلال وافرة، يلزمك ان تكون باطلا أخرقا حتى تصير بطلا خارقا، كن ضحية اليوم لتصبح جلّاد الغد، دع الآخرين يغلبونك حتى تصبح غالبا، دعهم يقودونك اليوم حتى تقودهم غدا، انهزم لتنتصر، استغل قوة ضعفك، السقوط الكلي هو الشرط الشارط للوقوف، انها لمزية ان

---

[23] غوي كلمة عبرية وجمعها غوييم = غير اليهودي / اليوبان هو اليهودي بالدارجة الفرنسية /

تكون مكتئبا يا رمدان، اتبع النبض العميق لقلبك، اكتئب بكل قلبك واجعل من اكتئابك رأسمالك، البرشامة لم تنفع، لا ضير ، اذن سنغير تكتيك الهجوم من 334 إلى 424، على المحبط ان يخدع الإحباط كما يخدع مُسدِّدُ ضربة الجزاء حارسَ المرمى بخدعة البانينكا، يعرف ان الحارس سيرتمي يمنة او يسرةً فيسدد في الوسط، بالمناسبة، أتلعب كرة يا رمدان، أتمارس أي نوع من الرياضة؟

"لا، لا شيء "

" ما هو برنامجك اليوم؟"

" لاشيء "

" أين تقضي وقتك الضائع؟ "

" في سنتر بوبور "

" ماذا تفعل في بوبور؟ "

" لا شيء"

" هذه هي مُشْكلتك يا رمدان، اللاشيْ، العدم، نْيِيتْ، نادا، والو، الصياعة والنوم والكسل، بلغتَ سِن التقاعد بعمر 26 سنة، بطبيعة الحال البرشامة لا تفيد الكسلان، ولا تُغني عن العمل، الإحباط فظيع لكن الكسل أفظع، الكسل أم الخطايا، شيء واحد ينقص وهو الضروري، النشاط، secoue toi[24] النحلة المنشغلة لا وقت لها للاكتئاب، أنظر لتيريزا الناطورة لا تكتئب لأنها تعمل باستمرار، العمل أنجع وسيلة علاجية "

قال هذا و تأبطني وماشاني خطوات، ناولني سيجاره وأشعل لنفسه سيجار:

" سأكلفك بمهمة جدية، تفيدني وتستفيد مني، من الآن فصاعداً ستكون ذراعي اليمين، تساعدني بتدبير شؤون العيادة سأعطيك مهلة دقيقتين لتفكر بالموضوع"

---

[24] ترجمتها حرّك حالك

لم أفكر أبدا لعجزي عن التفكير، أنا مجرد مستودع لأفكاره، كل تلك المقدمة عن معاناة اليهود وعن فضيلة العمل هي تلفيقات حتى يصل إلى دسم المؤخرة، يريد أن يشفيني بالركوب على ظهري، أحلى تكتيك، الرجل، (وبالاعتماد على إحباطي الذي يظهرني بمظهر حمل وديع) مصمِّمٌ على استغلالي، فرضَ علي منطقه، ضربة البانينكا، لكن ماذا لو لم يتزحزح الحارس لا يمنة ولا يسرة؟ عَمَلُ سُخرةٍ كهذا لن يخدع الإحباطَ بل سيخدع المحبَطَ، " احترق بلهيبك، قال لي، إذ لا يمكنك أن تتجدد ما لم تشتعل رمادا، الشقاء ليس نقيض السعادة بل وسيلتها " كان يحاول إقناع مقتنع إذ انه يعلم إن أمره مطاع وكلمته نافذة، المنطق ليس وسيلة موضوعية لتسيير العالم ولكنه ذريعة بيد الأقوى، النطاسي بتاع مستشفى مارموتون كان يسمعني أتكلم ولا يقول شيئاً على اعتبار أن صمت (الطبيب المحلِّل) في التحليل النفسي هو شرط الكلام أو خلفيّة ضرورية حتّى ينطلق من المريض المُحَلَّلْ ما هو غير متوقع، بخلافه فإن شيكل يتكلم وأنا أستمع، ليس هناك علاج صحيح أو خاطئ، المفهومان محض خلط سيكولوجي من عنديات فرويد، الفلسفة سهلة ولكن المنطق صعب، شيكل يملك أيضاً موهبة الكلمة ورثها من موشيه كليم ألّلاه، يؤمن بيهوه ولكنه قبل هذا يؤمن بالكاك كارانت [25]، فالمال أهم مكونات الهوية اليهودية وضامن ديمومتها، (الكاثوليكي يفضِّل الريع، البروتستانتي يفضل الربح، اليهودي يفضل الاثنين) النجاح بالمعنى اليهودي للكلمة هو أن تجمع أكبر ثروة ممكنة في أقصر وقت، المال حاسة سادسة بدونها لا يمكن تشغيل الحواس الخمس الأخرى، المفاهيم ليس لها نفس المفهومية بالعبرية والعربية، حين يقول مسيو فيلولوجي (استثمِر عذابَك) فهو يقصد (دعني أستثمر عذابك)، حين يقول (عمل) فهو يعني (سخرة)، ليس من مصلحته أن أشفى حتى أظل

[25] مؤشر الأسهم في البورصة الفرنسية

مطية يمتطيني، يحتال علي وعلى المرضى (ببرشامة حليب المهرة)، يحتال على زوجته (يغافلها مع خليلته) يحتال على يهوه (لا يسبت يوم السبت)، يتحايل على مصلحة الضرائب مرتين (بتشغيلي بالأسود ومعالجتي بالأسود)، والأدهى من هذا زعمه انه لم ينجح في حياته إلا لأنه ورث مرارة أبيه الذي ذاق الويل في معتقل داخاو، لا يقدر اليهود أن يتخلصوا من الفهم البكائي لتاريخهم، جعلوا المحرقة وكالة حصرية لهم، لعذاباتهم، الهولوكوست رأسمالهم الأساسي قبل المال ورأس المال، الذين يريدون تطويب أوشفتز كماركة قومية مسجلة لآلامهم يسخرون من آلام الآخرين وخاصة من الألم الفردي، أساسا أنا مش محبط بنظره بل أعاني من بداوتي، هكذا ضرب عصفورين بحجر، شخّصَ أزمتي وهو يتحامل على عشيرتي، لم يفهم كيف يشاهد مليار شخص يد مارادونا وهي تسجل الهدف ويعمى دونها الحكم التونسي " ألم يجدوا أفضل من عربي ليحكم مباراة دولية؟ العرب كل العرب مبرمجون للفشل، أما الفلسطينيون فهم أسوأ العرب، صحيح إن الفلسطينيين ليسوا كلهم إرهابيين ولكن الإرهابيين كلهم فلسطينيون " هكذا تكلم، بعلوية أخلاقية، وبين الجملة والأخرى كان يتلصص على صور البورنو في الحاسوب، قلت لكم، الإرهاب هو حرب الفقراء، بينما الحرب هي إرهاب الأغنياء، في ذاكرة شيكل يوجد ميونيخ واحدة ، في ذاكرتي ثمة ألف ميونيخ، هؤلاء القتلة جربوا في لحمنا كل أسلحة الحرب النظيفة والقذرة، سرقوا أرضنا وسرقوا الفلافل وخبز التنور وهاهم يصادرون إرادتي، إذا التقى فلسطيني مخوزَق مع يهودي فالخسائر (والأرباح) ستكون حتما جسيمة، أبناء عمومتنا لا يمكن مقارنتهم إلا بأنفسهم فكل مقارنة مراوِغة، وإن كنا كلنا (سماعلة واسحاقيين) قد نزلنا من إير برهومة ذات يوم بعيد فإن الحزازات قد باعدَت بيننا وحولت العمومة إلى عماء، ماذا تنتظرون من شعب اختار نفسه ليكون شعب الله المختار. شعب نفروزي عصابي يعاني من رهابات واقعية ومتخيلة، أقلية، لكنها أقلية هائلة وتمسك بخناق الأكثرية، أنجبوا كتابا عباقرة وكتبوا التوراة والمبادئ العشرة الكويسة والأناجيل الأربعة (وكتبوا حتى القرآن

في نسخته الأصلية التي ترجمها صلعم إلى العربية) كانوا مضطهَدين فتمكنوا وصاروا مضطهِدين، كانوا تائهين فاستقروا وتيّهوا غيرهم، لعنة أن تكون فلسطينيا، لعنة مكبرتة أن تكون فلسطينيا ومحبطا، أما أن تكون فلسطينيا ومحبطا ويُعالجك يهودي، فإنك قد ربحت جائزة اللعنات الكبرى في سحب اليانصيب، ظل شيكل يحكى وأنا أسمع، أوصلني إلى معادلة معقدة، العبودية ليست نقيض الحرية، لكنّها تعديلها الناجع سيكولوجياً، العاهر نيتشه برَّر عبودية العبيد، وهذا يكفي، وجهة نظر وجيهة، العبودية وجبت بموجب وجود الأسياد، هذا هو الدرس الذي يجب حفظه جيدا، الاستثمار الإيجابي للسلبيات، التزامات المريض بإلزامات المُمَرِّض، حرية بنكهة عبودية، أول مرة أشعر إني عبد ولهذا أنا مطمئن، من العبيد من يفقد آخر مزية له إذا انعتق، أعرف شاباً موريتانياً ابن شيخ قبيلة درس الحقوق بباريس ولما وصل إلى مطار نواق الشط، استقبله عبد زنجي من جملة عبيد أبيه، باس يده وحمل عنه شنطة السفر، لكن الشاب النبيل المتمرس على حقوق الإنسان والمساواة استهجن هذا السلوك فقال للعبد "اذهب فأنت حر" ارتعد الزنجي وولول " أويلي أسيدي. من سيؤويني؟من يطعمني؟ من يكسيني؟" أفهموها يا مكتئبين، الحرية مناهضة لطبيعة الإنسان، احترسوا من الضعيف حين يصبح قويا لا من القوي حين يمسي ضعيفا، احترسوا من العبد النائم فيكم، في عالم شايلوك كل شيء بضاعة حتى الإنسان نفسه، انتهت تجارة العبيد فتشكل الاستعباد بأشكال أخرى، بِ شيكل (يات) أخرى، أمهلني دقيقتين لأختار بين أن أقول نعم أو أن لا أقول شيئا، تغلّبت حجة القوة على قوة الحجة، فعلتُ ما أمرني مُسيّرا لا مخيّرا، أنا العبد العبد، الخادم المطيع للخواجة شيكل، أملك التفاني والخضوع والساعدين الرخوين وكل مؤهلات العبيد، أنا البغل وحسب، أحمل وأتحمل وأسير حسب مشيئة البغَّال، كنت زبونه فصرت ملكيته الخاصة، اعتبرني هدية هبطت عليه من السماء مع زخات المن والسلوى، تصرف معي تصرُّف المولى بأقنانه، استحمرني وسخرني لطلبياته المتكررة، وها أنا ذا بحواسي التي خرّبتها الأدوية، بخمولي وذراعي اللتين لن تفيدا إلا

شيكل، أنظف العيادة يوميا، أكنس الأرضية وأمسح الغبار عن الأثاث، وأغيِّر المياه في مزهرية أصص الأزهار، أفرغ الزبالة وأجهز المرحاض وأتأكد إذا كان فيه أوراق لمسح الطيز، وأبخ فيه مزيل الروائح، أوزع إشهارات دعاية للعيادة في المكتبات الروحانية، أحضر الرسائل من ربيئة تيريزا الناطورة البرتغالية التي لا يطيق شيكل رؤيتها لثرثرتها (يسميها وكالة رويتر)، أقوم بالواجب على أكمل وجه، أشتري له جريدة ليكيب الرياضية، أسَرِّح كلبه جازي في الحديقة، أو أذهب إلى المختبرات وأشتري له إبر البوتوكس اللازمة لشد الوجه (شيكل يمارس هذه المهنة زورا وبالتعدي على القانون)، حين يكون على موعد غرامي مع خليلته أشتري له بعض أعشاب الجنسنغ المنشطَة لتعزيز عجزه الجنسي، انخدعت عالمكشوف عينك عينك، تحملتُ العنت باقتناع، خضعت له في العلاقة المغناطيسية بين المنوِّم والمنوَّم، وأعجبني خضوعي إليه، وفهم هو جيدا إن وسيلتي الوحيدة للدفاع عن نفسي هي تلبية رغباته فازداد عتوّاً وجعل يرسلني كل سبت إلى منزل والديه لأقوم بأعمال محرمة عليهما كالحرتقة والبريكولاج، انقدتُ له انقياد النهر للبحر، استعبطني وعطل خياراتي، سيطر علي كليا فلم أعد أستطيع إلا القبول به كليا، استعملني بنية حسنة على قواعد علمية ووفق منطق صارم، قنّع الاستغلال بصيغة صداقة همشرية فطلب مني أن أسميه ج ب وسماني رام، ومن جهة أخرى وتأكيدا على التبعية ظل يخاطبني بصيغة المفرد (toi) بينما فرض علي أن أخاطبه بصيغة الجمع والاحترام أنتم (vous [26]) تغير صوت حنجرته مع إعطاء الأوامر واكتسب نبرة خطيرة، عبد السميع كذلك نصب نفسه علي قاضيا ومحاميا ووصيا، ارتفعت أسهمه بانخفاض أسهمي، كما ترون فالإحباط أكسبني مزايا إضافية، دجَّنَ ذئبيتي وجعلني أميل تلقائيا إلى تعظيم من كنتُ أحتقرهم، سقطتُ في الجحشنة وفي مازوخية الخضوع ، تلذذتُ بالجرح والفشل والهزيمة والعبودية وطقوسها الجميلة ، أهملت مظهري الخارجي

---

[26] صيغة فو وتستعمل للاحترام بينما أنت توا تستعمل للحميمية أو للدونية كما هي الحال هنا / ج ب اختصار لحرفي اسم جان بيير

حتى يتناسب مع الداخلي، ما عدتُ أتهندم (أية بنت ستنظر إلى حطامي) الحيوان المفترس كمن في داخلي، أوقعني بأسري في أسره، خلع عني كل صفاتي الجميلة، إرادتي، ماهيتي، مواهبي الاستثنائيّة، نخوتي، همتي، معنوياتي، آدميتي، حساسيتي، فعاليتي، دهشتي ، انبهاري، شكي المنهجي، فوضويتي، كبريائي، شغفي بالشعر، تطلعاتي، انشغالاتي الوجودية ، شهوتي وشهيتي، تفاؤلي ومبادرتي، حماسي وهوسي بالحياة، تمردي وعنادي. سقط كبريائي وسقطتُ من الأعين، أصبحت اللامساواة بيني وبين الناس مفهوما ذهنيا فطريا، وأصبح الرضوخ طبيعة ثانية في وأصبحت ملطشة للصحيح والمعتل، وأصبحت آخر من يعصي وأول من يطيع، حتى تيريزا البوابة فرضت نفسها علي بعدما رأت شدة هواني، طلبت مني أن أرعى كلبتها دولسينا أثناء غيابها، وطلبت مني أن كذلك أوزع البريد على سكان العمارة، الرجل الدون يقنع بالدون، إذ جعل نفسه دودة فإنه يجب ان لا يشكو عندما يتم الدوس عليه، من يسقط هذا السقوط يستهزئ بكرامته، رميتُ نفسي في الفخ بإرادتي وعليَّ المضي إلى آخر الشوط، أدمنتُ على شيكل ونقمته، وقبلتُ بالغبن من قبيل الغباء الطوعي والاستباق الدفاعي، ولكنني لست غبيا تماما، عليّ أن أخدع وحشي بوحش أوحش، الاستمرار في الإحباط هو أنجع علاج للإحباط، الإحباط الذي يقتصد ليس الإحباط الحقيقي، المحبط يشبه المقامر في التلذذ بالخسران والمجازفة والإدمان، يقامر حتى آخر فلس، يرهن البيت ويخسر، يرهن مجوهرات زوجته ويخسر، يرهن زوجته ويخسر، يفقد عمله وبيته وزوجته، يتمسح جلده ويخسر حتى شعوره بالخزي، الإحباط فن لا يتقنه إلا المحبط، أنا هو هزيمتي، أنا بالوحش وللوحش، أنا قديس المسالخ، البهيمة الصابرة، ما دامنا صدقنا مقولة القديس أوغسطينوس بالخطيئة الأصلية القائلة أن سقطتنا من الفردوس هي عقوبة على خطيئة أبينا آدم الذي نتش التفاحة، فلماذا لا نصرُّ على آدميتنا، نحن أبناء آدم وأنغاله، فنكمل أكْلَ التفاح سقوطاً سقوطاً حتى القاع. لا بأس، شيكل وعسعس على حق وكل مضطهدي الأنبياء على حق ما دام ان الاضطهاد هو الطريق الذي تمر منه النبوة.

دليل وشمشومة

نقرتُ على الباب فاستقبلتني امرأة رشيقة عليها سمات بنات النعمة، بادرتني بابتسامة هوليودية:
"تْفَضّل منْ هْنا "
إلى بيت المؤنة حيث كوَّمْتُ المُشْتريات البيولوجية، قادتني إلى الصالون وعباراتُ الشُّكْر الميكانيكية تفيضُ على شفتيها، أطلقتْ بسمة عريضة لتساعدني على طرد الخجل، تصرفتْ معي بلا تكلف وهي ترشدني للكيفية التي بموجبها يجب أن أرتب المحتوى:
"المعلبات تحت، الشوكولا، البيض فوق، قناني الخمرة بين بين، المثلجات.."
لم أنتبه لما قالته ذلك إني كنتُ غارقا في استهجان وجودي وحيدا مع امرأة وحيدة بلا مَحْرَم (أنا كشاعر أعتبر المرأة (نظرياً) ندا للرجل، لكن قناعاتي بالمساواة الجندرية تتوقف عند هذا الحد من التنظير فأنا ابن حضارة تُقْرِن المرأةَ بالنّير إلى جانب الثور) فوجئتُ بنفسي في بيت واسع وأكثر اتساعا مما يتطلبه رجل وامرأة، فيه تغصُّ الحياة البورجوازية بأبهتها ووفرتها، الصحون من خزف البورسلان، والكؤوس من كريستال، والأثاث من خشب الأكاجو، الصالون تزينه لوحات زيتيه كلاسيكية ورسوم تكعيبية، كأنه متحف للماضي والمستقبل (هؤلاء اليهود بعكسنا، سحرهم الحقيقي أنهم يصلحون لكل القرون ما قبل التاريخ وما بعده)
فوجِئْتُ بنضجها التكتيكي وبرودة أعصابها ، وخاصة بسؤالها:
" أعندك خمسة دقائق لتناول قهوة؟"
لم يكن بوسعي أن أقول لا فلم أقُلْ شيئا، جلستُ على كنبة من طراز فيكتوري بشكل أخرق (تذكرتُ ذلك اليوم البعيد في خضم الحرب الأهلية إذ دخلتُ بيت دار خالي نمر فأجلسوني على أريكة موبيليا افرنجي آخر طراز كانوا قد نهبوها من بيت زغرتاوي) لم أعرف كيف أبدأ الحديث فتكلمتُ عن تقلبات الطقس، ثم دمدمتُ بكلمتين عن الفارق بين أسعار المواد البيولوجية وتلك الغير بيولوجية، شعرتُ بالارتباك الذي يحدث عادة في احتكاك الناس

الجردية بالنواعم، بذلتُ جهدي لأبدو طبيعيا مثلها، بيولوجيا مثلها، لكن خجلي وإحباطي فضحاني، كيف أتكلم دون أن أتلعثَمَ أو أرتبكْ؟ أصبحت نظراتي ثقيلة وأنا أرصدها وهي تتجه صوب المطبخ... رقيقة ، رقيقة، أنفها ناعم كالمخمل، خصرها رشيقة كخصر مصارع ثيران، شعرها معقوص كما في التماثيل اليونانية، بشاشة وجهها تتعارض مع قتامة وجهه، ليس فيها نبرة لؤمه (النساء ليس من طبعهن العنف تستثني من ذلك بعض الحموات) ضحكتها مرسومة بعناية كأنها هاربة من لوحة تشكيلية، تعيش بمذاقها الخاص وعبر ما يحلو لها، جسدها يبدو كأنها شكَّلته وفق قانون الرشاقة المصانة بالغذاء البيولوجي، وجهها العذب شاحب قليلا ، عيناها داكنتان، في الأربعين ولكنها تبدو بنت ثلاثين....

أطلَّتْ واثقة الخطوات، خفة دمها تموه على صرامتها، وضعت صينية القهوة أمامي:

" أتدخِّنْ؟"

" أدخن "

" ما رأيك بسيجارة غلواز. "

" مفيش مانع "

" ما أسمَك؟"

"رمدان، وج ب ينادينى رام ".

طفقنا نستكشف بعضنا، نتقهوى ونُتَتِّنْ ونتكلم في بساطة الحكي وتداعياته، قالت انها من اليسار الإسرائيلي (يعني صديقة العرب) قلت أني من اليمين العربي (يعني صديق إسرائيل) قالت انها تحب الفلسطينيين فقلت اني لا أكره اليهود، قالت إنّها ضد الحرب وقلت إني مع السلام، قلنا كل شيء في بضع دقائق، الديباجة نفسها، بيس أند لوف[27]، الاعتراف المتبادل والمتكافئ لجميع أبناء أبراهام بجميع أبناء أبراهام (مجرد حكي ففي هكذا موقف تسود عبارات المجاملة، ويبقى ما يجيش بالصدر مستترا) عرّفتني على بقية أفراد العائلة، الكنار الحبيس في القفص، الكلب جازي الذي

---

[27] السلام والحب/ لوبلين مدينة في شرق بولنده

أعرفه، وعرّفتني على القط أنغورا الذي لم أتشرف بمعرفته بعد (ككل العائلات الميسورة، الفاميليا شيكل رُزقت بدل الأولاد بكلب وقطة وعصفور) عرفتني على جدَّيْها المعلَّقيْن في الجدار كطابعين تذكاريين، باروخ روزنتال حاخام مدينة لوبلين في مسوح الحاريديم السوداء، كتلته الضخمة تكاد تخرج من الإطار، المسكين هو الآخر لم يرجع من أوشفتز، ثم بورتريه جدها لأمها أهارون بوشناق من أكابر يهود الجزائر الذين باعوا القمح لفرنسا قبيل الاستعمار،

ثبتَتْ فنجان القهوة على راحة يدها وقالت:

"إنك العربي الوحيد الذي يدخل هذا البيت، هذا لو استثنينا فاتيما، الخادمة المغربية، انها فتاة مطواعة ومطيعة تنظف كل شيء ، كل شيء "

وبَعْبَصَتْ في الغراموفون وهي تعلن أن الحياة بدون موسيقى ستكون غلطة ، خيّرَتْني بين جورج موستاكي وجورج براسانز ثم استدركتْ إن عندها أشرطة موسيقية لمُغَنٍ جزائري اسمه أنريكو ماسياس، فقلتُ:

"ما دام انه يغني بالعربية فهو عربي"

استطردتْ هي:

" عندي في المكتبة مؤلفات لكاتب عربي أسمه تاهار بن جلون "

فقلتُ :

" هذا الجلّون اسمه فقط عربي، انه في الحقيقة قرد إكزوتيكي بمؤخرة حمراء لتسلية الفرنسيين "

اندهشتْ المدام من ملاحظتي:

" ولكنكَ أنتَ نفسك تتكلم الفرنسية. "

" نعم أتكلمها مع غير العرب ولا أكتب الا بالعربية"

وعلى ما يبدو فإن هذا الموضوع لا يهمها فلم تتوقف عنده (المدام ليست مشغولة بالهوية والتباساتها، انها يهودية مئة بالمئة وفرنسية مئة بالمئة ولا ترى تعارضا بين الإنتماءين) حدثتني عن وجعها البورجوازي، علاقاتها الاجتماعية ألوانها المفضلة،... لا تجيد الطهي، تفضل طعام دليفري، نباتية (حتى قطها نباتي) مدججة بوعي بيئوي، ملتزمة بغابة الأمازون وملتزمة بالريجيم على

الطريقة الأمريكية، مواقيتها ديكاليه مختلة، تنهض عند الظهيرة، تتغذى عند العشاء، كسلانة وتعمل ما يشبهها فقط، ترسم وتعزف على البيانو لتعيد خلق الأشياء من جديد، تحب ليرمنتوف ومندلشتام وبوظة هاغن داز والمعمار القوطي والجبنة ذات الرائحة القوية، وتفضل بيكاسو في مرحلته الزرقاء، فنانة شاملة مغرمة بالمسرح لكنها فاشلة في التمثيل، تعشق الرسم ولا يطلع معها الا شخابير، ترسم البحر باللون الأحمر وترسم السماء باللون الأخضر، وتحزن لأحزان الحزانى والطيور المهددة بالانقراض، والفهود السود والهنود الحمر والفلسطينيين السمر، تقترف الاحسان بلا منّة وتتعاطف مع أي شيء، أي أحد، قطة شاردة، كلب شالو، غمامة في السماء، معزوفة جاز (تعاطفتْ معي لأني حقيق بالعطف ولأن عمري 26 سنة ولأن فيَّ شيء يمكن استغلاله).
اقتربتْ مني أكثر لتذيب جليد التفاوت الطبقي، لتلغي حفظ المسافة المرادف للعلوّ الأرستقراطي، أطلعتني على ألبوم الصور، عبرنا أربعين عاما من يوم مولدها حتى يومنا مرورا بإقامتها في مدرسة داخلية ثم مراهقتها مع الهيبيين الخنافس والبوهيميين، ثم صورتها وهي تلعب التنس بتنورة قصيرة (كلما تقدم الزمن تقصر التنورة فوق ركبتها، حتى تتحول إلى سترنغ) أشارت إلى صورة قديمة بالأبيض والأسود لحارة اليهود، وقالت بنوسطالجية:
" لا تتخيلنَّ العالم الغابر كان أكثر سوادا من عالمنا، كان ملونا كعالمنا لكنها آلة التصوير البدائية التي تقتصر على هاذين اللونين".
ثم تشعَّب الكلام، باتجاهي، باتجاه "ما هو برجي الفلكي؟ (هي هكذا كل ما تتعرف بشخص تحاول تحديد برجه) قبل ان أجيبها بدأتْ تتحزر :
"العقرب ! "
" لا"
"الدلو !"
"لا"
" إذن القوس !"

" لا، أنا من برج الأسد"
" أوه قلبي دليلي كنت أعرف إنك أسد"
هتفتُ "أنغورا "فقفز القط من حضن تمثال بوذا إلى حضنها، راحت تداعب ظهره وهي تستجوبني:
" هل تحب المسرح؟"
"لا "
" الموسيقى الكلاسيكية؟ "
" تقريباً "
"أتحب التصوير الفوتوغرافي؟ "
" لا أكرهه"
"متى وصلتَ فرنسا؟
" منذ أربعة أعوام"
"من أين؟ "
" من تحت "
"تحت أين؟ "
"إسبانيا "
"قبل إسبانيا؟"
"بولندا "
" ماذا كنت تفعل هناك؟"
" أدرس"
" ماذا درست؟"
" شُرْب الفودكا "
" قبل بولندا؟"
"تونس "
"ماذا كنت تفعل بتونس؟ "
نكرزتني أسئلتها المتتالية، ورحتُ ألوك بصمت الكلمات التي لم أجرؤ على قولها علناً... كنتُ أفعل لا شيء، أقصدُ، كنتُ عسكرياً مع عرفات، وقبلها كنتُ في العراق أيضاً مع الختيار، وقبل ذلك كنت في لبنان، وقد لا يعنيكِ أنني في مخيمي النائي كنت فدائيا في كتيبة المحمولة أشرس كتائب حركة فتح، كنت أتمرجل برجم صواريخ كاتيوشا لا على بيتكم (الذي هو بيتنا) في الجليل الأعلى

بل على بيوت جيراننا في زغرتا [28] الانعزالية، رغم أن تاريخي هو تاريخ شعبي فأنا حالة عرضية بين الفلسطينيين، لا أحب كلمة الشتات لأنها مسروقة من قاموسكم ، كما لا أحب أن أتقمص دور الضحية رغم اني ضحية. الرصاصة التي برجلي لم يطلقها علي جنود إسرائيليون بل أطلقها علي فدائيون مثلي أخي رجب أسرته الشقيقة سوريا لا إسرائيل، كما ترينْ فأنا فلسطيني من صنف خاص جدا، مخوزق بخازوقي الشخصي، بالمحصلة لست وطنياً، أعيش خارج السرب، إنسانا أولا وفلسطينيا بالصدفة، أنا شظية طائشة من الانفجار الديمغرافي، لِنَقُلْ أني مجرد سائح من ضمن مليوني سائح خرجوا للاصطياف في دول الجوار منذ عام 48 ولم يرجعوا، صيفوا وشتّوا في دول الاصطياف، شرَّشوا في بلاد الاصطياف ودمروا دول الاصطياف...
مدام شيكل أثناء صفنتي الطويلة كانت تَقْرَأ مَا يَجُول بِخَاطِرِي، (يبدو ان زوجها قد أخبرها بجنسيتي) قالت :
" كونك فلسطينيا لا يضايقني بل على العكس، فالبشر وُجدت لتكره وتحب ثم لتتعارف وتتغلب على غرائزها"
رشفتْ من القهوة وتنهدتْ:
" أنتم ونحن نعادي بعضنا البعض ولا نعرف لماذا، متى يجلس أبناء اسماعيل وإسحاق معاً على بيانو واحد كما فعل إدوارد سعيد مع دانييل بورنباوم ليحولوا قرع طبول الحرب إلى لحن جميل؟"
استوتْ خلف البيانو عزفتْ مقطوعة [حزن] لشوبان، لم تنظر إلى النوتة أمامها، طفح وجهها بالمشاعر الحادة، حواسها تمركزت في أصابعها، في رؤوس أناملها وهي تنتقل بين الأزرار السوداء والبيضاء بسلاسة ميكانيكية، أشعلتْ سيجارة مجتها بلذة وسرحتُ مع دوائر الدخان اللولبية :
" الكلام مَعَكْ ممتع لأنَّكَ مستمع جيد "
" في الحقيقة، أنا مسمتع جيد لأني متكلم ردئ "
مع السين والجيم ذاب الثلج الطبقي، سألتني عن مهنتي فتجرأتُ وقلت:

---

[28] زغرتا بلدة لبنانية قرب طرابلس/ الختيار = لقب عرفات

"شاعر"
وصَمَتتُ... أجلْ يا سيدتي، أنا صوت من أنقى الأصوات الشعرية، ويمكن تصنيفي ضمن شعراء المخيمات النائية، أطبع دواويني على نفقتي، قصائدي (أولئك الأبناء الذين أنجبهم عقلي) تُنْشر في بريد القراء لا في الصفحة الأدبية، أنا شاعر بسيط وكلماتي تشبهني، لستُ خبيرا بشؤون النساء ولهذا أحفظ غيبا أشعار نزار قباني...
وعكرتْ صمتي بسؤالها:
"ما هي هواياتك؟"
"انا بلا هوايات وأحتقر الرياضة وجَمْعَ الطوابع "
" هل عندك شهادات؟"
" عندي دكتوراه فخرية في الاكتئاب"
كلامي حرّك بؤبؤيها في محجريهما وجعلها تنظر لي من زاوية مختلفة:
" تبدو كائنا متوحدا انطوائيا خامد باستثناء عيونك، شكلك الخارجي بارد كالبراد بينما داخلك حار كالفرن، تبدو مسلوخاً حياً، مبعثرا ومشلولا مثل القديس سيباسستيان تخترق السهام بدنه ولا يبدو عليه أي معاناة، كيف وقعتَ في الاكتئاب؟
" هكذا عوكستُ، عاكستني الحياة، كنتُ أريد المضي إلى أبعد حدودي مستثمراً قواي الديونويسية الهدامة، فاقترفتُ الحماقات بالجملة والمفرق، تجاوزتُ كل التجاوزات لأطهِّر ضميري من سموم الأخلاق، قمتُ بكل ما أستطيعه من منكرات قبل فوات الأوان، ثم اقتنصتني الهاوية وسقطتُ ".
دمدمتْ وهي تداعب ظهر القط :
"أفهمَك، أفهم إحباطَك "
ولم أفهم كيف تفهمني؟... هذه الخرقاء. حتى زوجها، مُعالجي، لا يفهم شيئا عن أزمتي، الإحباط هو المرض الوحيد الذي لا تتسع له مفاهيم الأصحاء، هو سِفْر الخروج وسِفر أيوب مجتمعين في رجل واحد، أنّى لغير المحبط ان يفهم الإحباط؟ انه شكل مجازي للموت، حزن أساسي، تمزق داخلي، جرثومة فتاكة أعتى من الحرب والغلاء والوباء ووجع الأضراس والزلازل والطاعون

وهجمات التتر والمجاعة والمسغبة، ولئن كان الأصحاء متشابهين في صحتهم فإن كل محبط تعيس على طريقته الخاصة، الإحباط إحباطان، مجرّد وعيني، على أنه يبقى الإحباط نفسه ولا يجوز تجزئته، هو فقط يتشكل بأشكال مختلفة، الألم الجسدي، العُزلة، الموت المؤجل، الاحتراق، الصمت، الخرَس، العفن الداخلي ، كيف أستطيع أن أفهمكِ ذلك أنا الذي لم أفهم شيئا من إحباطي؟ ودائما يحول سوء الفهم بيني وبين الفهم، أتوسّلُ بالمنطق والرياضيات فتخيب وسيلتي، الرياضيات مفتاح الطبيعة لا النفس البشرية، التأمّلات كلها مجرّدة، الإحباط إحباطي، هفوتي الخاصّة، أرضي المحروقة، بيريزينا(ي)، ومع ذلك لا أعرف عنه أكثرَ مما تعرفيه أنت، لا يمكنني أن أعبِّر عنه إلا بالصمت، فذهني ما زال غائما وكثيرا ما يكذب الشعراء، الإحباط وحشٌ مراوغٌ ، كاوس عمائي، فوضى واسعة، حياة وبيلة، أعطال وأعطاب، علة باطنية، مفهوم اعتباطي مثل ألّلاه بتاعنا أو يهوه بتاعكم، الأغلبية تؤمن بهما والقلة تنكرهما، والمؤمنون بهما لا يتصورونهما بنفس الطريقة، تخيلي سيارةً تسير بسرعة صاروخية في أوتوستراد ثم تجنح في انعطافة قوية نحو مكان مجهول وترتطم في الخواء، هذا هو الإحباط يا سيدتي، تقريبا لا تحديدا، انحراف عن السوية، نكسة تعتري المسار، طفرة هائلة غير مفهومة، الوحش يبقى سراً بين اثنين، المحبط وإحباطه، فعل مجهول يحيل على نائب فاعل، مبتدأ بلا خبر، لو كنت موسيقارا لَلَحَّنْتُه بشكل سيمفونية كاكافونية أنغامها كصفير منشار يئز في لحم طري، لو كنت رساما لرسمته على صورة [الصرخة] اللوحة الأشهر للرسام النرويجي الأشهر إدفارد مونخ، هذه هي رمز دين الإحباط، على إن الرمز علاقة بين طرفين نجهل أحدهما، الإحباط لغة فوق اللغة، الكلمات عقيمة ولا عزاء لأهل المعنى، في فيلم [هيروشيما حبي] تقول الممرضة الفرنسية التي تطوعت لمساعدة المنكوبين بالإشعاع النووي، تقول أنها تحس بالمأساة، ويرد عليها عشيقها الياباني الذي شاهد بأم عينه الرعب "لا، أنتِ لا تعرفين شيئا عن مأساة هيروشيما " تصر الفرنسية على أنها رأت آثار الدمار (بعدياً) على وجوه الجرحى والمُشَوهين والمعاقين والأطفال المعطوبين الصلع

ألخ. ويصر الياباني على انها لم تر شيئا، ولا غرو، فالكارثة حكر على ضحاياها، الإحباط هو ان ترتفع درجة الحرارة فجأة إلى عشرة آلاف درجة مئوية وتصهر كل شيء، انه الجحيم بعينه...
كان بودي أن أجاهر بكل هذا ولكن الوحش سلبني من كلماتي، احترمَتْ هي صمتي وجبرتْ خاطري بهز رأسها ، قالت وعلى وجهها الابتسامة الحانية نفسها:
" أفهمَكْ، أنتَ ضد الثرثرة لأنَك أكبر الثرثارين مع نفسَك، طويتكَ مطوية، أوجاعكَ الغميقة خرساء، لا عليك، لا زلتَ في عنفوان الشباب وأمامَك مستقبل "
كظمت غيظي منها بكظ أسناني... المستقبل، يا سيدتي، هو الشيء الذي أمامي ولا أراه، المستقبل كان ورائي، المستقبل جثتي، شَبابي انتهى في رَيعانه ولن أسمح لك أن تقولي ان الشباب أجمل الأعمار، الشباب فجيعة، الشباب خريف العمر لا ربيعه. واستأذنتُ للخروج، نظرتُ للساعة فكانت الخمس دقائق قد استطالت إلى ساعتين ونصف.

خلوة غير شرعية

" تَفَضَّلْ يا رام "
ناعسا جاء صوتها من الجهة الأخرى، تفضلتُ وحدي للبيت الذي صرت أعرف دهاليزه، كرّجتُ الكراجة لغرفة المؤنة ووضبتُ محتوياتها بين الثلاجة والنملية والبراد الكبير، قعدتُ على الأريكة الفيكتورية أنتظر قدومها وتعليماتها، رأيتُ الطاولة مجهزَة بشموع وكؤوس وقلب كيوبيد، خمنتُ ان اليوم هو عيد ميلاد شيكل(ها)، لمحتُ القط أنغورا نائما في حضن تمثال بوذا، بعثرتُ بصري بين الصور قبل ان أثبته على صورة جدها بوشناق السمسار الذي باع قمح الجزائر لفرنسا ثم باع الجزائر لفرنسا، بروفيل ثلاث أرباع لوجه بارد على خلفية سوداء ، فتحت جريدة الأهرام وأخذت أقلب صفحاتها، سمعتُ وقع خطواتها في الرواق فوقفتُ باحترام عسكري:
"بونجور مدام "
ففاجأتني بحنان حقيقي :
" ناديني نادين حاف بلا مجاملات "
وطفقتْ تشع بأناقتها وامتلائها بذاتها، قميص يعصر الخصر ويبرز حجم النهدين، تنورة فيها من القماش أقل ممّا في منديل جيب، ترتفع كثيراً عن الركبة وتنخفض قليلا عن الثمرة المحرمة، تكشف أكثر من اللازم وأقل من المطلوب، توهجتْ أنوثتها مع الكعب العالي، تخصورتْ خفيفةً لَزجة كثمرة ليتْشِي، وعلى وجنتها بسمة ناعمة جدّاً، ساذجة جدا :
" ما رأيك بهذه اللوك يا رام؟"
قالت بنبرة امرأة تعرف كيف تغوي الرجال ، وراحت تمدح حسنات الميني جوب لكونه يمنح للمرأة العصرية فرصة للتعبير عن ساقيها، خمنتُ أنها لو مَشَتْ هكذا في الشارع فستسبب عدة حوادث اصطدام، ساورني شك بأنّ شيكل وهو يطلب مني أن أقضي حاجات المدام يقصد حاجاتها العاطفية (لعله قصدا رماني عليها لتفعل بي ما يفعله هو مع خليلته) وتأكد شكي حين تبينتُ ان

المحتفى به هو أنا، خدامها، اذا كان اللقاء الأول عموميات وقهوة فالثاني خصوصيات وسُكْر، خيَّرتني بين نبيذ كاهور او نبيذ الميدوك فاعتذرتُ متحججا إنني معتكف عن الشرب بسبب الأدوية.
"هل عندك عشيقة او زوجة لتواعدها؟ "
سألتني فقلتُ
"أنا أعزب"
" أوه رام، العزوبية لها عيوب كثيرة لكن الزواج ليس له أي لذة "
واستدركتْ وهي تنزع فلينة القنينة:
" ربما أنك مسلم ملتزم لا تشرب خمرة."
" بلى، أشربها إذا كانت حلالا على سنة ألّلاه ورسوله "
لا يمكن التنصل، المدام تعيش ليومها فقط، تفرح دائما وعندما تحزن تحزن بصدق، أكرر وأعاود القول إنني لم أنزلق إلى مطب الموضة الدراجة لدى كتبجية العربان، يقحمون شخصية يهودية طيبة إقحاما في رواياتهم لزوم الحبكة الدرامية، لا وحق اللات ويهوه. لم أقحمها ولكنها أقحمتْ نفسها في حياتي، وهي ليست طيبة ولا خبيثة ولكنها يهودية تنتهز الفرص بدل تضييعها...
قرعنا كؤوسنا ورشفنا، راحت تتكلم عن تعاستها مع شيكل ببرود وحياد كأنّها ليست معنية بهذه التعاسة:
" ما يغيظني في ج ب انه يهتم بكرة القدم أكثر من اهتمامه بي "
صمتتْ منتظرة أن أبادلها مصارحة بمصارحة، لكني لم أعترف، إذ لوْ زل لساني وصارحتها بأن أقصى طموحي هو التشبه بزوجها فبالتأكيد أنها ستنفر مني، تحدثنا (هي التي حدّثتْ) عن مشكلة النساء التي هي مشكلة الرجال، وتحدثتْ عن مشكلة اليهود التي هي مشكلة الأغيار الغوييم، وتحدثتْ (هي دائما) عن السعادة والمبادئ المليحة، الرشاقة والرياضة ومشاكل الحموات، ومشاكلها هي، كانت يوماً وسيمة ذا شبابٍ نيّرٍ، غير أنها كانت تدرك أن هذا لن يدومْ بسبب الذبول الضجر العقم، لا تعرف معنى اليأس اذ لم تكن يوما فاقدة لليأس، حياتها صدفة جميلة من الخارج فارغة من الداخل، وتحتاج لمن يعمّق إيمانها بالحياة، لهذا تقتني القط والكلب والكنار (وتريد ان تضمني إلى جنينة حيواناتها)

" من قال ان السقوط لا يحصل إلا للآخرين. لعلي محبطة مثلك يا رام؟ "
هكذا دمدمتْ وهي تمج السيجارة، خطر ببالي انها تنمّي التماهي مع مدام بوفاري لحدَّ التطابق، لو وضعنا المظاهر جانبا فإن النسخة أتعس من الأصل، نادين تشكِّل مع شيكل(ها) الكوبل النموذجي المُستهلَك بطول السنين، كان يعترف لها في بداية الزواج " ستكونين زوجة طيبة يا حبيبتي، أما أنا فلن أكون أبدا زوجا رائعا" كان قدرها، تعرفه من زمان كانت تناديه دكتور وهو ما زال سنة أولى طب، تزوجته في ستراسبورغ وجاءت معه إلى باريس، ولم تكن مسرورة حقّاً في أيِّ مكان، لكن الحياة علمتها أن تبتسم في أحرج اللحظات وأن تجد العزاء في الموسيقى.
واستوتْ خلف البيان وعزفت مقطوعة لحن هنغاري لشوبرت، ثلاث دقائق من الخيال المحض، سألتني :
"بالمناسبة، هل تفضِّل هاندل أم باخ؟
" أفضِّل الجزائري أنريكو ماسياس"
على أنها وضعتْ في الغراموفون شريطا للقوالي نصرت فتح خان، واكتشفتُ انها لا تمزمز النبيذ مزمزة بل تبلعه بلعا، هذه المرأة الراديكالية ، حبها للشباب هو نقطة ضعفها الوحيدة إضافة إلى حبها للخمرة والشوكولا، كل ما تسمع بهما تهتز أعصابها وتفكر بهجر الريجيم، ما أشد وحدتها. الحزن المدروس على وجهها هو شبهة نقص عاطفي حاد، عيناها الهادئتان ثمرتان لوجع بورجوازي، كل هذه الأنوثة الفادحة، تسبيلة رموشها، بسمتها التي تخفي قلقا خاصا، امرأة شاملة مدجَّجَة بقناعة شرسة كأولئك النساء اللواتي خرجن للتو من تجربة وعرة، لا مساحيق على وجهها، مشارف الأربعين هو العمر الذي تعودت النساء إخفاؤه، لكنها لا تخفي شيئا، من حبها للجمال لا تحب مواد التجميل، من البديهي ان ينسجم برج اللبوة مع برج الأسد، هذه هي فرصتها، شاب فحل لقطة، لحم عربي طازج ورخيص، مجرد كليشيهات نمطية عن فحولة العربان، لم ينتصب قضيبي لكنه ريقي الذي تحلب بسبب الحنين للخمرة:

... بِصحتِك، ناذدروفيا لنشرب نخب حياتنا التعسة، ليس الوقت وقت تراجع، عندي ضعف خاص تجاه خمور الميدي، ضعف بمعنى العطش، إنني صائم منذ تلك الرؤيا السوداء، الأرض دارت حول الشمس دورة كاملة وأنا عطشان...
فتحتْ قنينة سميرنوف فاحتجيتُ عليها شكليا، وأصرّتْ هي أن الفودكا أنجع معالجة طبيعية للإحباط:
"أتَشُكُّ في حسن نيتي يا رام؟"
... معاذ الله يا ست نادين، كل ما في الأمر أن هذه الفودكا اللعينة تذكرني بزعرنات مُشْتركة مع يانوش، كما ترجعني لأيام زمان، لعامَيْ طيش قضيتهما في بلاد الصقالبة، كنت مبتعثا أدرس هناك في خمارات وارسو، أسكر كل ليلة حتى آخر حانة مفتوحة، فليس فقط ما يجمع بيننا هي فلسطين التي تسمونها يسرائيل، بل أيضاً بولندا التي نسميها ليخستان، هناك حيث ولد ومات جدك حاخام مدينة لوبلين...
فكرتُ بهذا وبلعتُ رشفة أخرى من الفودكا، ازدريتُ ريقي وشعرتُ بحريق في أحشائي، أطفئتُ النار بجرعة ثانية والقوالي يشطح [مولى علي مولى] والكلب جازي يلعق يدي، وهي تلح عليَّ بالكأس الأخيرة، الكأس ما بعد الأخيرة، قعدنا نخمر ونتجاذب أطراف الحديث، سرّها كثيرا إني أكره كرة القدم واعتبرتْ هذا من علامات الرجل الحقيقي، اعترفتْ أنها تحب العرب لأنهم بدائيون. هل هذا إعلان حب أم إعلان حرب؟ هؤلاء اليوبان في مناوراتهم اللغوية. هو كان يقول لي ما ينقصك هو العمل (ويقصد السخرة) وهي تقول لي ما ينقصك هو الحب (وتقصد السكس) تريد ان تستفرد بي لإطفاء حرائقها الشبقية، كيف أرضع من الذئبة دون ان تعضني؟ كيف أستوعب الدرس الثاني وأنا لم أستوعب الأول؟ على العموم فإن الهوانم النواعم يشعرن بنكهة حريفة مع البروليتاري الجردي، فالنكاح أرقى شكل من أشكال الصراع الطبقي، الخيانة الزوجية هي الحد الأقصى الذي يمكن أن تبلغه البورجوازية في انحطاطها، ارتباطها به لا يعني انها مربوطة في عصمته في زواج كاثوليكي، قلب المرأة قابل للتوزيع على رجلين وأكثر، كيف تتزوج جنديا واحدا البنتُ التي تحب الكتيبةَ كلها.

الطلعات البرانية ضرورة لتخطي الرتابة الزوجية وذلك انطلاقاً من فكرة أن جسد الإنسان يحتاج إلى أكثر من جسد، تخيلوا إنسانا (إنسانة) يأكل أطيب طبق في العالم، يأكله كل يوم (كل ليلة) في آخر المطاف سيفقد الطبق نكهته، صديقات المدام عادة ما يشهقن برعشة كاذبة لإسعاد أزواج خربانين، لكن المدام ترفض مهزلة تقديم ذاتها قربانا على مذبح الذكورة، تصر على أنوثتها التي هي نقطة قوتها وضعفها، وتصر كذلك على رغبتها في الانتقام من زوج مخادع، وهذا ما يقرِّبْ بيني وبينها، إننا مخدوعان وعلينا ان نخدع خادعنا، هو يخونها مع زبونة أشب منها، وهي تسعى لتخونه مع زبون أشب منه، ومنها، واحدة بواحدة، مسيو ومدام يعيشان معا كصديقين عتيقين متمسكين بعرى الملل ، ويتبادلان الخيانات الزوجية كالأنخاب (تصير بأحسن العائلات) هذا الصباح وأنا أكنس العيادة لمحتُه بصحبة عشيقته وذهلتُ من شبابها، هل هي زوجته أم ابنته؟ من يراني الآن معها يتساءل هل هو زوجها أم ابنها؟ دزينة سنوات تفصل بيننا وفوارق طبقية، حين فتحتُ الجريدة على صفحة الأبراج الفلكية قرأتُ "ثمة لبوة بانتظارك يا أسد " الحب، هذا الشقاء الرائع حلو في بداياته فقط، الحب هو المُطْلَقْ في متناول الجراء[29]، كانت تبحث عن طمأنينة وحيدة في الحب والآن تريد هدم المتراس الوحيد الذي تتمترس خلفه، إنه قلق الأربعين الذي يسمونه أزمة منتصف العمر، في عمر مفصلي كهذا يملك الجسد الأنثوي عقلا خاصا به، ولستُ وحدي زبونا للتحليل النفسي، المحللون النفسيون بحاجة لمن يحللهم، الفاميليا شيكل تزور ثلاث أطباء نفسيين، واحد لها وحدها، وثانٍ له منفرداً، وثالث لهما الاثنين مُجتَمعيْن، وكل هذا لأن اللبوة لا تنسجم مع الضبع، أهملها يوم عيد الحب ولم ينفحها بوردة جورية، يفضِّل الكُرَة عليها، حبه للكرة مقياس كرهه لها ، حين لا يذهب لملعب بارك دي برنس يسترخي أمام التلفاز ويمد رجليه على الطربيزة، بوجهها (كما يفعل معي) يفرض عليها الصمت وحالة الطوارئ، يكرع البيرة وهو يشاهد الصبيان ال22 يركضون وراء شيء

[29] الحب هو المطْلَقْ في متناول الجراء " اقتباس من سيلين

جلدي مكور، PSG هو ضرتها، إذا فاز على مرسيليا يتحول البيت إلى نعيم واذا انهزم يتحول البيت إلى جحيم...
حدثتني عن باكورة علاقتهما قبل أن تتخرب وينامان في سريريْن، ناولتني رزمة من رسائل الغرام لأقرا لواعج قلبه، حب(ر) على ورق، رسائل الغرام الأولى للعشاق تشبه البيان رقم واحد للانقلابيين، أكاذيب من طراز بالشعب وللشعب، بالحب وللحب، الحب مش أبدي لكن الأشعار التي تتغنى به أبدية ، رسائل الحبّ إن كان هناك حبّ، لابد لها أن تكون سخيفة[30]، هكذا انتهى شهر العسل ليبدأ شهر البصل، احتضر الحب إلى غش ميكانيكي، je t'aime ; moi non plus[31] الحبّ ان لم يكن مهدّدا من هذا الطرف أو ذاك فهو مهدد من الطرفين، بعد 14 سنة، بعد خمسة آلاف يوم من تناول طبق البصل اليومي صارت المدام بلا شهية وبلا اشتهاء، لكن وجود شاب عربي ذكرها بأنوثتها التي كادت تنساها في تقادم الزمن .
صبَّتْ الفودكا في قدحي فذكرتها إني أبلع أدوية.
" سحقا للأدوية، هوِّن عليك بلحظة أُنْسْ يا رام، إذا داهمتْكَ الحياةُ فعشْها كما هي، عالج الوهم بوهم آخر"
المدام بالكاد تؤمن بفاعلية البروزاك وتؤمن أقل ببرشامة إكس 3 بتاعة زوجها، بالمقابل فهي تؤمن بالشفاء العاطفي والتيرابي العرفانية، العلاج السكسي، فاجئني برموزها البسيطة، بوجعها البورجوازي، وهاهي تفاجئني بشبقها، أعلنتْ إنّها من أنصار السلام وهي تفرج فخذيها وتكشف عن كيلوتها الأحمر... حقا يا سيدتي، علينا بالحب لا بالحرب وأزيدكِ من الشعر بيت، السكس توليفة ممكنة بين الحب والحرب، هو التعبير المباشر عن غريزة الإنسان واندفاعاته وشهواته، (لهذا يكثر المناضلون الفلسطينيون في مواخير تل أبيب) السكس هو كل حياتي لولا إني خربان، مشلول النصف السفلي، وحتى العلوي، مشلول كليا، الوحش سرق مني زهرة شبابي، وشرِّش في البتاع فجعله رخوا مرخيا، إنني

[30] رسائل الحبّ ... لابد لها أن تكون سخيفة " من بيسووا

[31] لعب على الكلام بالفرنسية وترجمتها أحبك وأنا كذلك أكرهك

محبط أكثرَ ممّا تتخيلين، رغم شبابي فأنا أكهل منك، أنا رجل ناقص رجولة، مهدّم معطل مفككفك، مفلس جسديا ومعنويا وعاطفيا ووجدانيا، وممنوع من الصرف سكسياً، الإحباط مؤشر للعلاقة المتشنّجة مع الحياة، برود جنسي، انقباض، انعزال، حريق جواني، كدرْ، انحدار، الوقوع فيه يعني أن تكون (ي) عند الدرجة الصفر من الوجود...
وأغْرقتُ عاري وأفكاري الخرساء في المشروب بينما أسندت مدام بوفاري الحزينة رأسها على صدري، أصبحت عيناها حالمتيْن بطريقة باتيكية:
[32] . Je crois que je t'aime"
النساء عادة حين يبحن باعتراف خطير يتوارين بأبصارهن عن وجه المعشوق وينظرن إلى الفراغ ، إلى أعماق ذاتهن ، ولكنها نظرت في بؤبؤ عيني وهي تقول ذلك ، وتفاجأتُ بهذا المقدار من الكلام الناعم ، أنا المُشْ شبعان حب وحنان، يا غارة الله ويهوه! للقلب شطحات لا يدركها القلب ذاته، الرجال بارعون في التنظير، النساء في التنفيذ، عندها فائض من فيتامين ح ، تحبني ولا مراء باسم ما يربطنا من حقد أبدي، بنفس الطريقة التي تحب بها كلبها جازي، تحمله على ذراعها كإكسسوار طوطمي وتداعب خشمه، حب كلاب عابر للأعمار وللأديان وللأحقاد، أحبتني من طرف واحد كما أحببتُ مريمَ المغربية، رف قلبي لها في بوبور دون ان تدري، كتبتُ لها خربشات وسميتها شعرا، وحين أقرأتها إياها نفرتْ مني، لا عدل ولا اعتدال مع جنس حواء، في الوقت الذي ملئني الوحشُ امتلأت المدام بي، حين كنتُ واقفا على رجلي عز عليَّ الحب وإذ سقطتُ أحبتني يهودية، الحنان مقابل السكس، أظنها تظن إنها تحبني، لستُ واثقا من ظنوني وليستْ واثقة من حبها ، وأوشكت أن أقول لها "أرجوكي أنتِ هكذا تجبريني على ان أقول لك "أنا أيضا أحبك" ، لكني لا أحب بسهولة ولا أدع أحدا يحبني بسهولة ، ديسيدامان، أنا فارس أحلامها وتشتهيني ليس برغم الفوارق وإنما بسببها، خيلاء الحب لا يعلى عليها، بعض

---

[32] أعتقد اني احبك

الصوفيين يعشق ولا يدري من هو المعشوق، ثمة نساء يغرمن بمصاص الدماء، ومِن الأطفال مَن يقع في غرام الدمية، وهي خليط من كل هؤلاء المهابيل وتريد أن تهب جسدها لرجلٍ دُونٍ من باب جَبْر الخواطر، أنا البوي بتاعها ، شماعة أهوائها المتقلبة، تحب انكساري، أليس حقا ان المرآة المكسرة تساهم في ترميم الوجه، أليس حقا أن مخدع الخيانة الزوجية هو المكان الوحيد الذي يجمع الأغنياء والفقراء، حسمتْ أمرها بين زوج لا يحبها ورجل تحبه، أن تكون محبطا وبلاي بوي يعني أن تمشي في حقل زهور مزروع بالألغام، أين نقطة التوازن بين مونسنيور ومونآمور؟ بين طبيبي وحبيبي؟ بين الصقور والحمائم؟ بين الدجاج الديوك؟ هو مبرمج للأخذ وهي للعطاء، وأنا هو القبان. هو يؤمن بواجبات الإنسان وهي تؤمن بحقوق الإنسان، وأنا هو الإنسان. هو مصاب بالعجز الجنسي وهي مبتلاة بالشبق الجنسي، وأنا بيضة القبان. هو يهودي ديوث وهي يهودية خائنة، وأنا الغوي. هو يكرهني لأني فلسطيني ومحبط وهي (لنفس الأسباب) تحبني، المكتئب يثير الخيال كالقرصان، بعضهم يظنه مجرما، بعضنا الآخر يحسبه بطلا، كم كان شيكل ماكراً حين زج بي في متاهة [العلاقات الخطرة [33]] لنغدو ثلاثتنا كأبطال مسرحية [الغرف المغلقة] يواجهون معضلة كونهم ثلاثة، لو كانوا أثنين او أربعة لأمكن ان يؤلفوا زوجا او زوجين، انما مع عدد مفرد سيبقى عصفور فالت ويسمم حياة الآخرَيْن، خبيبي رام، روميو، قيود الزواج جد ثقيلة لدرجة انها تحتاج لشخصين لحملها وأحيانا لثلاثة ، من الصعب تصنيف هذه الخائنة في خانة ما، خيانتها له مش مسألة أخلاقية بل مسألة تفاهة، غاية التفاهة ،لم تحب شخصي بل أحبت حالتي، أحبت فيَّ قوة الضعف، إحباطي وجذوري الطبقية، المخصي هو خير من يفهم النساء، القادرون على الكراهية هم أجدر الناس بالحب، وعد بلفور غرامي، فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وهي أنثى بلا ذكر لذكر بل أنثى، ألم يختار إسكندر المقدوني عشيقته روكسانا من بين ألد أعدائه، في كلمة

---

[33] عنوان رواية ل شودرلو دي لاكلوس/ الغرف المغلقة مسرحية لسارتر/ ديسيدامان = قطعا

إحباط يوجد حب، ويوجد جلال الشجن، الرجل المجروح يغوي المرأة بجرحه، هذا ان لم يغوها بفارق السن ، يحدث غالبا، لا في روايات عبير بل روايات ستندال ونابوكوف ، الحبّ الحقيقي هو ذاك الذي يكون فيه بين المحبّين نوعا من اللامساواة، المرأة دائما تواقة إلى سلب من تغدق عليهم، مثل هذا المكر ينشأ من عزلتها[34]، مدام دي رينال [35] لا تستطيع ان تحب الا نفسها وعالمها الضيق الحميم الآفِل، لوحاتها، فنها، البيانو بتاعها، حيواناتها الأليفة، شمس أصيلها الغاربة خلف السين، سلالتها العريقة الآيلة للانقراض وصور أجدادها المعلقين بالجدار، متحف للهولوكوست تفوح منه رائحة تاريخ عطن ومكرس للوجوه العتيقة والذقون الحاخامية، هي من ضمن هذه التحف قطعة ثمينة لأنها وحيدة، لكن نهاية عالم الأجداد لا تعني نهاية العالم، وهي على أي حال ثمرة لم يحن قطافها، رغبات مؤجلة، ليس هو ضميري الذي لا يطاوعني بل ضموري وقصوري عن الحب ، قلبي مشغول عنها بالوحش الذي لا تعرف معناه..

وقررتُ ألا أصحو أبداً، صرتُ أنا من يشجعها:

" صبي من هذا العصير السحري واسقيني ، في القلب ركن ناشف لم يرتو بعد"

نظرتُ للتحذير المكتوب على بطن البطحة (الإفراط باستهلاك الكحول يضر بالصحة اشربوا باعتدال) كرعتُ بإفراط من فم البطحة، شعرتُ بتجويفة هائلة بمعدتي، تقيأتُ عليها وعلى كيلوتها الأحمر على الحب وعلى رسائل الحب، ثم فتحت الباب لأتنشق الهواء خرجت ولم أعرف طريق الرجوع.

---

[34] المرأة دائما تواقة ...، مثل هذا المكر ينشأ من عزلتها اقتباس من نيتشه / ناذدروفيا يشتة راز من البولندية وتعني بصحتك

[35] مدام دي رينال من شخصيات رواية ستندال، الاحمر والاسود وتعشق شابا صغيرا

أبو لهب وعشيقته ليئة حمّالة الحطب

عادةً حين يدخل ذئب بين الكلاب فإنها تنسى بعضها وتنبح ضده ولكن شيكل جعلنا أنا وبلدياتي ننبح ضد بعضنا، استغرب عبد السميع علاقتي بيهودي، ولم أستغربْ هذا الاستغراب من مُطَوَّعْ تعود ان يلومني على أقل من هذا بكثير (كمطالعة برجي الفلكي)، إذ دخلتْ المدام على الخط، زاد غيظه وزقزق بلهجة موتورة:
" يهودي نص مصيبة، أما يهودية فمصيبة ونص"
قلتُله:
" المدام حرة مُشْ حرمة، ولأنها حرة أحبّتني"
عوج فمه بطريقة ساخرة وزعق بدينامية اليهودوفوبيا التي تتغذى من نفسها:
" يا خبيبي يا خبيبي. روميو وجولييت عربي/ عبري. نحن واليهودي لا ننام بسرير واحد، والله لو طلبتْ مني قول لا إله إلا الله ما قلتها، والله لو غطسوها في العسل ما نحبها، ومهما طبعتْ لن نطبع".
مع النسوان دائما ترجح النية السيئة، المدام في مقاييس عسعس شرموطة لأنها مُشْ بقرة وهابية، يرفضها بالجملة لأنها أنثى، فكيف إذا كانت أنثى ويهودية.
رمقني بعينين امتزجت فيهما الإدانة بالصرامة الوهابية:
"إستحي شوي نحن نتظاهر ونحرق نجمة داوود وحضرتك عامل تطبيع مع اسرائيل، تبيع القضية علشان يهودية، تنفر من ليلى لتعشق ليئة، نسيت دير ياسين وكفر قاسم ودم الشهداء ووو؟".
قوميسير الأخلاق، هذا الداحض للحياة، المانع لكل مسرة وطرب وابتهاج، اعتاد على المزايدة في بازار الجعجعة والسجالات العقيمة لدرجة إنّه لو حُلَّتْ القضية بما يرتضيه كل الفلسطينيين لخلق فلسطينا أخرى في مكان آخر، فلسطينيته توليفةٌ عجيبة من مشاعر باتيتيكية مع جرعة حماسة مركَّزة مع شوية بداهات خادعة، التزامه بالقضية حجاب يحجب عنه ذاته، طيب أنا مالي ومال القضية. أنا مملوء بنفسي حتى الفيضان ومشغول عن

الحماسات المُشْتركة بإحباطي، في مجال الطعرسة[36] أنا متقدم على زمني بعشرين سنة لكني في مجال الوطنجية متأخر بثلاثين سنة، من علامات وطنيتي المتدنية عجزي عن تمييز علم فلسطين عن علم السودان، أنا فلسطيني من نوع خاص جدا جدا، لم أتبرع البتّة بدمي (زمرتي الدموية تأخذ من الكل ولا تعطي إلا لنفسها)، الكوفية المرقطة التي يضعها حول رقبته أربطها أنا على خصري، بينما كان هو يتظاهر في المناسبات القومية الكبرى كنتُ أدلف إلى سينما السكس، وبعدين شو يعني 250 ضحية بدير ياسين. أقل طوشة بين الصعايدة تزهق نفس عدد الضحايا، في صبرا وشاتيلا قتل الكتائبيون أكثر من هذا بعشر مرات، في مجزرة حماه فتك البعثيون بمئة ضعف هذه العدد، ما يفعله صدام بالعراقيين أكثر بألف مرة، وحشيتهم تجاهنا لا شي أمام وحشيتنا مع بعضنا...
ظل يشبح بصوت كصوت الطبول، اتهمني بتشويه صورة الإسلام (وكأن الإسلام صفحته ناصعة) اختلف معي (كأننا كنا متفقيْن) فتح جبهة على حسابه وأدخلني في متاهة الحق والحقيقة :
" نسيت القضية ، القدس ،الأرض المقدسة، ومهبط الأنبياء وقبة الصخرة وثالث الحرمين ، وووو"
... ها قد أرجعني لحائط المبكى الفلسطيني، لكني في الأساس لم أتذكر وجود المقدسات حتى أنسى، كله عندي مدنس، اذا كنا أصحاب الأرض بعد 637 سنة بعد الميلاد فهم أصحابها قبل أربع آلاف سنة قبل الميلاد، يظن عسعس ان على الفرد نكران فرديته لتكريسها للجماعة، هراء. الجماعة لا تحتاج لِإمعات بَني وي وي، وقناعتي أنّ الفرد هو أساس الجماعة، مدام ليئة أيضاً عندها قضيتها لكنها لم تشهرها بوجهي بل شهرت البيانو واللوحات وكيلوتها الأحمر، وبينما رأيتُ في بيتها مكتبة عامرة بالكتب تمتد من الأرضية حتى السقف فقد رأيت في بيته كتابين فقط (تفسير الجلالين وتفسير الأحلام) بئس القضية التي لا تتيح للفلسطيني مجالات أخرى سوى المناضل الإيجابي والشهيد والبطل الملتزم الجذري والثورجي والغيرجي، القضية مُشْ زوجتي لأتهم

---

[36] عامية وتعني الانحلال الخلقي

بخيانتها، وإن خُنتُها فلدَيَّ دائما مبرراتي، وبحسبي فإن الاحتلال الوهابي أخطر بكثير من الاحتلال الإسرائيلي، أنا قضية القضايا، أنا مصاب بكل أمراض المدن لكني بريء من نقاوة الثوار، أنا ماركة مسجلة برسم المفارقات، أنا طليعي برفضي للطليعية، أزعر بين الأوادم، شيعي بين السّنة، خارجي ضمن الشيعة، داخلي مع الخوارج، لأني لستُ بطلا أحاول أن أبدو باطلا، لأني لستُ مهما أحاول أن أبدو كأني لست مهتما، جدلي محتدم مع هويتي، مع التباسات هويتي، لا أنكرها ولا أقبلها، كونك بلا هوية رسمية هو بحد ذاته هوية باطنية، يعني أن تكون مثل الخوارج والبدون والغجر واليهود والمنبوذين الهامشيين، وهذا يناسبني من جهة، عسعس يظن إن من يفقد وطنه يفقد حريته بينما أظن أن الفقدان حريةٌ وأن الحرية بحد ذاتها وطن داخلي حميم، اللاإنتماء ينسجم مع فوضويتي ويزودها بمزيد من اللاءات النافية للواجبات الممجوجة، لا ارتباط بأرض، ولا انتخاب، ولا خدمة علم، ولا نشيد وطني تضع يدك على قلبك أثناء عزفه، أن يكون المرء بلا وطن يعني أن يكون حراً في أن يحلم بوطن خيالي (ولهذا لم أطلب جنسية فرنسية بل ألومه لأنه تجنس بها) أنا حج معارِض ولا أتموقع بمحض إرادتي بل نكاية بالأغلبية، لا أؤمن بألّلاه ولا بمقدساته ولا بمعجزاته (خاصة معجزة طيران صلعم على حماره من القدس إلى السماء) لا أؤمن بشيء لذا أحتاج لامرأة تؤمن بي...

قلت له بلساني :

" إرحمني يا زلمه كرمال[37] طيز أللاه، يلعن رب القضية شو هي وقفت على زب رمضان. ما عندك ملكة جمال اسرائيل أسمها عبير، وعندك نصف لاعبي منتخب الكرة الاسرائيلي اسمهم أحمد ومحمد، وكثير من المجندين في تساحال يسمونهم نعيم وبهيج، ثم ان من تسميها ليئة هي إنسانة حرة فهمانة وواعية ترسم تقرأ تكتب تعزف على البيانو، بينما ليلى بتاعك حرمة مكرسة للمطبخ والنميمة والتفقيس والأرنبة ومُشاهدة المسلسلات المدبلجة "

---

[37] اضغام كرمى ل / علشان = على شأن

احتدَّ وارتسمتْ على وجهه سيمياء المُطَوَّعَة المحتسبين :
" كول خره أبو لهب، علماني تتبع قاسم أمين ولا تتبع أبو القاسم الأمين، انت نفسك موساد طابور خامس "
هكذا رمى علي اتهاماته وآرائه القطعية، لعن أبو اليهود ، أحفاد القردة والخنازير، ولعن جنس حوا اللي طلّعتنا من الجنة عَلَشان تفاحة، تقوَّل عليَّ حتى انشغل عن تفلية لحيته من القمل، لا يستطيع ان يتخلص من وهابيته، يستنتج من كل حدث أسوأ من يمكن استنتاجه، قال ولم يكن يمزح:
" أحلق شنبي اذا ما كانت جاسوسه للموساد، زوجها جاسوس، وأمها أيضاً جاسوسة متقاعدة، شيكل تعلبْ يستعملَكْ لغاية بنفس جاكوب، يصورَكْ معها في لقطة إباحية لِيَبْتَزَّك "
لم أسأله عن غاية الموساد من ابتزاز مكتئِب مثلي لأني أعرف إجابته الجاهزة " الغلابة من أمثالي قناة سهلة للتجسس على المناضلين من أمثاله " أعرف منطق سمعان عبد المجيب قبل ان يجيب، لا يستطيع ان يتخلى عن أفكاره المسبقة بخصوص اليهود، يكرههم كرهَيْن، لأنه دون مستواهم ولأنهم فوق مستواه، عقدة نقص تقابلها عقدة تفوّق، يتخذهم شماعة مشجب لكل خيباته، لو يدري هذا البدوي الجربوع ان الفضل يعود لليهود الذين فتحوا له أبواب أوروبا وخلصوه من رعي الأغنام في صحراء النقب، لو يدري أن إسلامه برمَّتِه دين كاشير مستعار من اليهود، إن المسيح بذاته يهودي، وبرهومة كذلك الحال، ومن قال أن الله ليس يهوديا؟ قرآنه مكب لنفايات التوراة، يكره اليهود ويعبد إله اليهود، تناقضات، تناقضات، هو نفسه كاشير متنكر في زي أفغاني، أراني بعض الأحيان وأنا أتجول بحي بلفيل عاجزا عن تمييز مسطرة يهودي من الحاريديم عن مسطرة سلفي من الوهابيين، نفس مساطر رجال الكهوف، والكل متعصبون على طريقتهم الخاصة، يتشابهون بأدق التفاصيل، القبعة المخرمة على الرأس الفارغة، الذقن المرعبة، الظلامية الشاعة من عيون بائسة، الوجه المكشر خوفا من ألّلاه /يهوه، كان بِودي ان أقول له كل هذا، لكني فقدتُ جرأتي القديمة في محاججته، من فوائد التعصب الوهابي انه لا يسمح بالنقاش مع الوهابيين...

شعتْ عيناه ضغينةً وتبرمتْ شفتاه اشمئزازا:
"إحكِ الدغري، هل طلبتْ منك ان تتجسس علي؟ إياك ثم إياك تكون أعطيتها تلفوني أو عنواني. "
البغضاء أحياناً تحول التافهين إلى مُهمين، لا يستطيع ان يتخلى عن فوبياه وعظمته ، يظن أن البوّاب يتجسس عليّه ويراقبه، ويظن أن هاتفه تحت التنصت، لا يتخلص من عقدة وعقيدة المؤامرة
قعد يجتر الكلام المعتاد، يرصِّف كلمات كبيرة لمعان صغيرة ويكرز نفس العبارات السمجة، حَدَّ عليَّ حد الزنى (رغم اني لم أفعل شيئا معها) ثم فجأة فوجئتْ به وهو يلطّف لهجته:
" اسمعني يا بلد، سيبك من اليهودية الكاشير، قريباً نشوف لك عروس مسلمة منقبة عذراء"
هكذا هم الصلاعمة يفضلون السيارة جديدة لَنْجْ من الوكالة ومُشْ مركوبة، انما ألّلاه يسترنا من المنقبات فهن غالبا ما يكن مستهلكات من الخلف او من الجهتين ويموِّهن على العذرية بغشاء بكارة صيني مصطنع.
رحتُ (بخبث شديد) أصف له صدرها البارز ومؤخرتها المثيرة وردفيها وهما يطلعان وينزلان حتى حرقت قلبه بالحرقان (ما أكثر ما يتفنن العربان (وأنا أولهم) في الكلام عن النيك وما أقل ما ينيكون) فتحتُ الباب واسعا أمام الهوس الإيروتيكي :
" امرأة جذابة مغوية مغرية فاتنة مختلفة فخمة شاهقة ، امرأة تنسيك بقية النساء ، بس أنت لو شفت المعركة بيننا، نكاح نوعي على ألحان السيكا والنهاوند، اقتحمتُ القدس على غاصبيها، دخلتها دخول الفاتحين، كسرتُ عينها وعين الأشكناز والسافاراد، تصرفتُ بها تصرف المنتصر بسباياه "
شط ريقه وتحول تنفسه المنتظم البطيء إلى لاهث سريع، وحفل وجهه بالاستنكار والشبق، مرَّق لسانه بين شفتيه دمدم بنبرة وهابية :
" أعوذ بالله من خارمات المروءة، باطل عليكي يا يهودية. أين الرجل بتاعها. أين القوامة وحدود الله؟"
قلت له بخبث أشد :

" زوجها خربان لا يكفيها، وهي أساساً أخذتني بدلا عن ضائع، حتى أنا لا أكفي هذه المستورة المبتلية بمرض الشبق، كيف تكتفي بجندييْن البنتُ التي تحب الكتيبةَ كلها. "
أصبحت عيناه جمرتين، شمشَم بأنفه الذي لا يخطئ رائحة نكاح ممكن، تشنجت الزبيبة على جبينه في متعة التخيل واستيلاد اللذة الجنسية، ولم يَقْوَ على أكثر من الحرقصة، نشل سيجارة من علبة دخاني ودسَّها بفمه وأشعلها (أول مرة ينفخ) قح، شع في عينيه ذلُّ الاشتهاء، خرج كلامه على شكل توترات شبقية:
" هاليهودية خطر عليك يا بلد، لازم تبعد عن طريقك، أنا بنفسي سألزمها، أعطيني تلفونها، أعطيها تلفوني "
...هكذا تحول العبد السميع إلى عبد الفرج، لم تعد المدام من الغزاة المحتلين بل صارت سبية أو ضجيعة محتملة، كما يحق لجاسوسة الموساد أن تنام مع فلسطيني علشان إسرائيل، يحق لعسعس أن ينام مع يهودية علشان فلسطين، فلسطين وإسرائيل (بالمعنى المجرد) وطن واحد، وعندما يكون الحديث عن السكس فكل الناس على دين واحد، السياسة تفرِّقْ والإير يجمع، كل هذه الأمور إغواءات، كل هذه الأمور انحرافات، لكنها ليست زنى بالمعنى الحرفي لكلمة زنى (الذي لا يكون إلا مع مسلمة محصنة)، الزنى بتاعي كبيرة من الكبائر أما الزنى بتاعه فصغيرة من الصغائر، هناك الجهاد الشرعي في سبيل القدس وهناك الجهاد الشرجي في سبيل الكس، فاللاه والكس وجهان لميدالية واحدة، يجب وضع أخلاق عسعس بين قوسين فهو لا أخلاق ولا يحزنون، أمة لا إله إلا الله، من فوق ما شالله ومن تحت يبعت الله، نسبتي إليه هي نسبة التّمساح إلى الديناصور، تعوَّد أبو الخطايا الكبرى أن يتجسس على أخطائي الصغيرة، وعندما يُكثر الحديث عن الأخلاق فهذا مؤشر على أنها في طريقها إلى الزوال، هذه قضية مفروغ منها، علاقته بالأخلاق مثل علاقة شيكل بالطبّ، أعرفه باطنه وظاهره، مهما تلون أكشفه بأشعة ما تحت الحمراء وما فوق البنفسجية، لا يخدعني تشدقه بالفضيلة فهو يموِّه على رغباته المقموعة بأخلاق متقنة الرداءة، حافظ الدرس من صلعم مثال الخيانة الأعلى الذي سرق زوجة ربيبه وأعز الصحابة، هذا المسخ المتحرق

بالشهوات، يجمع في داخله الكبت والشذوذ الباطني والتناقض، يكره الواقع كرها غريزيا، يكره النساء لأنهن لسن ذكورا، ويكره اليهود لأنهم يهود، ويكره نفسه لأنه مكبوت، لا يهضمني لأني أفضحه براديكالية أفكاري، أنا بعينه مشبوه بإلحادي، بفردانيتي، بإحباطي، بمعرفتي بعائلة يهودية، بإنصاتي لجماعة شهود يهوه، يريد إقحامي في بازار الدين والتديّن لأكون نسخة مكررة عنه، قسَّمَ الناس قسمةً مانوية إلى كفّار ومسلمين، وأبطال وخاينين، قاطع الكوكاكولا لكنه ما زال يلبس سروال ليفي شتراوس، ولا يغرني انه درس في السوربون فهو في العمق عقلية أول ابتدائي، يجهل حضارة اليونان وما فيها من فلسفة وفن، ويجهل حضارة الرومان وما فيها من سياسة وقانون، يفقه حضارة العربان وما فيها من حلال وحرام، باريس لن تغيره لكنه هو وأضرابه يمكن أن يحولوها إلى قندهار أخرى، لم يكن متزمتا لهذه الدرجة في بداياته، هما صدمتا الغربة والغرب اللتان صلعمتاه، ككلّ الشرقيين البدائيين حينما يطئون أوروبا ينبهرون ويصابون بقلق الحضارة، يأخذهم الخوف من التغيير ثم يحتارون بين إيمانهم وحريتهم ، لكنهم بأغلب الأحوال يحسمون التمزق الداخلي في ارتداد هوياتي ضيق، اللجوء إلى طمأنينة الدين ثم تالياً المبالغة بالتدين، ما يجمعنا هو الشيءُ المغايرُ بيننا، أنا وهو نؤكد بعضنا في جدلية التجاذب والتنافر، يعزز إيمانه في شكي الديكارتي مثلما أعزز إلحادي في يقينه الصلعمي، يثيره إيماني المفقود، يصر على إرجاعي إلى الحظيرة لتحقيق رغبته في أن يساويني به، ليحاول، ليحاول، من الأسهل أن أصير يهوديا من أن أرجع صلعميا، الإسلام يضم مليار درويش معتر فلا يحتاج لواحد إضافي، دائما أتصبح بهذا الصرصار في بوبور، يحرق دمي بغبائه، يفرغني من أفكاري، يدخلني في نقار متواصل ومهاترات جانبية ، "كيف لا تصوم واسمك رمضان؟" أنا اسم على غير مسمى، إنسان أولا ومسلم بالصدفةً، هرطيق بالفعل، فلسطيني بالوراثة، محبط بالإرادة، مفرد بوجه الجماعة، أنا (ولله الحمد) أكثر الملحدين إلحادا، وإن سقطتُ فلأني منسجم مع تناقضاتي، سقوط الإنسان أمر طبيعي كسقوط الحجر من أعلى إلى أسفل ولا ينأى بنفسه عن

السقطة إلا من لا يسمو، لماذا سقط سور برلين ولم يسقط سور الصين؟ لماذا سقطتُ أنا ولم يسقط هو؟ سُمْعة كائن خام جردي مقتنع بغرارته، بتياسته، لا يعرف الاكتئاب إلى قلبه سبيلا، لا تشغله انشغالات وجودية، لا يخرج البتة عن إجماع الجماعة، بالجملة فهو يعرف أمراض الجسد ويجهل مرض الروح، يتخاصم مع خصمه لا مع ذاته، ليس عنده أي وعي بذاته حتى يكون عنده وعي بانشطارها، ولا يتجاوز ذاته لأنه لاذاتي، شخصيته لا تقبل القسمة على اثنين لأنه معدوم الشخصية، حياته ماشية على وتيرة واحدة (صَلِّ، استهلكْ إخرسْ) لا يكتئب لتحصنه بالقافات الثلاث (قرضاوي قرآن قطيع) الإسلام رسم له حدودا لا يتعداها، حاجاته الفسيولوجية تتوقف عند بطنه وقضيبه ولا تصعد أبداً إلى الرأس والقلب..

راح يتحسس عضوه المنتفخ تحت السروال، وهو يصرَّ عليَّ لأفك ارتباطي بالمدام ليرتبط هو بها، اذ رفضتُ ان أعطيه هاتفها، أصر أن أرافقه للمسجد حتى يشفيني بآية الكرسي، كظمتُ غيظي، وما لم أجرؤ على قوله بصوت عال علكته مع نفسي بصوت خافت

... ألّلاه بتاعك، وآياتك، ضعها كلها في جورة القاذورات وشِدْ سيفون الماء عليها....

ومن الفودكا ما قَتَل

مشيتُ بحذر فوق الثلج المكدس على الأرصفة، دخلتُ حديقة الشاتليه واقتربتُ من شجرة الماغنوليا فرأيتُ باقة زهور طازجة مربوطة بمسند المقعد عن روح يان لفوفسكي، رميتُ إعلانات عيادة شيكل في الزبالة وهرعتُ نحو ربيئة الناطور، رآني فيلكس فسارع يرسم إشارة الصليب على صدره وأخبرني أن يانوش مات من البرد، وجده البارحة ممددا على المقعد ذاته بلا حراك، أخبرني إن مراسيم الدفن ستتم في الكريماتوريوم، شَعرتُ بدبيب جنازة في دمي ، الآن سيتعطل عداد بوبور الالكتروني ،فالعد لا يكون الا بالزمن والزمن يتوقف بالموت كنتُ أتأثر بموت الجوعى في مجاعة الحبشة، بموت الشهداء في المعارك، بموت الأبرياء في الزلازل، ولكن كل هذه ميتات مجردة لم تمزقني كما فعل رحيل البولندي، كان صديقي ولعله كان صديقي الوحيد كلانا هارب من البؤس ، هو من بؤس الشيوعية وأنا من بؤس المخيمات ، أهله اقتلعوا من لفوف من شرق بولندا ونفوا إلى مدينة شتتشين بأقصى الغرب، وأنا أهلي اقتلعوا من شمال فلسطين نفوا إلى شمال لبنان ، العدم (دائما هو) كالهباء يجيء على حين غرّة مثل الشاب القاشوش في لعبة الباصرة يقش كل شئ، هكذا يصطدم الإنسان الحقيقي بنهايته وينتهي إلى لاشيء، جاء وذهب دون أن يزعج أحدا، كان يحس بدنو أجله لذا صار يتردد على الكنيسة البولندية ويغني بوغورودجيسا، هنا رأيته آخر مرة، كان متعبا كأنه بوذا يعاني في ساعاته الأخيرة، كان قد سألني عن العالم الآخر فقلت له : "كيف تريدني أن أفك رموز الموت وأنا بعد لم أفك شيفرة الحياة" كان يرفع بصره إلى تمثال القديس يعقوب ويقول لي إن بنيته أن يحج على قدميه إلى مزار القديس نفسه في سانتياغو، لكن القدر (البرد/ الفودكا/ اليأس) لم يمهله...
قطفتُ شتلة شمشاد من تخوم الحديقة وضفرتها قرب باقة الزهور، توقفتُ عند كشك السجائر، احترتُ ماذا أشتري بالعشر فرنكات الباقية بجيبي، تذكرة مترو أم علبة غلواز ، حسمتُ أمري بشراء

التّتن ، تسللتْ بالزعبرة قافزا فوق البوابة، ركبتُ خط المترو رقم 11 إلى مقبرة بير لاشيز، خرجتُ من المحطة وركضت لاهثا نحو المحرقة، رأيتُ سنديانات المقبرة مصطفة على الجانبين كسرادق عزاء، هرولتُ بحذر فالثلج يغطى حتى القبور، لمحتُ القس بيير بوز راعى المُشَردين في كنيسة نوتردام دي بوفر بمسوحه السوداء، سلَّمتُ عليه فهو يعرفني (وكان يحاول تنصيري) وقفنا ثلاثتنا أنا والخوري والدفَّان مثل علامة السباتي، نزع الدفانُ الشرشفَ الأبيض فانكشف جسد يانوش هامدا، عصرتُ أصابع يدي في محاولة لمقاومة الانكسار، لبثتُ أتأمل وجهه الصقلبي الشاحب ، رموشه مسبلة لا ترفّ، على ذراعه وشم الصليب، محزن منظر الرجل وهو يرحل وحيدا ويشيّعه شخصان فقط (عِلماً أن الفضوليين يتوقفون بالعشرات لرؤية ممثلة تتسوق)

بحذر، بحذر اقتربتُ منه وفكرتُ ان أمد يدي فألمسه...هل حقا مات؟...

ارتجفتْ يدي فسحبتها وخبأتها راء ظهري. لا يمكنني القبض على الموت، أستطيع فقط الاقتراب منه، الأشياء المهمة على ما يبدو، ترتبط بنا نحن فقط، الحياة تخصنا نحن فقط، الموت لنا نحن فقط هذا ما قالته بنت بلده الشاعرة شمبورسكا.

ألقينا النظرة الأخيرة عليه، بالنسبة للقس بدا المنظر عاديا وبالنسبة للدفّان عاديا جداً، وبالنسبة لي مدهشا، أقيم جناز مرتجل عن راحة نفسه كرّز أثنائه القس بكلمتين عن معنى الموت والقيامة ثم التفتَ نحوي:

" لا تحزن يا بُنَيْ، الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركا "

...للحق يا أبَتِ، فأنا لستُ حزينا وجئتُ فقط بحكم العادة، ولا أظن أن يأسي نابع من غيابه لأني ما زلت حاضرا، ولا أستطيع تصور موته لأني ببساطة ما زلت حيا، وعليه فإن حزني عليه هو قناع يخفي حزني على نفسي، منذ طفولتي كنت مولعا بالمُشاركة في المآتم، كان بيتنا في المخيم محاذيا للجبانة والجامع، كنتُ أحياناً أشارك في جنازتين بيوم واحد، كلما بعدت قرابتي عن الميت كلما

شعرتُ برغبة أكبر للانغماس في حزن شخصي على فقده، هكذا أصبح الموت تمريناً يومياً، تره لماذا تلاحقني الآن نذالات الأحياء بحق الأموات؟ لماذا نسي النسيان ان يختم على ذاكرتي؟...
تخيلتُ جثمان ابن خالي مسجى في هولندا، دهسته شاحنة هناك فمات، جاءت أخته وخاله من برلين، جاء أخواه من الدانمرك، الحامولة كلها جاءت وقد لجمتها الفاجعة، قاموا بواجب النواح الفولكلوري على أكمل وجه بادئين بالعويل وشد الشعر مع شوية دموع تماسيح، حين دَفْع الخمسة آلاف دولار اللازمة لتلحيده فقد حلفوا يمينا (حانثة) أنهم مفلسون، يوم الجمعة نفروا بين مساجد المهاجرين في روتردام ودينهاغ فشحدوا من المال ضعف المبلغ المطلوب ثم استنفروا سفارة منظمة التحرير بأمستردام فتكفلت بنقل الجثمان على نفقتها، بَيْدَ أن الأخوة المفجوعين لم يردوا الصدقات إلى المتصدقين بل تقاسموها حول تابوت أخيهم الرصاصي...
أثناء صفنتي الطويلة كان قد تم ترميد جثمان يانوش بسرعة، أُدْخل في فرن الكريماتوريوم طوله مترين وأُخرج قد كمشة رماد، اختفى مثل بحار فاجئه الموت في سفينة بعرض البحر ودُفن في الماء، دقتْ أجراس الكنيسة دقة الحزن وانتهى الأمر، موت الأموات لا ينبغي أن يشوّش على حياة الأحياء، موظف الشؤون الاجتماعية ببلدية باريس أطل متأخرا وأعلن إن الترميد أفضلْ إيكولوجياً، وفهمنا قصده (انه أرخص ماديا). غادر القس مستعجلا أخبرني انه ماض بسيارته إلى أبرشيته في إيسي لمولوينو :
"هل تريد ان أوصلك بطريقي يا بني؟"
" من فضلك يا أبَتِ، لساحة شاتليه"
أمسك القس العجوز المقود بتؤدة وقال :
" الرب يسترنا، آخر نشرة أخبار أعلنتْ أن موجة الصقيع قتلت أربع مُشرَّدين "
نفيتُ من رأسي هذا الافتراض، رجّحتُ لتوّي أنه انتحر بجرعة زائدة من اليأس، البرد تسرب إلى قلبه مع الفودكا،
التفتَ الخوري نحوي وسألني:

" كان صديقك أليس كذلك؟
هزيتُ رأسي بصمت... وي مونسنيور، رغم اني لم أره الا نادرا، فقد كنا صديقين مُشْتركين في عَبَثٍ مشترَكْ، رغم كوننا لاجئَيْنْ سياسيّيْن فإننا أبعد ما نكون عن البولوتيكا، نحن لاجئان كحوليان وحُبسنا مرات معاً في زنزانة التصحية المخصصة للسكارى...
هجستُ بهذا كله ثم فكرتُ ان أطلب منه ان يسلفني مئة فرنك ولكني خشيتُ ان يحرجني (القس بصفته مرشدا روحيا لجمعية eau vive التي ترعى المدمنين على الكحول لا يهب نقودا لأنه يعرف ان هذه النقود تذهب لشراء الكحول) هل أقول له إنني الآن (في هذه اللحظات بالذات) مستعد ان أتنصّر من أجل مئة فرنك. ولتذهب الماركسية والوجودية إلى الجحيم، مستعد أن أَتَهوَّد من أجل قنينة فودكا. لكنه لن يقبل، أعرفه جيدا، يعرفني جيدا، نعرف بعضنا جيدا، سيقول لي " لن يخسر الإسلام بمروقك شيئا كما لن تربح المسيحية بك شيئا...
كبح القس على الفرامل وتخلص مني قرب مقهى مسترال، مشيتُ تائها كبزاقة عمياء، هِمْتُ مهزوما إلى أقصى حد، لفيتُ لليمين ثم لليسار، تراجعتُ إلى الوراء ثم تقدمت إلى الأمام، مغيّبا ومحذوفا ومفخخا بالعدم، أين أفر من سوء الحياة؟ شقائي، إحباطي، لوكسوميلي وبروزاكي، كوابيسي السحيقة، طفري وقلة حيلتي، وهذا الوحش الذي أملى على دانتي صفحات الجحيم ، هذا الهوس الذي يتحكم بي من الداخل ولا يدعني أرتاح ، آلة الهدم، القدر الإغريقي، الزمان الضرير، الهزيمة الموت والحصار، البهدلة والسلبية والفوضى، كراهية الذات والعالم، التذنيب العميق، الطحن اليومي القسري، ركام القلق والدمار. وكل هذه اللعنات تهون أمام المشهد الفظيع، الموتى يعاقبوننا مرتين، مرة بالموت معهم ومرة ثانية بالحياة دونهم، مات دفْعَةً وَاحدَة وتركني أموت على دفعات، لفظ أنفاسي الأخيرة، جاء خبره ليذكرني إني الأكثر موتا بين الميتين والأكثر إحباطا بين المحبطين...
دخلتُ كنيسة سان ميري (عند مدخلها كنا أنا والمرحوم نمد أيدينا للمحسنين، هو من علمني أسرار الكار وكيف أهز يدي برجفة مصطنعة لاستدرار الشفقة) تناولتُ شمعة طويلة أشعلتها عن

روحه، لم أضع ثمنها بصندوق الصدقات، لن تَهِمُّ ألّلاه خمسُ فرنكات، أشعلتُ شمعة ثانية للكثيرين الذين ماتوا من البرد، أوقدت شمعة ثالثة أمام قدمي العذراء Notre Dame des causes désespérées[38] نذرت أربع شموع مجانية على نية نوتردام دي كلوشار، نوتردام دي دبرسيف، نوتردام دي ألكوليك، نوتردام دي ريفيوجي بولوتيك، طابتْ لي اللعبة فأشعلت الشموع كلها، على ضوئها أخذتُ أتأمل تمثال يسوع المصلوب،... هذا اليهودي اللطيف جدا. ثمة قدر مأساوي فوق أجفانه، ووجهه المتألم مجرد من الغطرسة، ساعداه المفرودين يقولان تعالوا اليّ يا جميع المُحبطين وأنا أريحكم، هذا الإنسان الإله مفصوم الشخصية مثلي، قال انه جاء ليفدينا بموته من الموت...

هممتُ ان أشعل سيجارة ثم تذكرت إني في كنيسة، صفنتُ بصندوق الزكاة وفكرت اني بوسعي ان أفتحه بمطرقة وإزميل، خرجتُ فأحسستُ حلقي جافا، دلفتُ إلى سوبرماركت فرانبري تناولت قنينة فيبوروفا وخبأتها تحت معطفي، بالثلاث فرنكات اشتريتُ مرطبان خيار مكبوس وفتحت زنبيلي للحارس الزنجي حتى يفتش ما فيه (لن يهم ألّلاه إنني اختلست قنينة فودكا من متجر لليهود السرقوا كل أرضنا) رجعتُ إلى مكاني، مكاننا، تحت برج القديس يعقوب، برجنا، كرعتُ جرعة عن روح يانوش، ثم جرعة ثانية عن روح ابن خالي، ثم جرعة ثالثة عن أرواح كل المرحومين، أحسستُ بدفء في أضلاعي، الفودكا خدّاعة لها مذاق الزمزم وبإمكانك أن تنهل منها دون أن تغص، المشروبات الروحية سميت كذلك لأنها تحيي الروح، كنتُ أدمنت عليها أثناء دراستي في وارسو، وواظبت عليها بفضل المرحوم ومدام شيكل...

وبلعتُ نوبة استثنائية من عقاقير البروزاك ثم كرعت بإفراط، نازدروفيا، بولسكا لن تموت ما دام العرب أحياء [39]، الفودكا

---

[38] ترجمتها سيدة القضايا الميئوس منها، وهكذا سيدة المشردين، الكحوليين واللاجئين السياسيين

[39] الجملة تحوير للنشيد الوطني بولسكا (بولندا)لن تموت ما دام البولنديون احياء

جبارة فظيعة ومفعولها أعتى من قنبلة مولُوتوف، ليست ملاءمة لكل الرؤوس،
شربتُ ما أتيح لي وأحرقتُ علبة التبغ بكاملها، ازدحمت في رأسي صور غريبة، موكب من الهياكل العظمية تمسك بأيدي بعضها البعض وترقص رقصة المقابر الجنازية، هذا الأسود الساخر ، هذا الجائع أبدا إلى لحمنا ، ينز من الإسمنت من الإسفلت والقصدير والفولاذ، ومن العناصر الأربعة، لا مناص، رعب القلق وكارثيته، دائما هذا القلق الذي بلا هدف، بلا رابط، بلا نتيجة دائما، دائما، دائما، غم الروح هذا المجاوز للحد بلا طائل[40]، لا بد لكل تعيس من مكان يلوذ به بحكم تعاسته، هل أذهب إلى بيتها؟ بالكاد شغلتني غرامياتها عن وحشي...
اتجهتُ، مزدحما بيأسي، نحو مركز بومبيدو، في البلازا تلقفني المبشر اليهيوي وهو يفتح الإنجيل:
" اذا لم يكن المسيح قد قام فكرازتنا باطلة "
لم ألتفت إليه بل أكملتُ طريقي، بوبور هو المكان الوحيد حين تعز الأمكنة، ألجأ اليه باستمرار حين تلفظني الطرقات، رينزو بيانو المعماري الطلياني الذي صممه حَسَبَ حساب المُشردين والمتعبين فجعل لهم مصاطب والتواءات تسمح لهم بغفوة عابرة بعيدا عن أعين العسس.
صعدتُ للمقهى، الطابق الخامس في بوبور يعادل 15 طابقا في بناية عادية، من فوق بدت الأشجار شجيرات، السيارات بحجم صناديق، والمشاة نقاطٌ سود، وبدت الحياة نفسها تافهة ولا تستحق ان تُعاشْ، خطر خاطر خطير ببالي وأنا أنظر إلى تحت، ارتعشتُ فتراجعتُ ثم نزلت، أخذتُ أفتش عنه في المكتبة، ما أحوجني لبركاته الآن (في هذه اللحظات تحديدا) بكل مرة يعتصرني القلق أحسد عبد السميع المطمئن القلب، أحتاجه كصديق لا كضد، مثلما يحتاج الكاهن إلى خطاة فإن الخطاة بدورهم يحتاجون لكاهن، أحتاج لبعض اليقين، أحتاج لقليل من الوضوح، أحتاج لما هو راسخ ومخلِّص، إله الضرورة والطوارئ والحد الأدنى، ، أللاه

---

[40] دائما هذا القلق ...هذا المجاوز للحد بلا طائل ، من فرناندو بيسووا

النادر، أللاه الإله ، ملاذ الضعفاء المسحوقين الخسروا كل شيء الا اوهامهم في الخلاص النهائي...
ذاك هو سمعان عبد المجيب ، شمس تبريز، لمحته في ركن الجرائد الدولية، فاردا جريدة الحياة ملء الصفحتين، رأى على ملامحي خبرا مزعجا، لم يستقبلني بتكشيرة بل بابتسامة حانية:
" مالك يا بلد مُشْ على بعضك. "
خبئتُ وجهي بين يدي ونشجتُ:
"البولاك أعطاك عمره، صار كمشة رماد (شددت قبضتي) تخيل كمشة رماد "
وتفاجأتُ به وهو يترحم عليه (كان يكره البولندي ويعتبره من أسباب انحرافي)، شَمشم رائحة الفودكا تفوح من فمي لم يعزرني كعادته بل طبطب على كتفي، أخذني بكلمات بسيطة وثاقبة :
" لا تقل يا رب عندي هم كبير، قُل يا هم عندي رب كبير، أطرد اليأس بالرجاء، اعتصم بحبل الله "
عادةً ما يدخل كلامه أذني اليمنى ويخرج من اليسرى فمجرد تفكيري بالله وببيت الله يشل تفكيري :
" أنت متأكد أن الصلاة تشفي من الإحباط؟"
سألته فأجاب:
" معلوم ،الصلاة تشفي من كل الأمراض ومن السرطان من نقص المناعة، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، دَعَكْ من فرويد هذا صناعة إسرائيلية بتمويل أمريكي "
هذا هو الكلام الزين وأزين ما فيه خروجه من فم تعود على كلام الشين، صمتتُ متنازلاً عن حقي في التفكير، أنا ذكي لذا لا أفكر، ليس لي سيطرة على أي شيء ولا حتى على أفكاري، صفع الوحش عنادي وجعلني ثمرةً ناضجة للميتافيزيقا الورائية، للأكاذيب البيضاء، كما يبول الضبع على الإنسان فيسلبه عقله ويجعله يتبعه إلى وكره، ضبعني عسعس فتبعته صاغرا، لم أعترض (من فوائد الإحباط أنه يجرد من القدرة على الاعتراض) هكذا تضافرت الصدف لتقودني إلى المكان الذي أمقته أكثر من كل الأمكنة، يا رضا ألّلاه ورضا عبد السميع

ليس من قانون ثابت سوى قانون التغير. أن تكون معافى وأن تؤمن بالله فأنت بلا عقل، أما حين تصير محبطا وتظل على إلحادك فأنت بلا قلب، يجب الشك في الشك كما يجب إعادة النظر في النظرية، الحقيقة هي القدرة على اعتناق كل شيء من جديد، فالمفاهيم تحمل في داخلها نقيضها لأنها أصلاً إنسانية وتحمل تناقضات الإنسان، الإسلام سلام مُش استسلام، الإيمان أمان مش إذعان، أن نكون شكّاكين لا يعفينا من أن نكون على يقين، العقل قاصر عن النظرة الشاملة ومحدود، وما وراء الحد لا يمكن إدراكه إلا بالقلب، المحبط كائن نسبي والإطلاقية تناسب إحباطه، الحياة تناقض وتعدّد وصيرورة ، في بداياتي كنت عرفاتيا ثم تمركَسْتُ وفيما بعد تَنَتْوَشْتُ (من نيتشه) والآن استسلمت، تفهمونني. الفلسفة هي الدائرة وأنا ألِفُّ وأدور، أساير زمني وأسابقه، أتلون وألبس لكل موقف لبوسه، ويمكنني أن أنتمي غدا إلى جيش الرب الأوغندي او إلى القراصنة الصوماليين، الماء في قنواتي تسيل في اتجاه واحد، اتجاهي، أنا مجرد نكرة من مليار النكرات المنتشرة بين طنجة وجعكرته، أنا غلبان وتعبان وسريع العطب والتصديق، أنا إنسان مثلكم، بوجه واحد وأقنعة كثيرة وقناعات متقلبة، لو كنتم مكاني في المحرقة ورأيتم مشهد الفقيد وهو يتقلص إلى كمشة رماد، لو أنكم تبولتم على أنفسكم من كرع الفودكا ، لو رأيتم التدهور الجسدي والنفسي الذي بلغته في الأوقات الحرجة تظهر الازدواجية في الواحد، تستحوذ علينا ونحن في الحضيض تصوراتٌ قاهرة عن حقيقة عليا، لحظةُ الافتتان بالمطلق تُطلِق السراح، تعزي، تغري، تواسي، وتفتنْ أيضاً، الإنسان مهما تنمرد يحتفظ بقليلٌ من الله في صدره، ثقته العمياء بالحكمة الألّلاوية، "لا أمل لنا في الحياة" قال باسكال" سوى أمل ما بعد الحياة" إبتلائي بالجهل مع الجماعة أهوَنْ من امتيازي بالاكتئاب وحدي، كلُّ خلاص يتضمن إنكارا للذات، الشكوك مجدية لإثبات واجب الوجود في محاولة إنكاره، فالإلحاد

التام يقف عند أعلى درجات السلّم حيث يوجد تحته مباشرة الإيمان الكامل، وربما تكون فكرة الإله الواحد هي إنجازنا الوحيد كعرب، المحبط وهو يتوغل في إحباطه يكف عن تقديم الشروح لمأزقه فيعبر من المنطق إلى الغيب ثم يغالي في جبريته، كله مكتوب، وعسعس يسمي هذا [القضاء والقدر]، الاكتئاب ويل، شين، خزي، عار، شنار، دمار، لوعة، فقْدان ، خسارة، كابوس، كارثة تامة، مَهْلَكة، مصيبة، فظاعة، جرَّبتُ كل العلاجات، الدوائي، النفسي، السلوكي، المعرفي، الكلينيكي، جرّبْتُ شيكل وبرشامته العجيبة، والمدام وعلاجها العاطفي، جرَّبتُ الشيزلونغ والمعرفة البيضاء الإيزوتوريكية، بكُلّ تعالجنا، الطب والطب البديل، ثم وسط هذه التيه الكبير جاء عبد السميع ليقول أنَّ الأوبة إلى بيت الله هي إبرة الشمال ، نحن جميعا نحمل بطريقة او بأخرى الغرائز الرديئة، من يحدق بأعظم رجل وأحقر رجل لن يلمح فارقا كبيرا، المؤمن الفطري يؤمن من قبل والملحد يؤمن من بعد، هي مسألة توقيت فقط، جئتُ متأخرا ولكني جئت،
أيها المجهول اللامفهوم المخترق حياتي كعاصفة،
أنا لك وحدك وسأرغب فيك بكل إحباطي.
أنا دائما متأخر عن اللحظة بلحظتين، كيف يستجير علماني بالسماء على بُعد فشختين من ضريح فولتير؟ لكن فولتير نفسه كان يقول اسحقوا العار (الديني) وبنفس الوقت كان يزعم انه لو لم يكن ألّلاه موجودا لوجب اختراعه، ألّلاه يحتوي على قدر كبير من الخرافات (قد يقول قائل وأنا لا أعترض) لكن هذه مشكلة المؤمنين مُشْ مشكلة الإيمان، لنأخذ من ألّلاه ما يلائم إحباطنا ونطرح الباقي، لا مهرب منه إلا إليه، تلك اليد الخفية العظيمة التي تَتقن هَندسةَ المصائِر...
" الخاطئون هم أجدر الناس بالدخول إلى الملكوت بالتوبة "
بشّرني المبشِّر اليهيوي ثم فتح العهد القديم على سِفْر جوب (الذي نسميه نحن أيوب)
" أنت تتألم إذن الله موجود"
... كلام زين. بلسم. الإنسان لا قيمة له بدون إله يحرر من عبودية الخطيئة والذنب والألم، إحباطنا يجسرنا مع ضفاف الرب، علينا

من الآن فصاعدا أن نفكر ونحيا بالأساطير اليهودية، المعاناة تُسنَد بالرجاء، الله يضع للحياة غاية قصوى تبررها، ألّلاه يهب الطمأنينة واليقين والتفسيرات المريحة، ولنثق بألّلاه ما دمنا عاجزين على الثقة بأنفسنا، هذه هي القاعدة الصارمة لكل ألّلاوي ومن الآن فصاعدا قاعدتي، عادت السماء تقبض على الأرض من خناقها، وانبعث الخالق من رميم الخلق، مات يانوش وبقي الله، مات النمرود وبقي الله، مات ماركس وبقي الله، نيتشه نفسه مات وبقي الله، الإحباط قادر على تبرير الشيء ونقيضه، التراجع يعني أن أتراجع عن كل القيم التي صُنعتْ من أجلها، معلش، إنني الآن (في هذه اللحظات بالذات) مستعد أن أؤمن بإبليس لو شفاني، ولتذهب الإيديولوجيات كلها إلى الجحيم، تعبثُ من الرفض الماكر، أريد أن أخدع الموت والحياة معا، لي حياة واحدة وبوِدّي إنقاذها بأي ثمن، لا بأس فالأمر واحد على كل حال، تضييع وقتي في عيادة شيكل أو في عبادة الله، المفارق في الدين انه بؤس وترياق ضد البؤس، انه يمتح الأمل من بئر الألم، الخروج من الوحش يعني الخروج من حالة الوحشية، يعني الدخول في جوق القطيع المؤمن النقي القلب، حين خرجنا من بوبور كنتُ على وشك أن أسلِّم نفسي إلى جماعة شهود يهوه لولا إن عبد السميع زاود وأغراني بالمبيت في بيته مقابل الالتزام ببيت الله، كما ترون فإنني براغماتيكي بطريقة ميكيافيلية، وأفضِّلُ كتاب [الأمير] على كتاب [الأمير الصغير]، لستُ مع اليمين ولا ضد اليسار، ويمكنني أن أزيبق من يسار اليسار إلى يمين اليمين، حسب مقتضيات المصلحة، مصلحتي، أفكاري تزيبق على خطٍّ يتعرج إلى حد يصعب معه تحديد الحقل الفكري الذي تنتمي إليه، المادية الجدلية، المادية الماورائية، الدارونية، الهرطقة البحتة، النيتشوية، الليبرالية، النيوليبرالية، العدمية السكسية، مش مهم، أنا ماركسي على سنة الله ورسوله، ألواني الحربائية تسهم في تعريف من أكون، وللحق فأنا أنا، لا أتغير ولكني أتأقلم، ليس هو أبو رياح من يدور بل هي الريح التي تُدوّره، رحلة البحث عن الذات تتقاطع أحياناً مع رحلة البحث عن الله، وغالبا ما ينتهي الهيبي الخنفوس راهبا في الدير، ولستُ وحدي، مصطفى محمود كوَّع نفس

التكويعة الألّلاوية أمام قداسة شلالات نياغارا، دستويفسكي (يا لتواضع المقارنة) آمن في آخر لحظة عند منصة الإعدام حين جاء قرار العفو عنه، حواسي التي هي أقوى ما فيَّ تحس بأن المهدي ليس منتظرا بل قائما، وكل الأدلة تأتي من الحواس، أي مكان بلا إلهْ هو مكان فارغ، سيمون فايل وهي تشرح لغز الألم غير العادل اعتبرتْ انه إذا كان حقا أن النعمة الإلهية تملأ الفراغ فلا مندوحة من فراغ يستوعبها، وحسب هايدغر فلا يخلصنا إلاّ إلهْ، دائما هو، الشيء المقدس، العرفانية التي نصطدم بها في لحظة السقوط اللانهائي، التوكيد الكبير لكل الأشياء، الأشياء كلها التي تحسها الحواس كلها، انه اختيارٌ اضطراري أملاه الوحش، انقلابٌ أبيض، تصحيح مسار أو إعادة اصطفاف برسم المرحلة، وثبة دراماتيكية من اليقين الجدلي إلى اليقين الساذج، مفيش طريق ثالث، القطيعة أو القطيع، إذ تنسد الطرق حولنا فإننا ننظر إلى فوق، حين لا يسعنا إتباع ما هو سديد نتبع ما هو سائد، حين نفقد البوصلة ندور حول أنفسنا، في الخضّات الشرسة ينحاز الإنسان للحياة ضد الحقيقة فالحقيقة عائق بوجه الحياة، بني آدم ضعيف ويحتاج لمقدس يتقدس من خلاله، يحتاج لإجماع الجماعة، لصُلح المصلحة، ما في خلاص من الطوفان بغير عسعس ، ربان سفينة نوح.

" لكن هل سيقبلني الله بعد كل هذه المعاصي؟"

سألته فأجابني:

" بالتأكيد يا بلد، ربّك شديد العقاب وغفور رحيم "

أول مرة يستعمل الديالكتيك لإقناعي، الالتزام بالمسجد لا يلزم بشيء سوى بالمسجد، يمكنني ان ألتزم كما يمكنني التنصل من التزامي، أتقدم وأنا أحفظ خط الرجعة، لا منطق في الاكتئاب سوى منطق الاكتئاب نفسه، اللامنطق الذي يشط عن المنطق ويبرِّر كل الشطط، الإصرار على تجنّب الخرافة المعتادة يوقعنا أحياناً في خرافة من نوع آخر، في التشنجات والأزمات يعود المكبوت الديني بشراسة، الارتداد الهوياتي، الناس بعد كل هزيمة يبحثون عن إله...

" لكي تجد الله عليك بالبحث عنه، مُشْ في بوبور ولا بعيادة شيكل بل في بيت الله "
أفحمني بقوله ثم عاد يقول :
"لا تكون مثل اللي ضيَّع المفتاح في البيت فراح يبحث عنه في الشارع"
وظل يقول :
"من البديهي أن يسقط من أسقط الله من قلبه، النَزْعة البشرية نزّاعة للسقوط، الإنسان ملاك ساقط من ملكوته، وجوده الدنيوي هي بحد ذاته سقطة من الجنة "
صار ذكيا، صار يستمد ذكائه من غبائي، ثمة منحرفون غيري غيَّر مجرى حياتهم فأصبحوا صالحين
"ماذا يثبت أن ألّلاه بتاعك موجود؟"
سألته فأجاب:
"وماذا يثبت أنه مُشْ موجود؟ عدم وجود دليل مُش دليل على عدم الوجود "
.. فعلا، الأدلة قاطعة وغير دامغة، وقد تكون دامغة وغير قاطعة، البراهين لا تصلح أساساً للإيمان، الله يُستدَل به ولا يُستدَل عليه، وكل ما هو من الطراز الأول يجب أن يكون علة في ذاته، هذا لا يعني الإحاطة بكل حيثيات الربوبية، بل قد يكون من الحكمة ألا نعرف ماهيتها، قد يكون الرب مجموعة أكاذيب تامة ولكنها أكاذيب صادقة، الطريق إلى الحق متعرجة شائكة وتتعدد بتعدد السالكين، الحواري توما ما آمن لأنه رأى المسيح يقوم من ميتته بل لأنه كان ظامئا للإيمان، الإمام الغزالي عرف اليقين بنور باطني قذفه الله بقلبه، وهو نفسه عسعس آمن بالوراثة (إيمان العواجيز)، باسكال راهن على وجود الله رِهانا حسابيا، واحدة من اثنتين، ان كان موجودا نربح الحياة الأبدية وكل شيء، وإن لا فلن نخسر أي شيء، طُرّة او نقشة، عندي أمل بالمية خمسين، كُلّو يكسب في بورصة ألّلاه، على أونه، على دوييه، على تريه، الإسلام دين الرحمة يا ناس، قَلَّ ما تلقى مكتئبين بين أمة محمد، الإسلام برشامة مضادة للاكتئاب، هذا واضح وبشكلٍ فاضح، هل تكون أمم العرب والعجم والترك والزنج كلها غلطانة وأنا وحدي

المُشْ غلطان؟ حتى مدام شيكل اليهودية نفسها اعترفت ان دينا يعتنقه مليار إنسان لا يمكن اختصاره بخرافات، لا يضير الحرية انها بنكهة عبودية، الطمأنينة هي الأمن القومي للفرد، وقد أثبت التاريخ أن العبيد تنسجم أكثر مع عبوديتها، عندما ألغى لنكولن الرِّقَ توجس أغلبية الزنوج من قراره، عندما ألغى بورقيبة قانون تعدد الزوجات عارضته معظم الحريم التونسيات، الإنسان مداهن كبير يخطو خطوة للأمام وخطوتين للوراء، ومهما تَطوَّر يظل منحازا إلى بدائيته، وفي آخر المطاف فإن معظم بني علمان يجهلون مع بني جهلان، رجعةً طواعية إلى بيت الطاعة، الرجوع إلى الأصل أصل، وغالبا ما تبدأ السهرة الفارسية بشرب النبيذ عند قبر حافظ لتنتهي بالندب وجلد الذات عند قبر الحسين، العديد من الرفاق الحمر أسلموا (استسلموا) مع موجات الإحباط الفكري، هذا زمن ردة ورداءة يحول الشيوعي إلى شيعي، الماركسية كانت طارئة على مزاجنا، كانت موجة معاكسة على سطح التيار العميق الدافق، أنا ابن الأمة التي اخترعت حقوق الله ولم تخترع حقوق الإنسان، إسمي رمضان أبو عيد مُشْ سوسو ولا كوكو، وأخوتي كلهم يحملون أسماء الأشهر الهجرية، وأمس في المنام رأيتني في باحة الحرم المكي مرفلا بثياب بيضاء، هبط من السماء ملائكة مجنحون بأيديهم طست من زمرد وطهروني من أدراني ثم أقبل النبي وألقى بُردته علي، وهذا الصباح قال برجي الفلكي "ما ترفضُه أيها الأسد هو ما يخلّصك في النهاية "، الإلحاد كان جملة معترضة، فتحتُ القوس وضعتُ فيه بضع نقاط ثم أقفلته، وكفى الله المؤمنين شر الاكتئاب.

ما أحلى الرجوع إليه !

حقاً إنني وجه وقناع.
وستظنونني في حفلة تنكرية لو رأيتموني مرخيا لحيتي ومتسلحا بسبحة ومسواك، أنا كلي إيمان، أنا واحد من أرتال الساجدين والراكعين، استسلمتُ لأكثر النزوات مجانية، قلبتُ السترة ولبستها على القفا، انزلقتُ إلى ليل الأديان، عاشرتُ معشر المصلين، اعتكفتُ أتعبد وأتهجد، قرّبتُ القرابين ونذرتُ النذور ، حلّتْ فيَّ قوة الأسماء فصمتُ رمضان، أقلعتُ عن تناول لحمَ الخنزير ورجعتُ للحلال، أخذ ابن تيمية وابن باز والعثيمين مكان نيتشه وسارتر وماركس كمعلمين، أخذ المسجد مكان بوبور كَفسحة وجودية، كان السؤال أكون أو لا أكون فصار يجوز أو لا يجوز، لم أعد أقول "ألّلاه" بل أرخِّمُ الله معطوفةً بسبحانه وتعالى، لم أعد أقول صلعم بل رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت التعابير السائدة في حياتي السابقة هي، صح، غلط، إرادة، استطاعة، حرية، فردية، تجربة، زلة، والآن انتعشت مفاهيم، حلال، حرام، جهنم، جنة، قضاء وقدر، مكتوب فحشاء ومنكر إلخ. لم أعد أتكلم بالنبرة الوجودية ولا بأفعال الإرادة والصيغة الجازمة، بل بأفعال التمني والشرطية وان شاء الله، لم أعُد أسلِّم بصباح الخير بل بالسلام عليكم، تنازلتُ برضىً عن شكي المنهجي، ضبطتُ الساعة على توقيت الحجاز، أنا العبد الفقير لله، العبد الآبق، العبد السّميع لعبد السميع، رمضان وسمعان تتهجيان معا، كنا متكاملَيْن فصرنا متشابهيْن، لم أعد أغضب منه بل أتسع لغضبه، بايعته على السمع والطاعة وملازمة الجماعة، هو ولي أمري وسيدي ومولاي وملاكي الحارس، أول أسبوع طبَّقَ علي الآيات المكية المتساهلة، إذ تَمَكَّن أسفر عن وجهه الوهابي وطبَّقَ علي الآيات المدينية الصارمة، لقنني حسناتَ ومزايا الخضوع، قسرني على نمط تفكير واحد، سيّرَ حياتي كلها على معيار الشرع وديكتاتورية الذوق الإسلامي العام، نهاني عن التدخين لأن الدخان خبيث (حسب حساباته فوجد إن ثمن علبتيْ دخان مضروبة بعدد أيام السنة يوفر

لي ما يمكنني من الحج إلى مكة)، منعني من الاستماع للغناء لأنه يلهي عن الذِّكْر، ومنعني من الفودكا لأن الخمرة حرام، وزاد فحرَّم عليَّ قراءة برجي الفلكي لأن الله وحده علّام الغيوب، حذرني من الرجوع إلى عيادة شيكل لأنه ساحر يهودي، وحرّم علي تسريح الكلب جازي بحجة انه نجس، رمى في القمامة حبوب البروزاك وطلب من صديقه الشيخ جيلاني أن يحجِّب لي، فرمن عليَّ بفرمان همايوني "أريدك مصليا في أول الصفوف" حاصرني بالممنوعات، بالمزيد من الممنوعات، حظر عليَّ الكلام مع شهود يهوه ومنعني حتى من التردد على بوبور للقراءة "لأن العلوم كلها موجودة في القرآن" (وظل هو يتردد عليه) منعني من السؤال في أمور محرجة بحجة إن المنع مناعة ضد الانحرافات "إن شاء الله، قَلْلي، سنجد لك فتاة ملتزمة (بالمسجد طبعا) وتكمل نصف دينك، وبلاش من بنت الكاشير ". لا تظنّنّ أن بيت الله يقتصر فقط على المحرمات، لا أبداً، هناك يوجد أشياء مباحة كالابتهال وقيام الليل والموالد والأوراد وحلقات الذكر والاستغفار، هناك أيام خاصة يجب الاستعداد لها بشكل خاص، كيوم الجمعة مثلاً، أيام رمضان، ليلة القدر وليلة النصف من شعبان، هناك الشرع وما احتواه من حرام كثير وحلال قليل. سارت الأمور على أحسن ما يرام في أحسن بيوت الله الممكنة، وسِرْنا بثبات على سكة المستقبل (لا سيما أن الوهابية نصبتْ بكل مسجد عشرين عبدا سميعا يشدّنا إلى الوراء) نحن في باريس أواخر القرن العشرين، غير إننا في مكة بداية القرن الأول الهجري، طائرات الكونكورد تطير فوق رؤوسنا، قطار تِ ج فِ يبرق كالبرق من قربنا ونحن نزحف في العصر الحجري بتاع أبي هريرة وسواه، لا شيء يعادل في الطول الأيام المتعثرة، جاء الشتاء وانقفص العصفورُ في القفص، جاء الخريف فنفق العصفور في القفص، وكل يوم يشبه الذي قبله والذي بعده، يوقظني عسعس عند الصباح، نشرب قهوة الصبحية جماعة على إيقاع سورة الرحمن، أتوضأ (بماء باردة)، أبلع البروزاك (خفية)، نصلي صلاة الصبح في غرفته جماعة (هو الإمام وأنا المأموم)، نمشي حتى حي باربيس، ندخل المسجد نتوضأ من جديد (دائما بماء باردة)، نصلي الظهر، نخرج من

المسجد لمقهى بوسيف (المصاقبة للمسجد)، نقضي الفسحة السائبة بين صلاتين، هكذا دواليك، تدوزنتْ وتيرة الحياة على إيقاع الصلوات الخمس، الوقت لا يمضي إلا ليتوقف، تنتهي صلاة العصر لتبدأ صلاة المغرب، لا بد من الإشارة إلى إن حي باربيس هو قطعة من بيشاور في باريس، كأنك في الشرق وفي الحقيقة لا حاجة لكاف التشبيه فأنت فعلا في الشرق، في شرق الشرق، في يوم الجمعة يطفح المسجد بجحافل المصلين والحرامية وجعيدية السوق وسماسرة الهجرة والمهاجرين والتنابل والعواطلية (من كان فالتا ببلادنا صار لا يقطع فرضا هنا) كله تلقاه بالمسجد حتى عملاء الDST والمخابرات الجزائرية والمغربية (يحتكرون الصفوف الأولى للمُصلِّين) ولضيق المطرح فإنهم يتمددون ويحتلون الشوارع المصاقبة ويتعطل السير، أما مقهى بوسيف فهي حِتّة غُرزة مشبوهة ويمكن شراء كل المسروقات فيها لكنها في رمضان [تلتزم] وتتوقف عن بيع الخمور وتفرد صواني الزلابية والمقرود وتمور الدقلة، لسوء حظي فإن [التزامي] تصادف مع بداية رمضان، صمت بعضه ثم فيما بعد بِتُّ أتظاهر بالصوم (في عز رمضان اكتَشَفَ عسعس أنّ الحلوى تختفي في وضح النّهار، استجوبني فنفيتُ الخبر بطريقة هي أقرب لتأكيده) تَلَوْتُ الصلاة تلو الصلاة كببغاء يردد ولا يفقه ما يقول، أسرفتُ في الصلاة فلم أعد أفرِّقُ بين العادة والعبادة، صلاة وإحباط، إحباط وصلاة، إحباط موزَّع على خمس صلوات، تكرار يومي لحركات ميكانيكية مملة، أصلّي وأنا أبتلعُ الضجرَ، أتلو الفاتحة وأنا سارح بخمريات المدام، وبسيجارة أدخنها بعيدا عن مراقبة عسعس، أركع وأسجد وأنا أبصبص على ظهور المصلين، على الفانيلات الرياضية التي يلبسونها، هذا الأللاوي حامل مارادونا على ظهره، وذاك الجدع حامل كانتونا، ذاك المؤمن يتباهى بأزياء الماركات الكبرى، غوكي أديداس فرساشي هوغو بوص، (كلها ماركات أصلية، وكلها ، حتى يثبت العكس، مسروقة على سنة الله ورسوله)، الإسلام كلما اقتربت منه يبدو مخيفا كالطاعون، لم يتغير على الاطلاق، قيمه المزدوجة، هلاكه واستهلاكيته، صلعمه وطوطمه، خلفاؤه الراشدون والمنحرفون، حريمه ومحرماته، هي

ذاتها، سماؤه لا زالت تتواطأ على أرضه وروحه توشك ان تغتال عقله، حزينٌ ذاك الذي يظن إنه بحاجة ليخدع نفسه بأوهامه، الإحباط يحاصر من الخارج والمسجد يسيّج من الداخل، انتظرتُ الله فجاء إبليس أكل الطعم وخري على السنارة، نسي الله أن يشفيني، اتسع ملكوته للعالم بأسره وضاق بي؟ أين يحتجب هذا الإله المتراخي، المسعور، العديم الاحساس، الأخرس، الأطرش، الأعمى، السادي، الغافل، الغافي، الفادح، الفاضح، المقمل؟ في اليوم الأول خلق السموات والأرض، وفي اليوم الثاني خلق الليل والنهار، في اليوم الثالث خلق المرأة والرجل، وفي اليوم الرابع خلق العرب والعجم، ثم خلق السعادة والشقاء، ثم خلق اللوكسموميل والبروزاك، ثم استراح ونام لم يسمع صراخ الأنام. ألللاه إجمالا هو فكرة جيدة لكن الشيطان يكمن في التفاصيل، في تعميم التذنيب والبلاهة والدروشة والهلوسة والهسترة والبارانويا الجمعية واللامعنى والحماقات والتعصب والتلقين واليقين والتقليد ووهم الكمال، والمفاهيم المعتمة كالجنة والنار، وكل تلك الآفات التي منها العرب مريضون، أسمعُ لاءات الإسلام النافية للحياة (لا تَزْنِ، لا تأكل خنزير، لا تخمر، لا تدخن، لا ترقص، لا تسمع موسيقى، لا تصوِّر، لا تنحت، لا تضحك، لا تشطّف طيزك باليمنى، لا تحلب إيرك باليسرى) فأتساءل لماذا لا يحرمون الفجل والفقوس والعرقسوس والماء البارد؟ أسمع وابل المستفتين بأسئلة وجودية من طراز، هل لامرأة عجوز لا ترجو نكاحا أن تقود سيارة؟ هل يجوز للرجل ممارسة نكاح الوداع مع جثة زوجته؟ ما حكم الشرع فيمن يجمع زوجتيه في سرير واحد برضاهما؟ أسمع كل هذا فأحمد ربي الذي لم يخلقني أنثى، غير أن حال الذكر ليس أحسن فالإسلام عادل في توزيع البؤس على الجنسين، الأنثى جارية للرجل، والرجل جارية لولي الأمر والكل (ذكورا وإناثا) شخابيرٌ سوداء على خارطة العالم، ، الغورو هو المعلم الروحي الذي يريد ان يقودنا نحو الممكن بسبل غير ممكنة ، هكذا ظل عبد السميع يبيعني صكوك غفران مع عدم ضمان الجنة "القرآن أسبرين صالح لكل زمان ومكان وإنسان، يشفي من الإحباط ومن داء النقرس ومن السرطان" عجبي عجبي. لماذا إذن يتعالج

قرضاوي وشيوخ الوهابية وأمراء بني سعود في ديار الكفار؟
رجعنا للمناقرة ، للسين والجيم (في الحقيقة فإن نقاشنا ليس بيزنطيا خالصا لأننا مضطرون لتفسير التاريخ مرّتين، مرّة مع إله ومرة دون إله) أسأله عن حكمة تعدد الزوجات فيفحمني بقوله "هذا أفضل من تعدد الخليلات"، أستفسرُ عن قوامة الرجال على النساء في الشرق فيفاجئني بنظرية قوامة النساء على الرجال في الغرب، أجادله عن مغزى ارتداء المسلمة للنقاب فيرمي بوجهي جملته الجاهزة "تريدها تلبس مايوه، أترضى هذا لأختك؟" هكذا هو، أجوبته تغتال الأسئلة، قَللي أعبد ربك حتى يأتيك اليقين، وأنا أعلم علم اليقين أن لا يقين، أنا من المؤلفة قلوبهم الذين يؤمنون أول النهار ويجحدون في آخره، لا حجاب الشيخ جيلاني حجب عني الوحش (الحجب والتعاويذ تؤثر فقط على من يؤمن بها) ولا المهدي المنتظر هداني، ولا المنقذ من الضلال أنقذني، حاولتُ كثيرا مع النصوص المنزّلة تأويلاً وتجميلاً وبقى القبيح قبيحاً، مشكلة الإسلام انه كله مُنَزَّل من فوق يعني متحجر من تحت، لم أجد فيه كلمة [حرية] البتة في حين إني وقعت على كلمة [سجن] عشرات المرات، أتحدى من يقول العكس، أتحدى أطول لحية، القرآن يتسع لكل شيء إلا للحرية، يتسع للقتل والجَلد والبتر والرجم والحدود والتعزير والبراء، آياته إن لم تكن جعجعة شحيحة ركيكة مجردة من جدليتها، محنطة بقدسيتها، فهي طلاسم لاهوتية مصُمَّمَة لحجب الواقع، مزامير متكلسة بالبلاغة ومعبرة بفصاحة عن شيء غير موجود أصلا، كرهت القرآن برمّته، كرهتُ حتى دعوة الخير فيه لاحتوائها على نسبة أكبر من الشر، القرآن اذ يرفع سقف الفضيلة عاليا يجعلنا نلهث خلفها، في علاقته العكسية مع القيم يفرغها من محتواها، فالعفة تعني زيف العفة، والحشمة تعني كبح الغبطة، والحياة تعني بطلان الحياة، أخلاقيات أكثر تعني أخلاقا أقل، والطهارة هي اسم آخر للعهارة، كرهتُ كرهَه للشعراء وتوظيفه إياهم للمديح، وكرهتُ كُرهَهُ للنساء وتلزيمه إياهن بالإنجاب والتفقيس، كرهت وَعْدَهُ إيانا بسبعين حورية فوق لينسّينا حوريات الأرض تحت، ووَعْدَه لنا بخلاص بدل أن نجد الخلاص بأنفسنا، كرهتُ فيه حتى بِرّ الوالدين (هل

علي أن أكون برا بشخصين لم يبرّا بابنهما؟) معلوم عند كل أحد (سوى العميان) إن ديننا دين يهودي بامتياز، فالقرآن أخذ من الكتاب المقدس أسوأ ما فيه (العهد القديم) وأهمل أحسن ما فيه (العهد الجديد) الإسلام بمحرماته يقتل الغرائزَ المتوثبة ونوازعَ الحياة، يلغي الفرد وفردانيته وآدميته وخصوصيته، يخضع المغايرين للمتجانسين في انشداد نحو الأسفل، نحو الدرجة الصفر من العقل الحنبلي، الاسلام يدجِّن الذئاب البرية إلى دواجن، يعيد إنتاج التخلف واجترار الماضي، يوفر على المسلمين التجربة ليصنع منهم بشرا خام ضعفاء فاشلين. أتساءل (دون الوصول لاستنتاج مفيد) كيف أوقع ذاك الساحرُ القرشي المسلمين بأسرهم في أسره؟كيف استطاع ان يقيِّد بقيد واحد مليارَ عنق؟ كيف امتدت شجرته لتفيئ بظلها العرب والعجم والترك والأفارقة والهنود؟ هل انتصر علينا بذكائه أم بغبائنا؟ كيف فرض رأيه ورؤيته على الكل ورسم مصيرهم ومسيرهم ومستقبلهم وحاضرهم؟ لو أن عشيرة بني هاشم رضخت له وحدها لقلنا ماشي الحال، لو أن قبيلة قريش لقلنا معلش ، لكن أن نرى ثلاث قارات تسلم لنبي أقصى ما ينالها من حسن معاملته هو الخضوع فكيف نسمي هذا؟ استلاب، إسلام، استسلام، جهل مقدس، عبوديّة مختارة. ترى لماذا فضّل أسلافنا العربان إله السامية (ألّلاه / يهوه) على زيوس وأثينا وأبولون وديونيسوس؟ الإيمان يخلّص إذن فهو يكذب، الإيمان حاصل عملية ينجزها المؤمن بوعي، لكن بوعي مُغرِض، الإيمان خدعة لاهوتية لإطالة غش الحياة، والاستفادة من الربوبية لإبراء المحبط كالاستفادة من علم الجبر لجبر الخواطر، الإسلام في مفعوله الخلبي يشبه الشامبو العجيب الذي يفصم الرجل الأصلع نفسه إلى رجلين، أصلعا بلا باروكة قبل استعمال الشامبو وأصلعا بباروكة بعده، دائما يأتي الله ليجود بِمُشْطٍ على الصلعان، الإسلام هو المبالغة في الالتصاق بالله لدرجة الاستلاب، حياة المرحوم يانوش كان مسيحياً مؤمنا بعمق، وكان يقتصر في صلواته على حضور قداديس الميلاد والفصح والأحد، شيكل هو الآخر يتردد على البيعة يوم السبت وفي عيد الغفران فقط، أما ان تكون مسلما ملتزما فعليك ان تتكبّد التّكرار بالمسجد خمس مرات باليوم، وعليك ان

تتوضأ قبل كل صلاة، وعليك ان تخلع نعليْك قبل الدخول وأن تنتعلهما بعد الخروج، وعليك أن ترخي لحيتك وأن تحف شاربك وأن تلبس وتمشي وتأكل على الطريقة الإسلامية، وعليك أن تعيش مع الجماعة بدرجة عالية من إنكار فرديتك، وعليك أن تتمعن جيدا في خريطة الحلال والحرام قبل أن تتنفس، وعليك وعليك، إذن ماذا تبقى لك، للدنيا، لغير المسجد، للمزرعة، للمصنع، للمتجر، للمسرح ، للمدرسة، للنكتة، للكباريه؟ يحكى عن فلاح ميسور يملك كثيرا من الأبقار لكنه لا يصلي، ذات يوم أقنعه الإمام بالصلاة حتى تطرح البركة في أبقاره فتسمن وتدر حليبا أكثر، اقتنع الفلاح وجاءت النتيجة عكسية، حلَّ النحس محل البركة، فالرجل بالتزامه بالمسجد أهمل رعاية الأبقار ففتكت بها الأمراض، في اليوم الأول نفقت خمس بقرات (بعدد الصلوات الخمس) وفي اليوم التالي نفقت نفس عديدها، هكذا على هذه الوتيرة بكل صلاة تنفق بقرة حتى جاء يوم وبقي له عجل واحد مُشاغب أخذ يلبط ويكسر، راح الفلاح يتوعد العجل وهو يتوضأ "استنى دقيقتين يا ابن الحرام رح أجيب أجلك بركعة واحدة"، تفهمون قصدي، قصد النكتة، شريعة [بِعْ الدنيا تربح الآخرة] التي شرعها محمد بوجه العالم هي وجه آخر للعدم، أراد إضفاء المعنى على الحياة فأفرغها من كل معنى، من يراهن على الطوطم يراهن على خرافة، من يراهن رهان باسكال يخسر الدنيا والآخرة، إنها لحماقة أن يكون قدر المرء مصاغا بمعادلة بلهاء من الطاعة أو المعصية، الدين للجماعة مُشْ للفرد، الفردانية تخيير والجماعة تسيير، كلمة هرطيق باليونانية مُشْتقة من فعل [اختار]، الإنسان الرفيع يخلق سعادته بذاته، الحرية تنبع من الكائن مُشْ من الرب، إن المفارقة بين فرد وآخر لزهيدة جدا ولكنها على غاية من الأهمية، ليست الحقيقة هي ما يملكه واحد ولا يملكه الآخر، وليست الكثرة من أمارات الحق، ولا القلة من علامات الباطل [41]، إلحادي وضوح رؤيتي، يحرّرني من الأفكار الجاهزة التي تحدّ من استخدام المسلمين لذكائهم، أُفضّلُ أن أكون مهرّجاً على أن أكون

[41] وليست الكثرة .. ولا القلة من علامات الباطل "أظنها مقولة للقاضي عياض

قدّيساً، لا أستطيع أن أؤمن بإله خَيِّر فالشر في داخلي أقوى مني، وأعتقد أن الذنوب تجدد إنسانية الإنسان، أظن (مجرد ظن) إن هناك حقيقة كونية تتجاوزنا، حقيقة واحدة وأبدية متناقضة ولا يمكن صياغتها في معادلة نهائية ولا يمكن لدين إدعاء احتكارها الحصري، ما علينا، يجب أن نحتفظ بأوهامنا، صلاتنا اللامجدية، لازم نصلي لأن الصلاة لا تفيد بشيء، صفقة كذب متبادل مع إله مشكوك به، ألّلاه يمن علي بشفاء كاذب وأنا أرد عليه بإيمان كاذب، الإحباط قتل نيتشويتي وسواني بالأسوياء، الإحباط أحبطني وجعلني كأشعب يكذب الكذبة ويصدقها، ما زلت أتذكر من حكايا شيكل أن حاخامَيْن يصليان في البيعة اليهودية راحا يتناقشان حول ماهية يهوه فوصلا إلى قناعة انه فكرة خيالية من اختراع أجدادهما العبرانيين ، وفي اليوم التالي فوجئ أحدهما بالثاني يصلي فقال له "ألمْ نتفق أن يهوه مُشْ موجود" رد الآخر "وما علاقة الصلاة بوجوده؟". وأنا كذلك، واظبتُ على الالتزام الرخو بالمسجد، سجني الآمن، فصلاتي صارت امتداداً لإحباطي، فوق هذا فعبد السميع ماسكني من خناقي (أنا رهينته وأرقد ببيته بعدما أجبرني على ترك مأوى المُشردين)، المدمنون وحدهم يعرفون معنى القوة اللزجة للعادة، جاذبية الإغواء التي تُمَارس على الرعاع والمستلبين، اسألوا مجرِّبْ، الإدمان على المسجد كالإدمان على سينما السكس، كلاهما ملاذان افتراضيان لتفريغ التوتر الداخلي، مجالان لوجود مستعار، أُلْهِية الله والكس تشدّان الانتباه لأنهما تخاطبان الغريزتين الإحشائيتين الأعمق فينا، كلاهما إسراف في الإدمان، تشاهد غيرك ينيك وأنت تحلب إيرك، تسمع عن حوريات في السماء ولا ترى إلا ذكورا حولك، برغم انعدام السيناريو والأكشن والذكاء في البورنو فبوسع المُشاهد أن يضيّع وقتا طويلا في مُشاهدته لأنه مسلوب الإرادة، كل أفلام النيك تتشابه كأنها فيلم واحد، وكل الصلوات تتشابه كأنها ركعة واحدة، نواح مكرر ونكاح مكرر، الصلاة الواحدة تتكرر 5 مرات في اليوم، الركعة الواحدة تتكرر 10 مرات في الصلاة، ألّلاه نفسه يكرر ذاته 15 مرة في الركعة، إحباط + إسلام = سوبر إحباط، أن لا ترى إلاّ التشابه فهذا دليل على ضعف بصرك، عندما يكون ثمة إجماع

على فكرة ما فآلية التفكير هي الخاسرة، ماذا أفعل بهذا الله؟ بهذه الأساطير كلها؟ بهذه الحماقات المتراكمة؟ سولومون الذي يتحدث مع النمل؟ وموشيه الذي شق البحر، وبرهومة الذي نام في البوتاغاز، وصلعم الذي طار في السماء، وطوطمو الذي يرانا ولا نراه؟ هؤلاء المصلون / الدناصير التي نسيت ان تنقرض ! تخيلوا لوحة ناتور مورت من مئة جثة، مساطر متشابهة مستنسخة مكشرة، يضادون الواقع ويحقدون على فكرة الصيرورة، تلقاهم بالمسجد قبل الصلاة وبعدها ممددين متكئين مسبِّحين، يركعون ويسجدون كآلات مطيعة، يقتلون الوقت ويتقاتلون معه (الوقت كالنفط هو الشي الفائض عند المسلمين ولا يعرفون استغلاله)، المسجد جائحة أطعن من الطاعون وأعْدمُ من العدم وأجْهل من الجاهلية وأفْسد من الأمكنة الفاسدة، فسحة للغباء والمحدودية، خشخاشة للموتى، مغارة للعناكب المسمومة، هو مجموع أشباه عبد السميع، لو جمعت ألف صفر صغيرة فلن تحصل على أكثر من صفر كبيرة، أضربْ، اطرح، ضاعفْ، النتيجة نفسها، أصفار عالشمال، لكن تاريخ الشموليات يعلمنا أن أسطع الأكاذيب هي التي تنطلي على أكبر عدد من الناس، ليس الدين حقيقة صارمة بل شهوة غامضة تحجب الحقيقة وتمتصها من الفكرة، إن مجرد السؤال (لماذا تخترق السماءُ الأرضَ؟) هو قَلْبٌ للمعنى كالسؤال (لماذا يخترق النهرُ المدينةَ؟) فألّلاه ليس أساسا للوجود بل طارئا عليه، لم يخلق البشرَ على شاكلته بل خلقه البشرُ على شاكلتهم، بدليل أن الآلهة الزنجيّة أنفها أفطس، أمّا الآلهة الصينية فعيونها مشدودة الأطراف، لقد خلقتْ البشريةُ إلههَا ينبوع حاجاتها ووضعت في فمه مفاهيم الدينونة، الدين منظومة متكاملة للأوهام تغزو رؤوسنا لأنها توفر علينا فكرة الشقاء، الدين تبرير مزيف لحياة مزيفة، تفسير بدائي للخوف من الطبيعة، سلبٌ للعالم والإرادة، الدين تولَّد من تحالف الوهم والميتافيزيقيا لسد عجز الإنسان عن الخلاص من محنه بعقله، الدين حيلة جماعية للتخلص من مأزق الوجود، الدين شمس وهمية تدور حول الإنسان ما دام الإنسان لا يدور حول حياته الواقعية، إلخ، لم يبتكر العقل البشري مكيدة أبشع من خرافة الحق والحقيقة، ما من دين الا وأراه مقصرا

عن مجاراة أفكاري، ولا أستثني دينا بعينه، ولكن مع إسلامنا أستعمل صيغة أفعل التفعيل فهو أغبى الأديان طراً وأكثرها تعصبا وأقلها تسامحا وأشدها إرهابا، جرب وهابي، تقزيم، إفلاس، فطرة منحرفة، إفقار مستمر للعقل، فيتو ضد الحقيقة، أخطبوط توتاليتاري أعتى من الشموليات الشيوعية والنازية والفاشية التي تختلف عنه في مسعاها لبناء إنسان جديد، دين كهذا ناجز ونهائي ومُؤسَّس على اليقينييات القطعية ينمي فينا الكسل والضمور والقصور، يخاطب فينا حاسة وحيدة، غريزة القطيع، الفرد فيه معدوم ولا وجود له خارج الأمة، والأمة ذاتها معدومة لا وجود لها خارج ماضٍ وهمي من البطولات الزائفة (يسمونه العصر الذهبي وهو في الحقيقة تنكي) كل الإسلام شواذ، وكل ركن من أركان الإسلام له مغزى يشط عن معناه الأصلي، الشهادتان تعنيان أن كل من هو غير مسلم كافر، الزكاة تعني تسمين الشيوخ التنابل، الحج وتعني استغلال السياحة حول قبر صلعم كمعاش لقبيلة قريش، الصيام يعني أن تأكل في شهر رمضان (بعد الإفطار) أكثر مما تأكل في بقية الشهور، الصلاة وتعني الترديد الببغائي ، تعدد الزوجات وتعني الدعارة الحلال، نكاح القاصرات وتعني البيدوفيلية، قوامة الرجال على النساء وتعني أن القوي يأكل الضعيف، التقية وتعني الكذب، القضاء والقدر يعنيان التنازل عن مشيئتنا، الغيب وتعني الغباء، أما الركن الركين للإسلام فهي العادة السرية، ولا غرو فقرآن الكبت يصنع مكبوتين وحَلّيبة أُيور من الصنف المثابر والملتزم، الإسلام وهو يبالغ في تجنيبنا الزلة والغواية والتجربة يقتل إنسانيتنا ويقزمنا إلى كائنات مقموعة ومكبوتة ورافضة للحياة، يعلّمنا أن نعيش دون الذهاب بعيداً في معيشتنا، وأن نرضى دون أن نفهم، أن نعتقد دون ان ننتقد، ان نتبعْ ولا نبدعْ، ان نقلِّد ولا نجتهد، وأكثر من ذلك يسحق خلايا الحرية وجينات التفكير والفوضى الخلاقة من خلال إبطال التناقضات، الإسلام دين السقم والشرمطة، سرطان الحضارة، نكبة البشرية، عصر حجري على أعتاب ألفية ثالثة، فقه إعرابي بائس مضاد للجدلية والتطور، كان علي أن أكابد لعنة هذا الدين الذي استعبدني منذ ولادتي باسم رمضان، ألّلاه / الخنزير اليهودي

هو الغلطة التي سممت حياتي كلها، الطريق من بيتنا إلى مدرسة الأونروا كانت تمر بمقبرة المخيم العتيقة، كنت أعبرها راكضا وواضعا إصبعَيْ في طبلة أذنَيْ حتى لا أسمع صياح منكر ونكير وهما يعذبان الموتى، كل ليلة أرى أحلاما كابوسية من شياطين ومسوخ وأجساد مخوزقة، كنت أسمع أستاذ الدين يزقزق بأن الله خالق كل شيء فأساله " طيب من خلق أَلّلاه؟"، فينبهت الأستاذ ويسألني "أنت ابن من يا ابن الحرام؟ " فأجيبه" أنا ابن أبو رمضان" فيزداد انبهاتا "أبوك رجل آدمي أعرفه لا يقطع فرض بالجامع، بس إنتَ لمين طالع زنديق؟ " كان من البديهي لفتى شب على فكرة الإله السادي ألا يتصور نفسه خارج جحيم الجلود المشوية، جهنم بذرت في وجداني الجرثومة الأولى للإحباط، في سن 19 طرحتُ أللاه من حساباتي، تغير كل شيء في حياتي مذاك، وكل تلك المساحة الهائلة التي كان الطوطم يحتلها في وجداني أفسحتْ المجال لطاقة خلاقة أخذت كل مداها في باريس التي لجئتُ إليها هرباً من الإسلام ومخازيه، لشدّة ما عانيت من صلعميتي وبكريتي شئتُ أن أكون الابن الضال، المراهقة المبتورة بالخرافات التي لم أعشها في مخيمي عشتها مضاعفة في عاصمة النور، وابتكرتُ أكثر من طريقة للعيش، التزمتُ بنفسي فقط، (من يبلغ الشباب متأخرا يحتفظ بشبابه لأمد طويل) باشرتُ المناكر في تحالف فاوستي مع الشيطان، أطلقتُ الطاقات المكبوتة، سكرتُ وحششتُ وطعرست، صعتُ تمايزا عن الأسوياء، لهوت وأمعنت في الّلهْو كالصوفي الذي يذهب إلى الفضيلة من طريق التطهر بالرذيلة، جربتُ جميع الهلوسات الممكنة لأصل إلى المجهول من طريق تشويش جميع الحواس تشويشاً هائلاً عقلانياً طويلاً، لأحرر عقلي من ارتباطه العنيد بالإسلام، لم أضيّع وقتي في الجوامع والجامعات بل كسبته في المواخير والبارات، لم يكن الأمر متعلقاً بمواجهة بين خطأ وصواب بل بين أن أكون (بالاستطاعة) أو لا أكون (بالجبر)، كانت الصعلكة الأبيقورية (بصفتها مشروعا جماليا) هدفي الوحيد، كان من الكياسة لشخص يرفض الأبدية أن يحيا بكل طاقته على الحياة، عشت في خطر دائم، عشت كثيراً في وقت قليل، عشتُ بمفعول رجعي، بجسدي، انطلاقا من جسدي،

في سبيل جسدي، بكثافة، بالنبرة الوجودية، ببلاهة وبذكاء معاً، عشتُ مدججاً بالوقاحة وسوء الصفات، تغلغلتُ في السفالة والرذالة نكايةً بالدين، اعتصمتُ بالمعاصي لاكتساب مناعة ضد عبيد ألّلاه وعباده، ذهبتُ إلى أبعد ما يمكن لكن الدرب أضاعني قبل الوصول، اصطدمتُ بالفجائع وانتهيتُ إلى لاشيء، الإيمان بألّلاه لا يضمن الجنة كما أن الصياعة لا تضمن الحرية، والآن قولوا لي يا سادتي، أليس الإسلام سببا من أسباب الإحباط، أليس هو عين الإحباط؟

معركة بين الأنس والجن

كيف آخذ نصائح الحياة من مُعْرِض عن الحياة؟
كيف أُعْمَى في مدينة النور؟
كيف تُحْظَر علي الخمور في مدينة الخمور؟
(تاريخياً حين طُبِّق الحظر الكحولي في أمريكا تقاطر سكارجية الأنكل سام على باريس) ، أنا العطش الكربلائي، الفرصة سانحة لأكسر القاعدة، فأنا وحدي بلا رقيب، بجيبي مئة فرنك زائدة عن اللزوم، والمسجد ما زال مقفلا في البرهة الرخوة بين صلاتيْن، وعسعس الآن مشغول بجهاده الأسبوعي لتحرير فلسطين (من ساحة ريبوبليك) يتظاهر ويحرق نجمة داوود.
تركتُ عطشي يقودني إلى مقهى المليون شهيد (سميناها كذلك لأن القهوجي بوسيف يزاود في جزائريته ويتبجح بأنه أب لشهيد وابن شهيد وأخ لشهيد) دخلتُ فرأيت الزبائن يشاهدون مباراة كرة على التلفاز، انزويتُ في الزاوية الميتة التي تمكنني أن أرى دون أن أُرى (كثير من زبائن المقهى هم بنفس الوقت زبائن المسجد) هَمَّ النادل ان يتوجه إلى إبريق الشاي (عوَّدتُهْ على طلب شاي بالنعناع فصار يحضره أوتوماتيكيا قبل ان أطلبه) استوقفته :
" بلاش شاي يا معلم ، بوِدّي شي تاني يعبي الراس"
تفاجئ بوسيف بالتغير الطارئ على مزاجي، قال بغريزة النادل المجرب:
" كلشي كاين، ويسكي ، روج، بيرة ، كونياك ، زطلة كوكايين، واش تبغي؟ "
اقترحتُ عليه أن يصب لي قليلا من السعادة الاسكتلندية في قدح بورسلان صيني (للتمويه) لكنه لم يعبأ بتحفظي ووضع أمامي قدحا زجاجيا شفافا فيه مكعبتان من الثلج وبعض الويسكي المغشوش، قعدتُ أمزمز وأنا أطالع جريدة الأهرام من صفحة حوادث متفرقة... عصابة صعايده بلطجية تسرق كاميرة روسية من سائح بلغاري، روميو وجولييت بالكردية، صفحة الوفيات، انتقلتْ إلى رحمة الله الحجة مكية والحجة محمدية والحجة

هاشمية، التهاني بولادة الكتكوتة ريماس، والكتكوتة نايا، الكتكوتة كادي، مصر تعيش أزهى عصور الدمقراطية، الأبراج الفلكية، برج الأسد يقول" لا تحرق كل جسورك وأحفظ دائما جسرا للرجعة "...كله حكي جرايد قلتُ لنفسي وأشعلتُ سيجارة وجرعتُ بعطش الكحوليين، هذه الويسكي أفضل استراتيجية للنسيان، تحرر الشعور من كل قيد، أكبر مشكلة في العالم هي الإسلام وأكبر مشكلة في الإسلام هي انه دين ناشف، أبو عيد يبقى وفيا فقط لرمضان، يمكنه أن يغير التكتيك دون أن يغير الثوابت، الحياة تتطلب شوية استهتار ومسرات بسيطة جداً ،...

انتبه النادلُ إلى إني أخمر على الريق فوضع أمامي صحنا فيه فول ولبلبي وصب لي قدحا جديدا:

" هيا أرمضان، عيش ليومك، أخبط حتى ترى الديك حماراً "

رفعت الكأس على صحته وقلت بالفرنسية :

Il vaut mieux un bon barman qu’un mauvais psy[42]،

رحتُ أداعب كلبه الأسود وألقمه حبات الفول، تذكرتُ الكلب جازي الذي بدوره ذكرني بالمدام فأقحمتُ قطعة فرنكين في صندوق الموسيقى وكبستُ على وجه عَبْوَهاب فخرجت أغنية الحبيب المجهول، امتلأت نفسي بلذائذ قاتمة وأنا أدندن " حبيبي يللي خيالي فيك، يللي حياتي حتكمل بيك "

فكرتُ أن رجوعي للخمرة يعني ان عسعس سيغلق باب بيته بوجهي، يعني اني سأبيت الليلة في العراء (مأوى المُشردين لا يأوي المُشرد نفسه مرتين متتاليتين) هل أذهب إليها هي أم قلب طيب؟ إلى عيادة زوجها؟

وشرعت أمزمز بالكأس الرابعة حين دخلا منكر ونكير (عبد السميع والشيخ جار النبي جيلاني)، ، تقلصت الزبيبة في جبينه وهو يراني أخبأ القدح تحت الطاولة ، تهدلتْ عضلات وجهه

---

[42] ترجمتها النادل الفطن أفضل للمحبط من النفساني الغبي /روج = نبيذ بالجزائرية /زطلة = حشيشة / اخبط = اسكر

بشكل علامات استفهام وهو يرى سيجارة على المنفضة (وهذا أمرْ لا يُغتفر) قلت له:
" شوفة عينك، أفضفض عن نفسي، أدخن عن نزق، نكاية بك وبالسرطان "
ضبطني بالجرم المشهود وهو يشمشم رائحة الخمرة من فمي وانبرى بصرامته وقتامته وانفعالاته المجانية:
" رجعتْ للحرام يا ابن الحرام. "
....لشد ما أكرهُ هذا الكاروز. عدو النبيذ والكباريه والموسيقى والنساء، إنه المختصر التام لما يمكن أن يعنيه المسلم للعالم، لا عايش ولا تاركني أعيش، يضع لعناته على أجمل مسراتي، يخطئ من يظن أن الإسلام يقتصر في تعسفه على أهل الذمة، أول ضحايا الإسلام هم المسلمون أنفسهم، صحيح انهم لا يدفعون الجزية نقدا ولكنهم يدفعونها عيناً من النكد والتهاويل والمحرمات، قلت له ولم أكن أدري بأني أصرخ:
" ماني محتاج لصكوك غفرانك، بِودِّي أسكر وروح بلِّط البحر، أنا مُشْ مسلم بالمرة، أنا محبط بسيط ورّطه الله بمسجده، أنا نغمة نشاز، ذمي كتابي سهروردي مجوسي خارجي أمازيغي كردي أشوري ماروني قبطي، أنا بتاع شارع مُشْ بتاع جامع، أنا حر بالمعنى الفرنسي للكلمة "
رفع عسعس صوته اقوى من صوتي:
"انت كر مش حر "
تثائب القهوجي وهو يقول لعسعس :
" يرحم والديك، خلينا من صْداع الراس، ذاك هو بيت الله وهذا بيت عبد الله، نحن في باريس مش في مكة "
تشجعتُ وأخبرتُ عبد السميع أني أريد فك التزامي بالمسجد، صفع الطاولة بكفه كي لا يصفعني:
" لما تلتزم بشيء لازم تلتزم حتى النهاية وإلا فلا تلتزم من البداية، الظاهر اشتقت لشرموطتك اليهودية "
" أفضّل اليهودية على شراميط الجنة، على الأقل معها أدخن نَفَسْ سيجارة وأخمر وأسرِّح الكلب "

" تفضل معانا للصلاة " قال لي الشيخ جيلاني وهو يكظ أسنانه المسوسة
"ماذا تنفعه صلواتي؟ قلت
" تنفعك أنت" قال عسعس
تناولت القدح من تحت وبلعت ما فيه بجرعة واحدة، قلت لعسعس وقد ثملتُ تماما:
" يقدر صلعمك أن يخدع من قبره بعض الناس بعض الوقت، ولكنه لن يقدر أن يخدع كل الناس كل الوقت، أنا هرطقة دائمة ولا أبالي بإله يُحطِّم حياة المخلوق في الدنيا لينقذه في الآخرة "
تضامنا معي راح الكلب الأسود ينبح على عسعس، وهنا ارتعد الشيخ جيلاني وقال لي:
" وحق ربي ساكنك الجن، مسحور "
ووافقه عسعس :
" أيوه مسحور بكيد ساحر يهودي "
التخمتُ بالمرة في فظاعة الكوميديا السوداء... جني مرة واحدة. يا اسم الله. أنا ربيب الجان وآخر من يعلم، هذا الناقصك يا أسد، لا يكفي الوحش فجاء ما هو أوحش
فتحت فمي:
" مُشْ معقول. هذا باطل ويجافي المعطيات السيكولوجية الوعي واللاوعي الذكريات المؤلمة وتراكم الصدمات"
أصر عسعس على التشنج وعلى الكلام بالفصحى (من وقت لآخر يطعم كلامه السوقي بعبارات بليغة):
"وجود الجن أمر مفروغ منه، والشك به مكابرة، شرِّف معنا للجامع، الشيخ جيلاني من أهل العرفان، عاوز يكلمك كلمتين على انفراد "
رميتُ عليه نظرات شكاكة... منذ متى صار من أهل العرفان. هذا حرامي نصاب محتال من أصحاب السوابق، لحاد دفان يغسل ويحنط الموتى ، وتدخل ضمن مهاراته مهنة ترقيع البكارة الرائجة جدا بين المسلمات، كان عنده ببغاء حفَّظه الشهادتين ثم باعه لبوسيف نفسه...
قلت بلساني:

"أنا شربان ولا يليق بي دخول المسجد"
حاولتُ التملص فأمسكني البصار الجزائري بيد حازمة ولوى ذراعي خلف ظهري ومشى خلفي ومشى عسعس قدامي، جرجراني عنوة إلى المسجد، اكتفيت بالقول :
"تستطيع سحب الحصان إلى البئر لا تستطيع إجباره على الشرب "
وزاد الطين بلة أني أَفْلتتُ ضرطة رنانة بخرّت المسجد بفساء له شذى البروزاك ، تحججتُ بالأدوية، لكن سُمْعة لم يدعني أكمل :
" لاء مُشْ أدوية، هذا تلبيس إبليس، الجن دليل على جنونك، الجن طابور خامس يشوش عليك من جوّه "
ورأيت العيون الأربعة تدينني من أربع جهات، هممتُ أن أقول شيئا فتبعثرتْ بقايا الكلام في فمي، للشيخ جيلاني إضافة لميزاته المعروفة بتزوير الأوراق الثبوتية، سرُّه الباتع في فك السحر عن المسحور وإزالة النحس عن المنحوس، مسد لحيته، أقفل الشبابيك والباب وأطفأ الضوء، بخّر بخور حرمل (الجن تفضل الغرف المظلمة) انتفض مسربلا بمهابة مستعارة، باشر شعوذته قافزا كالجندب بحركات مسرحية، راح يدور حولي مثل مجاذيب الحضرة ويرقص حتى لم يعد يميز رقصة الزار من رقصة الأدغال:
" إظهر وبان يا خافي عن العين، يا رايح مع الريح، لا سألتك عن فضة ولا على ذهب، سألتك أن تخرج من رمضان، بحق أنه من سليمان، وأنه بسم الله الرحمن، هيا به يا خدام اسماء الله الحسنى، إلحاحا إلحاحا، العجل العجل، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم لدينا محضروووون "
لم يحضر المُسْتَتِرْ فوقف الشيخ في حالة هيجان، هدد الجنيَّ ذهب في تهديده إلى حد التصفية الجسدية:
" أُخرجْ يا لعين بالتي هي أحسن، متضطرنيش لاستخدام القوة "
رأى أن الجني متمترس جيدا فقرر تحطيم المتراس، تحطيمي، أربدت ملامحه، تناول قبقابا خشبيا من الميضأة وانهال به على رأسي:
"أُخرج يلمسخوط، أخرج يا دين الزب "

من جهته نزع عسعس القشاط من سرواله أخذ يجلد الجني ويجلدني، أخذت أترنح بين ضرباتهما حتى وقعتُ مشجوج الجبين، وضعتُ رأسي بين يديّ وتكومت على بعضي كقنفذ مكور وأخذت أسترحمهما فلم يرحماني، ولم يخلصني منهما إلا عياطي من حلاوة الروح:

" يلعن إلهكم، يلعن محمدكم "

أحس عسعس بالحرج فساقني إلى مخفر الدرك الواقع بشارع غوت دور، جَرِّمني كي يبرأ ذمته، وضع نفسه فوق الشبهات ووضعني تحتها، لفّق لي تهمة أني اعتديت عليه تحت تأثير الحشيشة، عزز إدعائه بأقوال الشاهد الوحيد جيلاني، قضيتُ ليلتي في نظارة التوقيف ولم يكن بالإمكان أبدع مما كان.

واو، واو، واوووو.
عوت سيارة الإسعاف وهي تتجاوز بقية السيارات فوق الطريق السريع، يا له من قلب للمعاني حين يتحول شيء محبط وتافه إلى شخص مهم ومميز بأولوية المرور. لو يعرف السواقون حقيقة المريضيْن لما أفسحوا المجال بتاتاً، ثمة قبالتي مجنون آخر مقيد مثلي اسمه جانو، شاب نحيف ويكاد يكون أحد شخوص جياكوميتي، شعره يتدلى خلف رقبته مما يجعله أشبه بتمثال نصفي لموسيقار كبير، عيناه منسجمتان مع بلاهته، لا شيء يبدو طبيعيا فيه وخاصة عيونه، فيهما تلك النظرة الملائكية / الشيطانية التي نراها في أعين المخبولين،
" معك سيجارة؟"
سألني فأجبته:
"كيف تدخن وأنت مقيّد اليدين ومقمصل بقمصلة الجنون؟ "
نظر إلى قيوده كأنه اكتشفها لتوه:
" en effet[43]"
تمطى فوق المقعد وأردف:
" كنت أرغب أن أكون مغني روك ففشلت وصرت لا أحد، وأنتَ من تكون؟
" أنا ، فاتتني أن أكون رائد فضاء فصرت شاعرا"
انتبهَ إلى أن لكنتي تشوبها شائبة أجنبية فسألني :
"من أي بلد أنت؟"
"من موريتانيا، بلد المليون شاعر"
جقرني بنظرة ثابتة :
" ألأنت من مواليد برج الأسد؟"
لم ينتظر جوابي بل أكمل بصوت مزمجر:
" أنا مثلك أسد، كلانا أسدان مقيدان ومسوقان إلى المصح العقلي".

---

[43] ترجمتها فعلا/ سيريال كيلر= قاتل بالجملة

نظرتُ في الزجاج فرأيت مومياءين، أنا، هو، قريني، كلانا، نسخة كربونية الواحد عن الآخر، حففتُ ذراعي المقيدة بالنافذة للتأكد من واقعية العالم حولي، تحسستُ الرضوض ببدني من أثر لكمات جيلاني وعسعس، ثم تلقائيا انتقل خيالي إليها وتخيلتُ تنورتها القصيرة وكيلوتها الأحمر، وتخيلتُ شخابيرها ولوحاتها التجريدية، بحرَها الأسود وسمائَها الخضراء، هي الأخرى مجنونة، المجانين أكيس الناس أو أغباهم...
سألتُه:
" لماذا ساقوك لمستشفى المجانين؟"
"لنفس السبب الذي جعلهم يسوقوك "
أووف، لعلي أنا الآخر من الجماعة إياهم، قبيلة بني بلاعقل، مسحتُ العرق عن جبيني ونظرت حولي، الإسعاف، البرية، الأشجار العارية، الذاكرة، الأسد المقابل [جانشير]، كله افتراضي، الطريق السريع وأسهم الاتجاهات، السيارات الآتية من الاتجاه المعاكس، بداهات خادعة، لخبطة دماغ، يسقط المنطق فيضطرب المعنى، تنتصب الفخاخ بين الواقع واللاواقع، لا مراء فالعالم حولي بطانة لعالم آخر، كلنا أوهام، ما هو أكيد ليس أكيدا...
سألني جانو:
"هل بوسعك ان تسلفني 10 فرنكات لشراء علبة دخان؟ "
"سأعطيك إياها عندما نصل ويفكوا قيودنا "
حرك فكَّيْه في آلية التشنجات المعهودة للمدمنين، خبط رأسه بدرابزين النافذة حتى فارت الرغوة على فمه ثم هدأ ثم خبط في نوبات متعاقبة من الصراخ والهمود، تطلع الممرض المرتينيكي للخلف وقال بلهجته الكريولية التي تحول الراء إلى واو:
" كل هذا علشان سيجارة، يا لِلْعُته. وفوق هذا حاول طعن أمه يوم عيد ميلادها "
علّق السائق:
"من حسن حظنا انه مقيد، واضح من عيونه إنه سيريال كيلر "
فكرتُ بتلك المرأة التي كنت أناديها " أمي " وعندها نظرتُ للشاب النحيل من زاوية منفرجة... جان مجنون سارتري، بطل جبان، لا يبدو شريرا بل غير مفهوم، لو حيّدنا أثر الخرمة والإبرة المخدرة

وقمصلة الجنون لبدت عليه الدماثة ولطف المعشر، المسكين. هجم على أمه بسكين، قتل الأم كقتل الأب جريمة عاطفية أنتي أوديبية، والجريمة موضوع يجب أن يعالجه الأطباء لا الشرطة، أنا وهو نتشابه ليس فقط في كوننا أسديْن مساقين إلى سيرك الجنون، بل في الأسباب التي سببت جنوننا، أم رمضان لا تقل سوءاً عن أم جان، فتشتُ في وجداني عن مكانة لتلك المرأة فلم أعثر، نسيتُ شكلها لشدة نفوري منها، أغمضت عيني لعلي أمسك بتلابيب صورتها فرأيت حية هيدرا بسبعة رؤوس، كنت عندما أسمعها تقول "ابني رمضان " أخالها تخاطب شخصاً آخر، أكرهها بدقة، تلك المرأة الباذخة في الاستحواذ والأمومة المتكلفة، منّتها الوحيدة علي أنها أعطتني حياة الموت أحسن منها، أنجبتني لنفسها، أرادتْ ولدا تولد من خلاله مرة ثانية، حتى تجد من يعيلها في كبرها، ونكاية بالعاقرات، لكي تباهي المبتورين من الذرية بذريّتها، وتباهي بيوت البنات بعدد ذكورها، كانت غريبة الأطوار مثلي، كانت تتمناني ان أموت في معركة حتى يقال انها أم شهيد، ولكني خيّبتُ ظنها، كانت تريدني ان أتخرج من الجامعة فيقال عنها أم مهندس أو طبيب وأيضاً خيبت ظنها، هي مخيبة الظنون، أثناء الاجتياح الإسرائيلي جاءت أم فلسطينية من مخيم اليرموك تبحث عن ابنها الفدائي، طرقتْ باب دارنا الواسعة وتوسلتْ أن تبيت ليلتها عندنا، لكن تلك المرأة التي يقال لها [أم رمضان] رفضت بحجة أن بيتها صغير، كيف أنسى ذلك المشهد الذي لا يُنسى؟ لعلي أدفع الفاتورة المؤجلة ! الشعور بالخزي الذي يتحول إلى إحباط، الغريب في الأمر إنها بعد تلك المهزلة كانت شهريا تزور أخي رجب السجين في سوريا وتبيت في مخيم اليرموك، من الجائز جدا إنها كانت تبيت في بيت نفس المرأة التي صدت الباب بوجهها، كانت تتصل ببيت عسعس وتقول لي "الفلوس اللي بِودَّكْ تبعثها لإخوانك ابعتها لي وأنا أوزعها عليهم "حساباتها بعيدة، تريد أن تبقى ست البيت، الأم الحنون، الجدة الرؤوم، الحماة السلطانة، تخشى أن يضعوها في مأوى عجزة فتقايضهم بالمال الذي يأتي مني، يراودها خوف الآباء من عقوق الأبناء، تحسب الفلوس بغريزة صيرفي وتميِّز ورقة الخمسين دولارا من ورقة المائة،

تقرِّب عينيها من الجملة السحرية in god we trust هي أيضاً تثق بالله وصلعمه ودولاره وتميز المزيف منه، خزنتها مليئة بعملات صعبة من الدول المستوردة للاجئين الفلسطينيين، كرون دانمركي ومارك ألماني وفرنك فرنسي وليرة لبنانية ودولار أميركي حتى دولار كردي، المصائب العمومية والنكبات علمتها أن القرش هو الصاحب الوحيد، وعبد السميع يستغرب عقوقي فهو بخلافي منحاز للأمومة ضد الأنوثة، يقول "الأم مدرسة" و أنا أقول "الأم مقبرة" ، يقول "تحت أقدام الأمهات ثمة الجنة" وأنا أقول "جهنم"، أربع سنين غربة قضيتُ نصفها في الإحباط ولم أحن إلى أمي ولا إلى خبز أمي، وأستطيع بكل طمأنينة أن أقلب المعادلة الإيطالية التي تقول "كل النساء قحبات إلا أمي قديسة"، أنا مغضوب والدين، ولا أحد يجبرني على حب من أكره ولا على كره من أحب، الطوطم ذاته والصلعم لا أقدسهما فهل أقدس امرأة مُشاكسة نقّاقة. هناك ألف سبب وسبب للإحباط وهي أوّلها، هي عينها التي لوثتني بالوحش من خلال حبل السرة، علينا أن نَحْمِل شهوات آبائنا وأن نُحَمِّل شهواتنا لأبنائنا ليستمر نسل الأنغال المحبطين، يا لرأسي الذي أتلفته السفرات الباطنية. التنزه في الذكريات كالتنزه في حقل ألغام، تره لماذا أتجول دائما في تاريخي؟ لماذا تلاحقني الآن كل تلك الذكريات المخزية؟ المخبول جانو يريد تحطيم رأسه لفراغه من النيكوتين وأنا بِودّي (أن) أحطم رأسي لأنه مصدع بالذكريات السود، رديئة هي الذاكرة التي ترسم خرائب الطفولة بدقة علمية، دائما وأبداً تعاكسني وتذكّرني بما أردت نسيانه، الإحباط اسم آخر لتراكم الذكريات، والخيبات على الخيبات، ليس التّذكّر نفيا للنسيان، هو شكل من أشكال النسيان، واو، واو، واووووو....

شعرتُ برأسي مُشَوَّشاً بين الأمكنة والأزمنة فسألتُ السائقَ:

" أين نحن؟

"نحن هنا في سيارة الإسعاف "

" إلى أين نحن ذاهبون؟

" لا أعرف"

... كويس جدا، فالذين لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون يذهبون بعيدا، ناس تختصر المشوار إلى نزهة وأنا أطوِّله إلى رحلة، أجملُ الأمكنة مكان لم نذهبْ إليه بعد، الجنون هو أقصى مدى يمكن ان يمضي إليه العقل العاقل...
استقر بصري على يسوع الطيب المعلق في سلسلة تحيق برقبة جان، رأسه متوجا بإكليل من الشوك وجسده مخروقا بمسامير، نسخة مصغرة عن اليسوع بتاع كنيسة سان ميري، قال (هم قوّلوه)" أنا الطريق ، الحقيقة والحياة" يا لها من حياة خاوية. مسكين جيزوز ، عمره ما ناك ولا حشَّشْ ولا تَوْتَنْ فانقصف عمره بسن 33، وفوق هذا عاوز يهدينا للطريق. هراء! الإنسان لا يجد طريقه إلا حين يضيعها... الطريق إلى كليرمون دانلواز طويلة بطول هلوساتي، بطول خرمتي على سيجارة، ثمة كليرمون أخرى في وسط فرنسا منها انطلقت شرارة الحروب الصليبية، المجد ليسوع دائما الذي أشعل الحروب وهو يبشِّر بالسلام، فكل تلك الفتوحات والعبث والضحايا هي علشان قبره في بيت لحم. كلهم حربجية، إسلام ومسيحية، مجانين تنطلق من الشرق للغرب ترفع راية الهلال وتسمي زحفها جهادا، ومجانين تنطلق بالاتجاه المعاكس ترفع خشبة الصليب وتسمي ذلك حملة صليبية، جنون مقابل جنون، الجنون هو القسمة الأعدل توزيعا بين البشر، في باريس 15 مليونا لو فرضنا ان هناك واحد بالمية منهم فقد عقله، يعني 150 ألف مجنون، المجانين برّه أكثر من جوَّه، وبلدياتي هو الأكثر جنونا، لم يُخرِج الجن مني لكنه أخرجني إلى بيت المجانين، كنتُ قضيتُ ليلة البارحة في مخفر الشرطة راقدا على اسفنجة، ورأيته في المنام، كانت زبيبة جبينه تتسع حتى تحول وجهه كله إلى زبيبة، أمرني بحفر خندق بطول مترين، وبعد أن انتهيتُ من حفره قال "إطمره "، سيزيف لم يكن مجنونا، الآلهة الأدانته هي المجنونة، كلنا مجانين بدرجات متفاوتة ومن يقرضون الشعر هم أجن من غيرهم، ولهذا يشعرون، الشعر لا يحتمل المعنى، العالم كابوس، الحياة جريمة، البشر مجرمون، الجريمة بكل مكان، الوجود لغز مطلسم، أين يهرب المرء من ذاكرته سوى إلى ذكرياته. أين يهرب من تتقيؤه مدينة العقلاء سوى إلى

المارستان. الشرطي الذي استجوبني سألني إذا كان لي سوابق عدلية فأفدته بأن سجلي أبيض إلا من عدة أيام حبس بتهمة تشبيك ورقة مائة دولار مزورة في ستيانة رقاصة شرقية، سألني "أتريد إخطار أحد معارفك؟ فكرتُ بها هي أم قلب طيب ثم نفيتها من فكري، ما جدوى إقحامها بمشاكلي، بجنوني، "هل تنكر التهمة الموجهة لك؟" قلت كاذبا "لا "، الكذب منجاة من المبيت في العراء ويضمن لي ملاذا، الحجز الاستباقي الوقائي في العصفورية يدوم شهرا على الأقل ونحن في عز برد شباط، تفهمون قصدي، هذا التكتيك تعلمته من المرحوم يانوش، كان حين يلقى نفسه بالشارع يدعي انه مجنون فيساق إلى المصح العقلي، "إلى الدفء"، وسألني الشرطي عما إذا كنت أتعاطى الحشيشة؟ قلت "أتعاطاها"، قرأ علي التهمة، الجرح العمدي وانتهاك حرمة المسجد مع سبق الاصرار، "هل تقر بما اقترفته؟" كان علي أن أعترف بما لم أقترف فقلت "نعم". "هل لديك أقوال أخرى؟". "لا". "جيد، وَقِّع هنا ".رسمتُ اسم رمضان على شكل فأر مذعور يسبح في نون كبيرة ووضعت ثلاث بعرات تحته، أنجز شرطي آخر عملية القيس والتشبيه وأخذ البصمات، كومني مكلبجا في سيارة شرطة حتى مستشفى سانت آن، الممرض المرتينيكي الأسود نفسه وخزني بإبرة مهدئة وضعني في قمصلة المجانين ثم كوموني بهذه الإسعاف ولم يكن بالإمكان أبدع مما كان
واو، واو، واووووو.

طيران فوق عش الوقواق

هذا هو المارستان، عرين الأسد.
بناء قرميدي صارم في لاهندسيته ويتربَّع بغطرسة في خلاء مقطوع، كأن ساحرا شريرا بناه ليزِّجَ خصومه فيه، شكله تحدٍ سافر للانسجام، لا مربع ولا مستطيل ولكنه مكسّر الأضلاع كمكعّبات سكّرنبات (الجريمة الوحيدة في المعمار هي عدم تناغم الجزء مع الكل، والجريمة الوحيدة في الإنسانية هي عدم تناغم الفرد مع المجتمع) مكان مُشَوَّش ومُشَوِّش، منغلق على العالم البراني ويتسع لكل شيء إلا للعقل، توليفة من الغولاغ الستاليني ومن معمار الحد الأدنى، يكنون عنه بالمصح العقلي على سبيل التورية، في لبنان يسمونه عصفورية[44]، في العراق يسمونه الشماعية، في مصر يسمونه العباسية، أسماء مختلفة والمسمى واحد، مستشفى المجانين...
جاءت رئيسة الممرضات، امرأة سمينة كأنها خارجة من لوحات بوتيرو، صارمة كالممثلات اللواتي لا يلمعن إلا في أدوار الشر ولا يمكن تمييز وجهها عن وجوه المجانين كأنما حصل تناضح بين الطرفين، دققتْ في ملفي وقتا أطول من ملف جان :
" نزيل جديد (قالتها كأنها تقول مجنون جديد) أنت أول بونيول يشرفنا، المصح ازداد جثة جديدة، أهلا أهلا، أنت ضيف شرف طفيلي في مستعمرة البكتيريا السلبية، لا شك أنك ارتكبتَ غلطة شنيعة ليؤتى بك إلى هنا"
التصق لساني بحنكي فلم أقل لها أن حياتي كلها أغلاط،
أمرتني ان أكشف عن ذراعي لترى إذا ما كنتُ من متعاطي المخدرات القوية، سألتني عن عنواني فقلت:
" أنا بلا عنوان مثل الحلزون يمشي ويحمل بيته معه "
قالت بأكبر مقدار من الصلف :
"إتبعني"

---

44 / العصفورية منطقة بيروتية يقع فيها المصح وسمى باسمها/ بونيول تحقيرية وتعني عربي

فتبعتها صاغرا، كل خطوتين من خطواتي تساوي خطوة عندها، مشيتُ خلفها في مجاز طويل في طرفيه غرف كثيرة، وهي تعرفني على عالمي الجديد:
" هذا الصالون، وهذا التلفاز نافذتك الوحيدة على الخارج، هذه الكافيتريا، تُفتح ثلاث ساعات يوميا، هذه حديقة للتنزه، هذا مكتبة متواضعة فيها شوية مغامرات لتان تان وأستريكس وما شابه ، هؤلاء المصاريع، الجثث المتحركة هم أصدقائك الجدد، ذاك هو السور الذي يفصلك عن العالم البراني الذي لن تراه قبل شهرين، لا تنس يا بونيول أنك محجوز عليك في إقامة جبرية بأمر من مدير الشرطة، هذه دورة المياه والمراحيض، هنا غرفتك وهذا شريكك بالغرفة جاكي اندريه، قم يا جاكي سلّم على صديقك الجديد "
قامت جثة معتوهة وعانقتني كأنها تعرفني من زمان
قالتللي رئيسة الممرضات:
"غيّر ثيابك، لا يمكنك الخروج من غرفتك إلا ببيجاما الخروج"
" لكن يمدام، الغرفة تفوح برائحة خراء وصنة"
قلتُ لها فأجابت بصوت أحادي الوتر:
" فوايون بونيول، هل تحسب نفسك في فندق خمس نجوم. أنت في مصح عقلي "
تركتني وحدي مع جثة جاكي، مع نفسي، مع جنوني، اقتربتُ من الباب لأخرج وتصنمتُ... كيف أخرج بدون بيجاما علشان إحضار بيجاما للخروج؟ هذا هو الدرس الأول في مدرسة المجانين، اللغة الفرنسية بالنسبة لعربي مجنون لا يجب نسبتها إلى موليير بل إلى الماركيز دو ساد، ماذا يعني العقل؟المعنى؟ الحس السليم؟ ماذا يقول برجي الفلكي اليوم؟ 1+1= 11، الفلسفة هي الدائرة، والجنون عقلٌ آخر، والمجنون هو بلا شك أذكى إنسان ، وأنا لا أقول هذا لأني مجنون بل أقوله لأني أذكى إنسان....
لمحتُ البيجاما موضبةً تحت المخدة فارتديتها، بدوتُ مندمجا تماما في الإطار والديكور والجثث ، أشعلتُ سيجارة، تحركتُ دفعة واحدة ووصلتُ بقليل من البسالة إلى الصالون، بين بوبور وعيادة شيكل والمسجد والعصفورية مسافات متساوية، كل الحالات

متساوية بالنسبة للمجنون فهو فوق الحالات، وعلى أي حال فإن الأمور هنا ليست أسوأ منها هناك ، فأنا في مكان مفصل على مقاس فوضاي الكاوتيكية ، كنتُ دائما أحس إن المكان المثالي هو مكان آخر لستُ فيه، في المخيم كنتُ أحِسَّني يهوديا، في عيادة شيكل كنتُ فلسطينيا، بالمسجد كنتُ كافراً، مع الأغلبية كنتُ أقلويا، لكني الآن /هنا أحس بالانسجام، لا قيمةَ لِي هنا وهذه قيمة بحد ذاتها (عندما يكون للإنسان قيمة فعليه أن يحافظ عليها بجهد أو بآخر) هنا لا بد أن تكون الحياة سعيدة فقط لأنها ليست حياتي، هنا يصبح النشاز قاعدة ويبدو اللامعقول معقولا، هنا لا يوجد تناقض ولا مراتبيات ولا صراع طبقي فالكل ينتمون لطبقة واحدة، هنا نجمع أنفسنا ونجتمع مع أنفسنا، مع أشلائنا، جنونستان بلد الممكن جدّا، لا يوجد علاقات قوة مختلة مع المختلين، الاختلال يحصل فقط مع المتزنين، لا يمكنني أن أرفضهم لأنهم يقبلوني كما أنا بعقلي وجنوني، المصح هو الخراب الذي أصبو إليه، بساط أحمدي، مكان هادئ ومعزول لتقاعد المتعبين من أمثالي بعيدا عن مناورات شيكل وعسعس والمدام، هذه هي المدينة الفاضلة، اليوطوبيا الأكثر اشتراكية فكل شيء فيها موزع بالتساوي، الجنون والأمصال ورائحة الصنة والخراء والبارانويا. هذه منفضة خالية من أعقاب السجائر (المجانين يدخنون السيجارة بكليتها مع الفلتر) هذه مزهرية فيها زهور بلاستيكية حال لونها لكنها لا تذبل، ليست هي الزهرة التي تذبل بل هو الوقت الذي يمر، إذن نحن خارج الزمان وداخل المكان، هذه السمكة الحمراء الوحيدة في الأكواريوم (هي الحياة الوحيدة العاقلة) هذا هو السور الذي يقسم الزمان الواحد إلى زمانيْن ويشطر المكان الواحد إلى مكانيْن، (شيزوفرينيا تامة) هذه الحديقة، الحديقة هذه تشبه صالة الخطى الضائعة في محطة سان لازار، عند الجنبين صفان من أشجار الدلب مثل فصيلة جنود شامخة الرأس تحيي قائدا مهزوما، هذه الحماقات المتراكمة، الحياة المستنزفة في التفاهة والعقم، هذا الوحش الذي يدفع فريسته إلى التخوم القصوى، هذا البلد المجنون، هذا البلد الذي لم يكن عاقلا في يوم من الأيام، موطن ميشيل فوكو وآرتو وألتوسر ونيجينسكي، إتْبَعْ دابّة الحياة أو إفْطَسْ وحدك، لا مكان

للموتى في متحف الأحياء، جننتني بلاد البقرة الفاقعة من الضحك، أحببتها أكثر من كل البلاد وكرهتني أكثر من كل الغرباء، حين وصلت فرنسا كنتُ ألقاني هنا وهناك في كيس النوم ممدداً على ضفاف السين، على مقعد عمومي عند أرصفة محطة أوسترليتز، في مأوى جيش الخلاص، أو بين رفوف مكتبة بوبور، في بيت عسعس، كان كل شيء متوقعا الا أن أجدني في عصفورية، يا لفداحة غربتي. أنا غريب غربتين، غريب عن الفرنسيس لأني عربي، وغريب عن المصح لأني عاقل، كان العالم مقسوما بين كفار ومؤمنين فصار مقسوما بين عقلاء ومجانين، من حفة تنكرية إلى حفلة تنكرية، بدَّلتُ حياتي بحياة أخرى، يتغير وجهي باستمرار لكن المرآة العاكسة لا تتغير، تشبه وجهي دائما، هذه الجثث، الخردة البشرية المنكسرةَ المرتعشة، زمرة المضادين للواقع، المرفوضين وأنصاف الموهوبين المدعوسين الضعفاء والمهزومين والطارئين والفاشلين الثَّوْرِيِيّن السابقين والحالمين من كل الأصناف، دخلتُ عليهم من برّه، من العالم الآخر الذي كادوا ينسونه، توقعتُ أن أثير دهشتهم لكن أحدا لم ينتبه لي (كم أحتاج ان لا ينتبه لي أحد) بذلتُ جهداً لأبدو عاديا، لكن ما معنى أن تكون عاديا في مطرح كل مطروح فيه خارق للعادة، أخالكم أيها القراء تستغربون كون حكايتي سلبية قاتمة رافضة للحياة، لكني أذكركم أني عصَابيٌّ مكتئب وأن الأدب الجيد لا يصنعه السلوك الجيد، أنتم ترفلون في الجانب الزين من الحياة بينما أنا في الجانب الشين، الملنخوليا هي الفكرة الأساسية عن قلق الحضارة، الاستلاب، الكآبة والفراغ والضجر، الفشل في القبض على الواقع، ممارسة العدمية بلا قصد او نية، وكل هذه المعاني تصح للمصح، الإنسان يحتاج للكثير من عدم الفطنة، مَنْ مِنّا لا يرغب أن يكون مجنونا ولو لمرة أخيرة ! الجنون يحررنا من شرط العقل الذي نحن فيه، الانحياز للبدائية يحررنا من أعباء الحياة العصرية، كل هذه الحيوات المعطوبة، وجوه ببعد واحد سطحتها العقاقير والإبر المهدئة كأنهم وجه مستنسخ عن وجه مونخ الصارخ، رسومات متحركة من كوكب والت ديزني، كائنات رخوة مؤقتة هلامية، يتصرفون بمقدار من البراءة، لا يميزون العيب ولا تقمعهم

نظرات العاقلين، يخرج منهم كل ما هو مسرحي وعلى درجة عالية من الدراماتيكية، لا يكادون يهدئون حتى يصخبون، يثرثرون ولا يقولون شيئا، لمْ تعُدْ لديْهم هموم ولا يبحثون عن مجاملة، يتأرجحون بين محترق ومُشَوَّش، كلهم (بدون حفظ الفوارق) معاتيه، فيهم من هو جامد مثل تماثيل متحف الشمع، ومن هو مخيف مثل ممثلي الرعب في أفلام منتصف الليل، تراهم وقورين في مشيتهم ثم ما يلبثوا أن ينفجروا ضاحكين، في كل العيون ترى نفس النظرة التي لا تُسبَر أغوارها، قطعوا أواصرهم مع الواقع بصورة قاطعة، شوّهوا الواقع لدرجة الكاريكاتورية، تخففوا من عفن المنطق لدرجة الحرية، يمشون هادئين غير مستعجلين، أجفانهم قلقة، حركاتهم مترددة، كأنما تحركهم من بعيد آلة ريموت كونترول، إنهم كما هم، ليسوا مجانين كليا ولا عاقلين بالمرَّة، يمكنك ان تصادف بينهم أكيس الناس وأحمقهم، نخبة حاملي الأوسمة والشهادات مع أصحاب السوابق والزعران، ناس غلابة غلبهم المنطق فسقطوا في السقوط الفكري والاجتماعي والنفسي، يتشابهون ولكن حدود الشبه تتوقف عند المظهر (الجنون) ففي الجوهر كل منهم له علامة فارقة (طبيعة جنونه)، كانوا بشرا عاديين بالمعنى الفرنسي للعادة ، عاشوا شباباً راديكاليا في اللذة واللهو والعبث والسكس، في الثلاثين ارتطموا في الفراغ، في الأربعين اكتئبوا، بحثوا عن المعنى هنا وهناك، من لم تتلقفه المذاهب والنِّحَلْ الخلاصية تلقفه المصح، كلهم عاديون في جنونهم، كل مجنون يختلف عن الآخر كما تختلف البصمة عن البصمة، جيرار مثلا كان مهندسا راجح العقل، بعد طلاقه أدمن الكحول، اكتَئب، تحول إلى بالع أدوية، إلى نكرة تدور بين الطاولات يقال لها جيجي. ماري لويز مصابة بمرض نفسي نادر، الشراء المتهور، كانت تدخل كل أسبوع متجر غاليري لافاييت وتشتري بعشرة آلاف فرنك من بطاقة الائتمان مما أدى بها إلى الإفلاس ثم إلى المصح (الجنون ابن الثروة والشباب والنرجسية) روزا عمرها بالكاد يتجاوز العشرين سنة، أجهضت ثلاث مرات، كانيبال يبدو عليه الوداعة ولكن في رقبته دم، قتل كلبه وأكله، بييرو يقول انه اخترع راديو من تسع موجات ، دادا له تجارب مع

الديانات الشرقيّة، يحلق حواجبه ويتلفع بثوب زعفران، كتب قصة جنونه في أربع صفحات ويبحث عن ناشر، كل يوم يبعث رسائل إلى غاليمار ويغلط بالعنوان تعود الرسالة وعليها عبارة retour à l’envoyeur[45]

[45] ترجمتها يعاد إلى المرسِل

فصلٌ في الجحيم

لم أكن لأصدق بوجود جهنم حتى وصلت إلى هنا
المجانين كالغجر تحبهم من بعيد أما حين تكون معهم فالأمر يختلف، هل أكتب شكاية إلى مجلس حقوق الإنسان للاحتجاج على الكيفية التعسفية التي بها زجوني في هذا الغولاغ؟ هل أهتف لأم قلب طيب كي تتدخل لتخليصي من هذا الأوشفتز العقابي؟ ولو والفتُ على هذه السموم التي يسمونها مهدئات فمن الممكن ان أفقد الإحساس بالوقت ولا أخرج بالمرة، الجنون لو جذبني فلن أمشِ إليه مشيا ولكن سأنزلق انزلاقا، لا بد ان يحصل تناضح بين السائلَيْن الرخو والمُشْبع، بطبيعة الحال لن يعقل المجنون بل سيجن العاقل، منذ بدأت أعرف حقيقة الجنون لم يعد العقل عقلا إلا في أقل حجمه، صرت أتوق لكل ما كنتُ أكرهه بباريس، حديقة الشاتليه، بوبور، مقهى بوسيف ولصوصه، مأوى جيش الخلاص وقمله وسكارجيته، شيكل وعيادته، عسعس ومسجده وتشنجاته، كنتُ أشمئز من كلمة منفى لكثرة ما رددها شعراؤنا الفلسطينيون بالطالعة والنازلة، ما كنت أستوعب كيف أن شاعرا يُنْفى من غزة إلى لندن، غير أني الآن أحس بهذه الكلمة تجسد نقطة التماس مع العدم، المنفى مُشْ نفي الإنسان من محيطه بل هو نفيه من إنسانيته، المرء قد يكون منفيا في وطنه فما بالك في عصفورية، مستودع العطب الإنساني والعقل المُعْتَقل، كانتون مغلق للحمق، منفى في المنفى، خارج الخارج، علبة صفراء ضخمة من جذام وطاعون وصرع، مكان مختل موحش ويصلح لروايات الرعب القوطي والأفلام الهتشكوكية، في الصباح يبدو كروضة أطفال، وبعد الظهر يصير مثل سيرك للتهريج، عند المساء يصير أشبه بحَارَة ضيقة فُرِض فيها حظر التجول، وعليَّ ان أنام بعد ابتلاع السموم حتى لو كنتُ أرِقاً، وعليَّ ان أتناول الطعام في عين التوقيت حتى لو لم أكن جائعا، مع أفول الشمس يُقْفل الباب المفضي من الصالون إلى الحديقة ويُقْفل الباب المؤدي من غرفة الطعام للصالون ويبقى باب واحد مفتوح، ذاك المؤدي من العنابر

إلى المراحيض والروائح الكريهة، لكن النعاس سرعان ما يهبط بفضل الأقراص المنومة وتظهر أشباح الليل، ثم ينبثق يوم جديد لا أعرف ترتيبه بين أيام الأسبوع، اهترئت رئتاي من رائحة الخرا ومن التدخين ومن التجول متفردا بين العنابر ، أصبحتُ أكثرة خبرة في ترتيب الفراش (كنت قد اكتسبت هذه المهارة في مأوى المشردين) ظلت علاقاتي مع نزلاء المصح مختصرة ومواربة ، علاقات رجل لم يجن تماما ولم يعقل تماما مع مجانين تامين، اما علاقاتي مع الممرضين فقد ظلت متوترة وحذرة فقد علمتهم رئيستهن ان يرفعوا أصواتهم بوجهي لأتفه الأسباب ، الإقامة الجبرية طالت والاستثناء صار عادة، ربَّك لا يعلم متى يطلقون سراحي، مدير الشرطة نسيني، ويتهيأ لي ان مدام w w[46] (التي ليست إلا رئيسة سجانات في هيئة رئيسة ممرضات) قد فعلتْ كل شي حتى يُحْجر علي لأطول مدة ممكنة، هذه الأنثى تشبه نجار التوابيت وتكاد تكونه، عسعس أمامها يبدو ملاكا، صلفة متزمتة شوفينية عنصرية، كانت ناظرة في مدرسة رهبان يسوعيين ، حيث يسود انضباط اسبرطي صارم، قبل ان تصبح رئيسة ممرضات في المصح حيث تسود فوضى عارمة ، وعليَّ ان أرمم التصدعات الناتجة عن الخلط الهائل بين النظام والفوضى ، وضعتني في عنبر الجربانين kratzeblock في أقرب غرفة إلى المراحيض مع أكثر المجانين جنونا، في مراهقتي كنتُ أنظر إلى المرحاض على انه هايد بارك العرب، او الفسحة الوجودية الوحيدة الذي تضمن حرية التعبير، كنتُ أستمرئ حريتي في الكنيف، أقضي فيه أوقاتا حميمة، أعيش في السر علناً، أشخ وأبول وأمارس العادة السريّة علناً، على جدرانه أكتب شعارات مضادة لطوطم وصلعم، علنا، لكن مراحيض المصح لا تُحتمل، تفوح بكل روائح الخراء والبروزاك، مرة قلت لها "الرائحة كريهة جدا "قالت لي " وهل الرائحة في بلادك أزكى؟" بنت الحرام رأتني عاقلا وتريد ان تساويني بالمجانين، وحين سألتها متى أخرج من الكرنتينه؟ قالت "غدا " وفي صباح اليوم التالي ابتسمتْ ابتسامتها

---

[46] w w= اختصار اسم weight watcher او رئيسة الممرضات السمينة

الشنيعة وكررتْ "غدا عليك بالانتظار "، كنتُ أنتظر موعدا كلما أصير فيه تؤجِّلُه إلى الغد، تتلاعب بالكلمات وتسوِّف، أفهمتني بلامبالاة صقيعية أن [غدا] هو اليوم الذي يتلو نهارنا ب 24 ساعة،"يوما ما " حسب مارك توين ليس يوما من أيام الأسبوع، إذ سألتُها "في أي يوم من أيام الأسبوع نحن؟" قالت " ماذا يهمك إن كان اليوم أحدا أو اثنين، ماذا يهمك إن كان الفصل ربيعا أو شتاءا، أنت هنا في الجحيم وعليك ان تتعود على حقيقة أن لا معنى للزمن في الجحيم "، حقا قالت هذه الضبعة، فلا يمكن تحديد الأيام، لا جرس كنيسة يدق يوم الأحد، لا زمور خطر يزمر يوم الأربعاء، لا يهودي يسبت يوم السبت، لا مسلم يتهيأ ليوم الجمعة باحتفال وبذخ، لا روزنامة، لا ساعة حائط، لا مؤشرات ولا أبعاد، لا شيء سوى مجانين، نحن خارج الزمان والمكان لأننا داخل جحيم الأبواب المسكرة، السنة كبيسة من 40 شهراً، الشهر كبيس من 40 يوماً، اليوم كبيس من 40 ساعةً، الزمن ينساب فقط في العالم البراني الممتد خارج الأسوار، دارت الأيام ومرّت الأيام، أطلَّ عيد الميلاد على باريس وتزيَّنت اشجار السروُ بالهدايا وأنا أنتظر في حقول الريح، هلَّ رأس السنة وتلألأ برج إيفل بالأضواء، شرب الناس كؤوس الشمبانيا وأنا أتجرع سموم البروزاك، جاء السان فالنتينو، تعانق العشاق عند نافورة السان ميشال وتهادوا ورودا حمراء وأنا أجترُّ وحشي، وردتي السوداء، أربع أشهر كبيسة في عزلة عارية، دخل الصقيع في كياني كي لا يخرج أبدا، الجرح أصبح متراسا وجحور الوحش أصبحت كهوفا، انغلقتُ على نفسي وانفتحت على الثلاثة من سجوني، إحباطي جنوني وسباتي الشتوي، الوحش سجنني داخل منطقه ومنطقته، لم أعُدْ أبدل بيجامتي فهي صالحة لليل والنهار ولكل الأيام، لم أعد أستحم، عين الجنون أن تكون أنظف من بقية المجانين، لم أعد أحلق ذقني، أضربتُ عن الطعام فمارسوا علي التغذية القسرية بالأمصال، تبلد ذهني فلم أعد أقْوَ على شيء (الكسل هو الاستثمار الأقصى للوقت الضائع، عدم القيام بأي شيء هو أيضاً علاج ناجع) فقدت القدرة على استيعاب مغامرات تان تان، غير اني ما زلت أمشي بانتظام، أستطيع أن أقوم بنزهة في الفناء 100

مرة يوميا، مشية على وتر واحد من السور القبلي حتى السور المقابل، احسبوا معي، إذا كانت المسافة بين السورين تساوي 80 خطوة فأنني أمشي كل يوم 8000 خطوة، لا شك أن عداد بوبور الرقمي نقص عشرة ملايين ثانية، أضربوا 60 × 60 ×24 ×30 × 4 فسيخرج معكم عدد أكبر من عشرة ملايين بقليل، أضربوا 8000× 30 × 4 سيخرج معكم عدد أقل من مليون خطوة بقليل، الكارثة الحقيقية تُعَد بالملايين، ملايين الثواني والخطى المهدورة من عمري، هي على كل حال مهدورة هنا او هناك، فقدتُ القدرة على تمييز الألوان لكني ما زلت أقشع بوضوح، المصح ليس حجابا يسترني عن الكون بل شرفة تشرف عليه، الإقامة هنا إقامة في الرؤيا، كل مكان ضيق هو مساحة للجدل مع الذات، الحبيس غالبا ما يحول الحبس إلى مفازة ذهنية، إلى مجال حيوي للخلو الصوفي والانسحاب إلى الداخل، من خلال السور الشفاف أستطيع أن أبصر القصور الباذخة التي لا توجد إلا في اللوحات، استطيع أن أسقط على السور أسربة أوهامي، الأمكنة الموصدة تخلق ميكانيكا مدهشا سحريا ، فقدتُ القدرة على الطعان لكني ما زلت أحلم، أحلم إني أطير في أحسن السموات راكبا على ثلاث خيولٍ أندلسية مطهمة، أحلم إنني مع زوجة حنون في بيت دافئ، وسط عيون أطفال تشع بالفرح، السعادة بكل رثاثتها كما يتخيلها محروم من السعادة، مجرد حلم يشتعل باشتعال السيجارة وينطفئ بانطفائها، أحلم بإحباط أقل، أحلم بيوم بلا بروزاك، أحلم بيوم لا أحلم فيه، أحلم دائما لأني ما زلت أؤمن بمعجزات وخوارق، شيكل قال لي أن عبارات التفاؤل التلمودية لم تظهر إلا في تيه سيناء، مدامه قالت انها ترسم لأن الفن تعويض عن نواقص الحياة، عبد السميع يقول انه يصلي لأنه يريد الجنة، هذا ما كرره لي المرحوم يانوش بأسلوب مختلف ومعانٍ متفقة، كان يسرف في شرب الفودكا لأن السعادة مستحيلة، الإنسان ينكر الواقع باستمرار لذا يسكر، يرسم، يُشْعر، يصلي، يحلم في الليل ويتخيل أناء النهار ، كان هناك ذات مرّة سعادة، وكان كل شيء واضحاً وفي مرمى اليد، ما كان سيكون حتما، الحاضر كئيب والقلب يحيا في المستقبل، كل شيءٍ سيمضي، ما سيمضي سيصبح

أجمل، الشجرة الميتة لن تورق لكن هذا لا يعني أن علينا قطع كل أشجار الغابة، في مستشفى المجانين يوجد أشياء أخرى سوى الجنون، ثمة العدم، السقام، التَّوَحُّد، الوَحْل، المَحْل، الدّم، السعال، البصاق، الفراغ، السأم، رائحة الخرا والصنة وكيد وايت واتشرز، ، لم يعد الفارق واسعا، بإمكان الوحش أن يستوحش، من يتقفى الأثر زمنا طويلا يتشابه مع ظله، إنها مسألة وقت، يحكى عن سجين سياسي سوفيتي انه من أول يوم وصوله إلى الغولاغ راح يتأفف من الصقيع والجوع والإذلال، فضحك أحد المُغَوْلغين المخضرمين ونصحه أن يصبر شوية فأول عشرين سنة هي الصعاب وبعدها يتأقلم، على أن تشابه القصص لا يعني تشابه النهايات، ولن يغني الأمل عن الانتظار، في اللغة اللاتينية مصدر فعل[يأمل] sperare هو نفس مصدر فعل[ينتظر]، الحكمة قالت نصبر، صبر المقهور على القهر شجاعة، في كل الفوضى يوجد كون، في كل الخلل هناك نظام سري، للإحباط هندسة معمارية طلسمية قوسها الأساسي قائم على رقم ذهبي لو كشفت سره لجاز تقويض الوحش ، مع المستحيل يجب المحاولة دائما حتى يصبح ممكنا، إن أنجع وسيلة لعدم تقديم تنازلات للوحش هي أن تتوحش معه، يقاوم الجندي عدوَّه بسلاحه، تقاوم الوردةُ قاطفَها بشوكها، يقاوم الثعلبُ صيادَه بدهائه، تصد الأعشابُ العاصفةَ بانحنائها، إلا المحبط فلا يسعه أن يقاوم إحباطه إلا بإحباطه، بالموالفة عليه (خط ماجينو سقط لا بمواجهته بل بالالتفاف عليه) في التكتيك الصيني فإن كل الغزاة الذين اكتسحوا إمبراطورية الوسط كانوا في نهاية الأمر يتصيَّنون في العدد الشاسع، في التكتيك الروسي كانوا يسمحون للغزاة بالتوغل ليحاصروهم بالمساحة الشاسعة، تعلمتُ من كارثتي ألا أنتظر شيئا من الخارج وأن أدمن على دمار القلب، متخذاً من السقوط درعا لي لن أخشى سقوطا أكثر، رضيتُ بالوحش، وحشي الذي أنستُ به وضقتُ، أفضل طريقة للتعايش معه هي أن أدمن على غضبه الأسود كإدمان يابان على إعصار التيفون، سأمارسه بإتقان حتى يصير جهنّم، أنذر حياتي له كشمعة مضاءة تحت قدمي قديس، ألتحمْ به بالطاعة والانسجام ، أقاومه قليلا وأطيعه كثيرا، سأتجرعه حتى

المناعة، أعطيه من إنسانيتي وطمأنينتي وآخذ من وحشيته وقلقه، نتبادل الأدوار ويتحول الأصل إلى نسخة، وتحل تلك الطمأنينة الأبدية بيننا، نتعايش تحت سقف واحد، ننزف، نحترق، نتوحش، نتحارب ونتحاب ونتوحد، كائنيْن ناضجين متكاملين، ننجب طفلا يتابع الطريق ويتحقق فينا لغز التجسد، أثق به لعقدٍ من الزمن ثم أجدد الثقة لعقد آخر، أنسجم معه ثم أعيدُ انسجامي، وأعيشه كشرط إنساني، ببطولة سيزيفية فيها من العناد ما فيها من العبث، بأعلى درجة من اللامبالاة، لا بد أن أتضلّع يوما في فهم هندسته ورياضياته، ربما يسقطني في التقادم، قد ينسى من فرط افتراسي إني فريسته، أو أنسى من فرط افتراسه لي أنه مفترسي، وبعد طول معاشرة سيتحول من وحش متوحش إلى أليف، مع الوقت تصبح المأساة ملهاة، يصبح اليأس عادة، عبادة، يتمسح جِلدي مثل حيوانات السيرك المسكينة، يتحول الألم إلى لذة خبيئة في الأعماق، هي حرب الوحش الطويلة الأمد، لم أستنفذ ما بجعبتي من حِيَل، سأتظاهر بالجنون حتى أجننه، سأمشي وراءه على دعساته وأسايره حتى تنشلّ خطاه، أخضع له بكامل عبوديتي مثل أَمَة مملوكة ثم أستملك قلبه وأتسيد عليه بدهاء النساء، كما فعلت تلك الشابة في فيلم نوسفيراتو، ضحَّتْ بنفسها لإنقاذ المدينة من طاعون مصاص الدماء، ساهرتْهُ الليل كله متعمدةً إطالة السهرة حتى الصباح ليقضي النور عليه، وآخرتها يعني، دوام الحال من المحال، الحياة لم تضق يوما بشاعر، غدا يورق في جدبي فيضان الأمس، غدا يتآخي الضرير بالظلمة، وتتوحد الريح بالعاصفة، سيظل يأسي أوسع من شراسته، سأحطمه بحطامي، أحرقه بحريقي، أفقده صوابي وأجّنِّنه بغبائي، الوحش وحشي غير إني وحشه، كل هذا العار سيمضي ويصبح ذكريات، أتعبني هذا الوحش ولسوف يأتي يوم يتعب فيه هذا الوحش من نفسه، أمامي زمن طويل لأحيا ملهاتي ، لا بأس إذا انتظر البائس حتى إشعار آخر ، لماذا تحبَط أقل إذا كان بوسعك أن تحبَط أكثر؟ الإحباط هو الشيء الوحيد الذي يقصر كلما طال، 9 أعوام دام حصار طروادة، 20 عاما تحمل عوليس نزق الأقدار والآلهة، الشوق الحقيقي لا ينبغي أن ينتهي بالوصل ، عندما يبالغ الوحش في

وحشيته فاعلموا إنه يعيش أيامه الأخيرة، اني لا أتألم الا حين أتنفس، ليس في الأمر ما يدعو الى التوقف عن التنفس ، اذ دائما يحين الوقت الذي تعتاد فيه على الألم ، حتى اذا زال الألم أوجَعَكَ غيابُه [47]، ليس همي الأساسي ان أتخفف من وحشي او ان ألغيه ، المهم ألا أدعه يُفقدني انسانيتي لدرجة الحيونة ، وأريدكم أيضاً أن تعلموا أني ما زلت واقفا بشجاعة وسط العاصفة كأولئك الرجال الذين فقدوا كل شيء إلا أنهم يحتفظون بإرادة الحياة، خسرتُ مخالبي وبراريَ ولم أخسر ذئبيتي، أحرقت جسوري مع الضفاف ولم أحرق المجداف، لا زلت ممسكا بقشة واهية في الطوفان، عنادي، الوحش كسب جولة ولكن ذلك لا يعني أن لانتصاره مدى وغدا، ورغم إني لن أستردّ ما سرقه من أيامي إلا إني سأواصل العيش معه بالكفاح اللامجدي، لن ينال من القنفذ إلا أشواكه، لستُ أول شخص يحبط ولا آخر شخص ولكني لست أي شخص، أنا رب العزم والجسارة وأستطيع أن أحبط الإحباط.

---

[47] اني لا اتألم .. اوجعك غيابه ، من بسام حجار

أبو عيد يثأر لرمضان

كنتُ أهجس بها هي الساحرة الشمطاء ذات الأنف المعقوف، كنتُ أحلم أني أفقأ عينها الزجاجية الباردة، وأذبحها من الوريد للوريد، وأصب الرصاص المذاب على جراحها، كنتُ أستمع إلى أنينها بأعذب موسيقى سمعتها أذناي، حين لمحتُها هي عينها مدام ww واقفة قبالتي فتحولتُ إلى صرصار من الدرجة الثانية، تمنيتُ لو اعتمرتُ طاقية الإخفاء كي لا تراني، بعثرتُ نظراتي كي لا أراها (الوقوف أمامها كالوقوف أمام منصّة الإعدام) طأطأتُ رأسي خشية أن تكون قد قرأتْ أفكاري، ورأيتُ أن أؤجل أحلامي إلى ما بعد نوبة الأدوية التي ستجعلني أكثر شجاعة

أقبل جانو وقال:

" أنا مدين لك يا صديقي الأسد ب10 فرنكات، زدني 10 أخرى وهكذا أصير مدان لك ب 20 "

أعطيته ما أراد ثم صادفتُ جاكي في قاعة الطعام، أعطيته سيجارة فقبض عليها بإصبعين عصبيتين، شممتُ رائحة خرائه على أصابعي فمسحتُ يدي القذرة بالنظيفة ووزعتُ الوسخ بالتساوي على اليدين، ما فائدة النظافة مع قذارة كلية الحضور؟ نحن ما زلنا في عصفورية، لا تنسوا، المجنون له عقله الخاص به، يمتاز بحصافة ما ويستنتج بالمقلوب ويجب أن نحترم هذا...

مجَّ جاكي السيجارة بطريقة خرقاء تدل على انه غرٌ بالتدخين، أعلن إنه يريد أن يزور بغداد بوفد رسمي للبحث عن بيت سندباد، وضع السيجارة بطرف فمه الأيسر وأمسكها بيمناه ، سألني:

" هل صحيح ان لغتكم العربية تكتب بالعكس من اليمين لليسار؟"

"بالعكس" ، قلتله "هي لغتكم الفرنسية التي تكتب بالعكس"

ثم سألني كيف دخلت الطاولة الكبيرة من الباب الصغير؟ أفهمته أنهم نصبوا الطاولة أولا ثم أسسوا القاعة فوقها، هنا يمكنك أن تصل إلى استنتاج صحيح من مقدمات فاسدة، الجنون مش حماقة بل حكمة من نوع آخر، أكثر المجانين جنونا قد يكون أعقل العقلاء، في هذه الأثناء كرَّجَتْ الممرضةُ النوبتجية كراجةَ الأدوية

بين الطاولات وناولتني سموم نوبة الغداء، لاحظتُ ان جرعتي من البروزاك تزيد عن جرعة الآخرين، سألتُ رئيسة الممرضات عن السبب فقالت :
"لأنك مجنون أكثر من الآخرين "
أعلنتُ اني لن أبلعها وأغلقتُ فمي فهددتني :
" إذا رفضتَ بلع أدويتك من فمك فسنبلعك إياها من مكان آخر"
خشيتُ على عذريتي ، ولم يكن بوسعي سوى ان أغمض عيني وأدلق كل شيء في مصاريني، بينما وقفتْ هي معنزقة مثل ديك غلوازي وأمرتني ان أفتح فمي لترى ان كانت الحبوب عالقة بين اللسان واللثة والأسنان، هذه القهرمانة العكروتة ستريني نجوم الظهر، تستمد بأسها من رخاوتي وتتقوى بضعفي، عيونها الضبعية دائما تترصدني، كالقرصان الشرير الذي عليه من وقت لآخر ان يقتل واحدا من رجاله حتى لا ينسوا انه شرير، تقلصتْ شهيتي على رؤيتها وانعدمتْ تماما وأنا أرى خنانة جاكي تختلط مع الشوربا، هذا المعتوه ناهيك عن أنه شريكي في طاولة الطعام فهو يشاركني الغرفة ويشاركني سجائري ومأكلي وثيابي، وأشاركه خرائه وصنته، انه من قدامى المجانين وقد يكون عميدهم، كان معلم مدرسة لم يقدر على ضبط التلامذة، وَسوسْ في بداية شبابه فشُدَّ بالمارستان وبقي فيه، منذ عهد بومبيدو وهو هنا يشتي ويصيِّف بعين المكان وهذا دليل على ان العيش هنا ممكن جدا
تنازلتُ له عن وجبتي المكونة من شريحة جامبون وعصيد البطاطا فنهرتني مدام W W :
" هيه بونيول. لماذا لا تأكل حصتك من لحم الخنزير؟ انه حلال ومذبوح على الطريقة الإسلامية "
لم أرد عليها لعلمي ان مجرد الرد سيعطيها ذريعة للمزيد من السخرية، انشالت عيناي نحو السمكة الوحيدة في الأكواريوم، أنا مثلها وحيد في الماء ولا أستطيع العيش بدون ماء، نحن كلنا هنا للأبد ومدانون لأن نتحمل بعضنا للأبد،
وارتفع صوتَ مذيع نشرة الأخبار في التلفاز بلكنة محايدة لا تميز بين دم القتلى وموزلين الممثلات، وراح المجانين يدورون حول

الطاولات مثل بندول الدقائق ثم راحوا يدورون بعصبية بندول الثواني، خيل لي أن الطاولات هي التي تدور حول المجانين، عندما تحدق في جهنم عميقاً فإن جهنم تحدق في عمقك، كيف أقاوم التشوّش في هذا المكان الضاغط ؟ نوتردام دي نون سانس [48]، مسرح الفظاظة، وهذا البروزاك يدمر كل صوابية، يخصخص العقل ويأمم الجنون ، هذا التلفاز، العالم المجازي وقد تقلص في شاشة مربعة، الحد الأدنى من الوجود.....
نهضتُ عن الطاولة المُشَمعة لأشتري، تخيلوا ماذا ، جريدة الأهرام والخبز المحلى بالزبيب ، لكنني بعد عشرين خطوة اصطدمتُ بالباب الموصد، واصطدمت بالواقع، بها، بكل ما في قلبها الأسود من سواد، كانت خلفي تترصدني مثل عقاب يبحث عن مذنب، سألتها ولم أكن أمزح:
"أين أجد أقرب مخبزة في البيكاردي؟
فقالت بصوت أحادي الوتر :
"في باريس"
تذكرتُ سالفة أحد السجناء السوفييت العطشانين في الغولاغ، سألَ سجانَه "أين تقع أقرب خمارة في سيبيريا؟" فأجابه "في هلسنكي"
راوغتُ كثعلب مُحاصر يبحث عن فجوة في السياج، بلغتُ الحديقة وتأملتُ السور الفاصل عن عالم العقّال، يبدو بعيدا في المسافة والزمن ذلك العالم الذي تركته منذ 130يوما، هي أيضاً بعيدة، بعيدة جدا، كم ساعة الفارق الزمني بيني وبينها؟ ليتها تسمعني وأنا أفكر بها، لعلها تعزف على البيانو ، او ترسم سموات حمراء وبحارا سوداء، او تداعب وبر القط أو تنزه الكلب، وعبد السميع ماذا عساه يفعل الآن؟ يخرج من المسجد ليتوجه إلى بوبور، وشيكل في هذه اللحظات ان لم يكن يدهلز على زبون ما ببرشامة حليب المهرة فأنه يبصبص على أفلام البورنو في حاسوب مينيتل 3615، أستطيع ان أتخيلهم كلهم ولا يستطيعون أن يتخيلوني، لا يعرفون إني أذرع الفسحة الممتدة بين الشجرة الثالثة والرابعة،

---

[48] ترجمتها سيدة العبث / البيكاردي = مقاطعة شمالية فرنسية حيث تقع مدينة كليرمون والمصح FOR EVER/ ترجمتها للأبد

وإني بلغتُ الشجرة الخامسة في هذه اللحظة بالذات ، وإني بعد ثلاثين خطوة سأبلغ السور القبلي ثم أستدير للوراء، أنا أيضاً لي عين ثالثة وبوسعي ان أرى دون أن أُرى...
تريثتُ عند شجرة دلب، حفرتُ في لحاء الجذع شكل قلبين في أحدهما اسم رمضان وفي الثاني اسم الوحش وقرنتهما بكلمة FOR EVER، جاء جانو وقال:
" صديقي الأسد، هات عشرة أخرى ويصيروا 30 "
لم أستطع ان أرفض طلب هذا المخبول الذي يشبهني في كره أمه، وحتى لا أتوغل في التفكير بوالدتي فكرت بالمدام، ثم صعد فكري الى كنار المدام، ترى من يشتري له القنبز الآن؟ أحسستُ بأعصابي يعصرها ألم مترابط شبكيّ كآلام البتر، الألمُ الذي يستهزئ بالحواس، إلى أيِّ مدىً يمكن أن يصلَ الوحش في وحشيته. ألا يمكن اختراع بارومتر للوحشة ؟ لقد اخترعوا القبّان لقياس الوزن، واخترعوا المتر لقياس المسافات، الساعة لقياس الزمن، لكنهم لم يسبروا ما لا مسبار له وما لا يُتَصور. ، ولا مفر الا من المدخنة القرميدية ، بعد ان يتحول رماد جثتي الى دخان ، اين اختبئ الله حين كان شعبه المحتار يحترق في محارق الغاز النازية ؟..
أحسستُ بحشرجة مخنوقة، ماء حار نبعَ ارتجالاً من أعماق بركة آسنة، خبأتُ وجهي، في الجحيم الحقيقي لا يوجد باتوس ولا بكاء فلماذا أُئَنْسِن جحيمي بدموعي؟...
عدتُ لتزجية الوقت الضائع بالعد على أفتار أصابعي، عديتُ للستين، للمائة، للمائة وستين، نظرتُ للساعة في معصمي فرأيت عقرب الدقائق يسير ببطء شديد(منذ نصف ساعة لم يتحرك إلا بمقدار خمس دقائق) شلحتُ الساعة وقذفتها خلف السور، الساعة أداة لقياس الوقت الضائع، ما فائدتها ان كنا هنا للأبد، على إني بقيتُ أنظر الى معصم يدي اليسرى في نظرة ميكانيكية والفتُ عليها ، في عنبر المجانين تراءى لي شكل غريب ومألوف، رجل مونخ الصارخ عند الجسر، إلتفتتُ عن يميني وعن شمالي وحولي، نفس الوجه المرعوب مكررا كذا مرة كأنني في قاعة المرايا، أعرف هذا الوجه الموميائي انه وجهي، كأني أنظر في

مرآة، صورتي ، شخصورتي، إنه مونخ نفسه، للجنون وجه، للجنون أنف وعينان وفم وأذنان...
دنوتُ من رئيسة الممرضات وقلت لها :
"إني أرى أشكالا غريبة وأحتاج لبرشامة مهدئة "
" لا بد انك عطشان كالكابتن هادوك حين تراوده الخمرة يرى تان تان في شكل قنينة ويسكي "
ميَّزْتُ في قولها وجاهة ما، فالقبطان هادوك كان فعلا مصابا بشيزوفرينيا الفصام تبعاً لحالتَيْ الصحو والمحو، ونفذتْ رائحة الخراء إلى أنفي حتى كدت أتقيأ أمعائي، لويتُ رقبتي نحو التلفاز، في الشاشة إعلان دعائي لوكالة سفر وسياحة، شاطئ تاهيتيْ وسنسول خشبي يفضي إلى يخت فاخر عند جؤجؤئه عاشقان يتشمسان، ما أقرب التلفاز مني وما أبعد تاهيتي عني. ما أكثر السعادة وأقلها ، الوجه الإنساني بوجهين، أين عدله فينا؟ هذا الله لو كان موجودا فهو حتما مجنون وسادي، كان يلعب طرة نقشة حين وزَّعَ الشقاء والسعادة، ما فائدة ان تمتاز بعقلك إذا انجن رَبْعُك؟ أنا جزء صغير من الخطل الكبير، أنا مجنون كلينيكي بَيْدَ أني لم أفقد عقلي تماما، كساعة معُطلة توقفت عقاربها ومع ذلك تعطي الوقت الصحيح رغما عنها مرتين في اليوم، أنا لم أكن عاقلا لهذه الدرجة إلا بمستشفى المجانين وسأثبت لكم إن ما تسمونه جنونا ليس إلا حدَّةً في الحواس [49]، ألم كبير ، مهما تقنع باللامبالاة ، فإنه في نهاية الأمر سينفجر في عنف عنيف ، أنا لا أعرف معنى الجنون إذ انني ما كنتُ يوما عاقلا، كيف أميز الواقعي من اللاواقعي؟ وهذا الجحيم يشبه قبرا فرعونيا موَشى بكتابات هيروغليفية ، وهذه الأشباح التي لا تني تتحرك، أصدقائي القدامى، الحشدُ المُترنِّحُ للكتلة الجنونية الصماءّ، هذا الهواء الملوث برائحة الخراء والصنة والبروزاك ،الحياة لا تبدو معقولة إلا لغير المكتئب ولمن لا عقل له، لا يمكن للعقل أن يتحكم بالواقع ما لم يصبح الواقع في حدّ ذاته معقولا. كنت دائما عتيا جبارا في أحلامي فقط، ترى لماذا لا أحقق هذه الأحلام ولو لمرة واحدة ، مرة واحدة نهائية ؟

[49] سأثبت لكم إن ما تسمونه جنونا ليس إلا حدَّةً في الحواس اقتباس من آلان بو

وقفتُ بين النائم والمتيقظ مزدحما بيأسي، ترنحتُ ببلاهة تامة والخَدَر يشل أطرافي، جعلتُ أدور حول الكراسي كمجاذيب الحضرة، وأرقص رقصة هجينة بين هز الخصر والمارش العسكري، سمعتُ صوتها يتناهى إلي :
" هيه. أنت bongole dingo;timbré[50]كف عن التهريج "
تحول الغضب في دمي إلى غرغرينا وجعلني أرى كل ما حولي باللون الأحمر (الثيران ، بخلاف البشر، لا تميز اللون الأحمر، تلويح الراية بيد التوريرو هو ما يهيجها) جمدتُ مكاني مثل علامات استفهام كبيرة، الجنون هو الدائرة والعقل هو المربع، وأنا أريد تربيع الدائرة، أنا صرصار غير اني نمرود، أنا أول من يعصي وآخر من يطيع، أنا أبو عيد مش رمضان، أنا الشئ ونقيض الشيء واللاشيء، أنا المغوار دون كيخوتي، بطل اللابطولة، أحد أشكال الجنون هو أيضا جنون العظمة، الميغالومانيا، أنا الدكتور فولامور القنبلة الموقوتة، سلاح الدمار الشامل، السقوط غريزة خفية شبيهة بغريزة النسر وهو يمزق فريسته، أحياناً تكون الكلاب الغاضبة أكثر حكمةً من النمور المدرّبة، أنا صبور إلى حد ما لكن اذا عيل صبري أقول للشر مرحبا، الفلسطيني مهما أذعن يظل في حالة رفض...
اقتربتُ منها بخطوات ثابتة، عاينتها بعيون متحفزة :
" من تقصدين ببونيول؟ "
شبكتْ ذراعيها على صدرها في بأس عسكري :
"وهل يوجد بونيول غيرَكَ أنتَ؟ "
اقتربتُ منها أكثر ورفعتُ صوتي أقوى :
" ضمير المخاطَب يُستعمَل بين الخلاّن، هل أنا وأنتِ خلان؟ "
لأول مرة ينفعل وجهها البارد وترمش أهداب عينها الباردة :
"ما بكَ اليوم ألم تبلغْ الحبوب المهدئة. "
رفعتُ صوتي وأنا اقترب منها :
" صيغة (أنت) تُستعمَل بين الرجل وزوجته، هل أنتِ زوجتي ام تراني رَجُلَكِ؟"

---

[50] ترجمتها عربي سخيف احمق مجنون

خفضتْ صوتها وهي تبتعد عني :
" ما هذا الكلام؟ "
حدجتها بثبات في عينها، في بؤبؤ عينها الزجاجية، صرختُ بصوت مجلجل :
" هل نمتُ معكِ يا قحبة حتى تناديني بِ أنتَ؟"
صار صوتها هامسا، تأتأتْ :
" كيف تريدونني ان أناديكم؟"
" أريدَكِ ان تناديني مثلما أنت تناديني الآن، بضمير الجماعة "
شعرتْ بالخطر فتراجعتْ، نظرتْ حولها باحثةً عن ممرضة تستنجد بها وإذ لم ترَ أحدا جربتْ معي وسيلة أخرى:
" مسيو، اذا لم تعجبكم الغرفة المطرفة مع جاكي، أضعكم في غرفة أنظف مع جانو "
جانو، جاكي، جيجي دادا. فات الميعاد، حد الجنون ان نجن بلا حدود، للجنون مزايا إضافية، يرفع التكليف والمسؤولية ويحررنا من وطأة التفكير، الجنون ليس شططاً ولكنه فكرة صاخبة عن العقل، ميتافيزياء لحظية وجدانية مُحرَّضة ديناميكية، التخريب ليس تخريبا ولكنه إعادة ترتيب، أنا مسكون بطاقة مدمّرة لكونها عاجزة أن تكون بنّاءة...
فقدتُ إحساسي بالنظام والأشياء، حصل ما حصل كشيء حتمي، بخطوات ميكانيكية تحركت (أنا هو المتحرِّك لكن المحرِّك هو الجنون) طوَّحتُ مزهرية الأزهار البلاستيكية، فَشّيتُ خلقي بالطاولة بركلة حاقدة، وحملتُ كرسيا ضربتُ الشاشة بضربات يائسة طاخ طاخ، أغلقتُ النافذة الوحيدة المُشْرعة على العالم البراني بتاع الأكاذيب والتهاويم، أغلقتها ألف شقفة، أغاظتني السمكة الحمراء الوحيدة بالأكواريوم، أجهزتُ عليه بضربة فسالت الماء وأخذت السمكة تلعبط بين الطاولات، لحقتها بضربات متلاحقة حتى نفقت، قتلتُ الحياة العاقلة الوحيدة فأصبحنا كلنا متساوين أمام الجنون، داهمتُ غرفة المناوبة صارخا :
"أنا مُشْ بونيول، مُشْ مجنون، أنا عقل عظيم، سأكسر جمجمتك يا عاهرة "

انطلق زمور الخطر، بدأ العالم ينهار فوقاني تحتاني، ارتميتُ جزئا لا يتجزأ من الخراب، ارتمتْ عليَّ وايت واتشرز ببنيتها الهيدروليكية، وضعتني في قمصلة المجانين، جرجرتني إلى غرفتي وكومتني على السرير ونفذ شيء حاد إلى فخذي، دخلتُ في غبش ثم في شخير كشخير ثور ذبيح.

المهدي غير المنتظَر

" جهّزْ حالك "
قالتلي دون أن أستوعب قصدها، هل ستضعني في الفلق عقابا يليق بجريمتي؟ هل ستجرب بي عقارا طبيا أعتى من البروزاك؟ هل ستضع لي حفاضا كما فعلت مع جاكي اندريه؟ هل ستجرب بدماغي الصعقات الكهربية كما فعلوا مع أنتونان آرتو؟ هذه القهرمانة الشرسة دائما تتكلم بشبه الجملة المبتسرة وتريد أن تكون مفهومة....
أشعلتُ سيجارة وقررت اني جاهز لكل الاحتمالات، قعدت أتفرج على المعاتيه ببلوزاتهم الموحدة وهم يدورون حول الطاولات، من خلل دوائر الدخان الحلزونية لاح لي شبح دخيل على أشباح العصفورية، شبح ضليع في ذاكرتي، انه عبد السميع بطلَّتِه الدراماتيكية، يده اليسرى مجبرة بالجبس الطبي، يا صباح السوء. كلما حاولت نسيان هدا الصرصار يطلع لي ويذكرني بوجوده، عنيد عنيد حقا هذا الحلزون. يجي كالهباء حين لا أنتظره، يجيء متأخرا بعد تفاقم الخراب، يروق له ان يراني شجرة ناشفة ليقيس مدى اخضراره، يعمق طمأنينته في قلقي، ويثبِّت عقله في جنوني...
رمقته بعينين خاليتين من المشاعر ثم أزحتُ بصري عنه كأني لم أتفاجأ بهذه الزيارة الفجائية، كأني لا أعرفه، كأن الشخص الذي جاء يزوره ليس أنا، جاء وتَسَمّرَ قُدّامي مثل الفانوس السحري، رآني كمومياء محنطة في حالة من الليتارجيا واختلال الحواس، رآني إنسانا تعبان من الحياة ويتقيأ الحياة، فرفع نظارتيه ليتأكد من تفاصيلي، وجهي الفاجع ونظرتي البليدة، لامبالاتي، شفاهي المتيبسة وأطرافي المهتزة، رأى الخنانة تسيل من فمي فتجنَّبَ معانقتي وسلَّم علي بالمصافحة، نظر إلى الجنون الكثير حولي فحمد لله على نعمة العقل، قللي حتى يخفف من درامية الموقف:
" مبروك عيدك أبو عيد "

لم أسأله أي عيد يقصد. الكبير أم الصغير؟ السقوط في الإحباط يعني السقوط في الصمت، فقدان المبادرة، بطلان الفعالية، تبلّدْ الحواس.
طيَّب خاطري بربتة على كتفي قائلا أن ما حدث بالمسجد كان سوء تفاهم وزال، سامحَني كمذنب يعفو عن بريء وأضاف انه سعيد بتجسير الصداقة، وإلا لما كان اهتدى لهذه العصفورية التي لا يهتدي لها الذباب الأزرق (لم أسأله كيف اهتدى، أليس هو من بعثني إلى الشرطة التي بعثتني إليه)
أرخى ذراعه فوق كتفي وقادني نحو الكافيتيريا، طلب لنفسه قهوة بالحليب وطلب لي قهوة ساده، حاولت ان أشكره فخرجت من بين شفتي بربرة ليس لها أي معنى سوى انها ناتجة عن تصادم ذرات الهواء، راح يستعجلني :
" اشرب قهوتك بسرعة، جهز حالك بسرعة، لنخرج من هذا المكان بسرعة، سترجع معي لباريس، هناك بانتظارك سرير نظيف وغرفة فيها منافع صحية ولن تضيع في مآوي المُشردين "
لبثتُ بذلك النوع من الاستسلام الصوفي المتعالي كأنّما استقليت من كلّ شيءٍ... في جحيم الأبواب المسكرة ينفتح الباب أمام غارسان فلا يسعى للهرب نحو الخارج الوهمي، الحرية جوانية مُشْ برانية، أنا هنا ضمن أسعد أقلية في العالم، في المكان الصح ومتناغم مع المصح ، عندي العدم كاحتياط وعندي الجنون كرأسمال، الوحش هو كل ما أملك، تمرستُ عليه وأصبحتُ لا أعرف كيف أعيش بدونه مثل شخص يمكث دهراً في كهف معتم وإذْ يرى النور يُغشى على بصره، تغلغلتُ في الأعماق حتى عجزتُ عن الصعود إلى السطح، ماذا أفعل بَرّة بدون رحيق الصنة والخراء الذي ألفته؟ أفضّلُ الخلوة على الجلوة، وأفضلُ الضمورَ على الظهور ، أمتلكُ الكثير من الأسباب التي تنفرني من باريس، هذه المدينة التي كلها جمال وانطلاق، صارت تتجهم كلما تمادى الوحش، صعبة المراس، مرارتها أكيدة، لا تتسع للمحبطين، فكيف اذا كانوا محبطين وعربا، المصح إدمان كالمسجد، كعيادة شيكل، كبوبور، كالوحش نفسه...
قلت له بلساني :

" يا نحلة لا تقرصيني ولا أريد عسلك "
فتقلصت الزبيبة على جبينه :
"معقول يرمضان تضيِّعْ شبابك مع مجانين العصفورية!"
" هذا أحسن من تضييعه مع مجانين المسلمين، هنا على الأقل لا يفرضون جنونهم علي "
فوجئتُ برئيسة الممرضات تزجرني بنبرتها التعسفية :
" هيا بونيول، معك خمس دقائق لتغادر وإلا أربطك بقمصلة المجانين، ديجاج[51] هنا ليس مأوى عجزة "
تَنّحْتُ بينهما متل تمثال غرانيتي أخرس، رسمتُ بخيالي جسرا معلقا في فراغ هائل، على طرفيه مجانين وصلاعمة، وفي وسطه رسمتُ رجلا وحيدا يتوقى نفسه من غضب الطرفين، رسمتُ خطواته وهو يهرب من اليمين لليسار ثم وهو يهرب من اليسار لليمين، ثم وهو يختبئ تحت الجسر وعلقته بين الجنون والغضب والفراغ، أشفقتُ عليه فهدمتُ الجسر ودلقتُ الكل في هاوية، أمسكتني مدام ww بذراعها الباطشة جرجرتني إلى الحمام، شلحتني البلوزة الزرقاء بفظاظة ووضعتني عاريا تحت الدوش البارد وقعدتْ ترش الماء على جسدي بصقيعية سادية (تظن ان الدوش البارد فضلا عن انه عقاب للمتمردين هو علاج للمصدومين) ألبستني ثيابي المدنية، أمرتني ان أوقِّع على ورقة الخروج، فرسمتُ اسم بونيول على شكل فأر صغير أمام قط كبير.
جاء جانو قال:
" صديقي الأسد، هات 10 أخرى ويصيروا 40"
في المجاز صادفني جاكي اندريه نظر إلى هيئتي الجديدة مدهوشا:
" هل عاد إليك عقلك يا يونيول؟ "
فتحتُ خياشيمي وتنشقتُ خراءه وصنته حتى الامتلاء، شعرتُ بالفقدان وأنا أتخطى العتبة، سِفْر الخروج من جنونستان كسفر الدخول إلى عقلستان، التواءات وأنظمة وقوانين، تباطأت فكومني عسعس بالمرسيدس:
" يللا عجِّل "

---

[51] انقلع

قاد السيارة بسرعة خوفا من ان يلاحقه فيروس الجنون، ضايقتني الروائح الكريهة للعالم العاقل، هل أغلقُ زجاج النافذة حتى لا أشم رائحة الأزهار المنبعثة من الطبيعة الفظة. أم أفتحه حتى لا أشم رائحة المسك الشرعي المنبعث من السائق الفظ...
أسَّر لي عسعس :
" رئيسة الممرضات سيدة طيبة، بنت حلال "
لم أندهش للأمر فهو وهي من أولاد الحرام، ويتشابهان لولا زبيبة الصلاة (الأصوليون المسلمون والمسيحيون يختلفون على كل شيء ويتفقون على أصوليتهم) رمقته بنظرات مواربة من المرآة الوسطانية ثم وزعتُ بصري على طرفي الطريق إلى السنونوات المصطفة فوق أسلاك الكهرباء، نفس مشوار طريق الإياب لكن بالاتجاه المعاكس، مر الشتاء الكبير كله وبعض الربيع وأنا [هناك] حين جئتُ في سيارة الإسعاف كانت الأشجار عارية من الأوراق وتملوها أغربة سود،
فاجئني عسعس:
" على فكرة يا أبو عيد، أختك اتصلت يوم الوقفة وقالت انها ستبعث لك كيلو زعتر "
داهمني احساس مباشر بالاشمئزاز فقلت له:
"أختي كرنيبة لا يهمها أبو عيد بقدر العيدية، لا يهمها رمضان بقدر ما تهمها فوانيس وبركات رمضان، بِودها تبيعني كيلو زعتر مسوس بخمس آلاف فرنك فرنسي "
أخرج عسعس من جيب سترته ظرفا ورقيا ناولني إياه:
" رسالة من أهلك وصلت في غيابك "
ها نحن من جديد في بلاط العائلة الغير مقدسة، مستنقع الوراثة الدوديّ [52] القبر الذي يأخذ ولا يعطي، بالوعة القاذورات، ديكتاتورية الوراثة ورهاب الدم النفروزي ولزوم ما لا يلزم، وأحسستُ برائحة كريهة إضافية تنتقل إلي عبر القارات وعبر حبل السرة السري، هكذا فجأة يكتشف الغصن اليابس أنه جزء صغير من شجرة كبيرة وله امتداد وجذور، دائما تتصاعد روائح

[52] مستنقع الوراثة الدوديّ "اقتباس من موريس قبق

النتن من التفكير بالفاميليا، أعرف مضمون هذه الرسالة دون ان أفضها، دموع تماسيح وأحاديثٌ ملفقة....
قدحتُ القداحة وأشعلتُ النار بالظرف دون ان آبه بتحذيرات عسعس وصراخه، قعدت أنظر إلى الأكاذيب وهي تتحول إلى رماد، بدئا من تضرعات تلك الأم الباذخة في حب الصلعم، تريد أن تستخلص مني ألفي فرنك لتحج، لتذهب إلى الجحيم مع صلعم ومع أراجيف ابنها شعبان، أعرف أسطوانته المحروقة، طفله مريض بثقب في القلب وبحاجة لعملة جراحية مكلفة، شعبان تنبل من التنابل، من جماعة [الأحباش] الذين يرتع القمل في لحاهم، لا شغلة ولا عملة غير الصلاة وتكفير الناس، في الليل يساهم في تأسيس جيش التحرير الفلسطيني، شعب مبتلي بالشقاء والتعتير ومع ذلك يبذر بالجملة، هاهي تحترق مزاعم أختي حجة، لا بد ان اللبوة أشبلت وتريد الحلوان، كنتُ أبعت لها بانتظام حسب قدرتها على التفقيس وقدرتي على الدفع لكن المشكلة أنها أرنبة، كله يقول هات، عندهم استعداد هائل للأخذ، يظنوني في باريس أرفل بالسعادة الفرنسية وألُمْ الفلوس عن الرصيف، لو قلت لهم اني طفران ومكتئب وطالع من عصفورية لشمتوا بي وقالوا تستأهل كان لازم تبعت فلوسك للأيتام بدل بعزقتها على السكر والصياعة، لا يلامون على دناءتهم ما دامَ المجتمع الفلسطيني برمَّتِه مَبنياً بدناءة، إلى حد ما يقع اللوم على والدي الذي رباهم فما أحسّن تربيتهم، عبثا أنقب في نفسي عن صلة بهؤلاء [الأصدقاء] الذين لم أختارهم بمحض إرادتي، العائلة دائما فجائية وتأتي حين لا نتوقعها لتذكرنا ان الحنان الأسروي هو أعلى أشكال الفضيلة، وعندما تريد أن تكتئب فإن الأسرة بأسرها تتضافر لتساعدك حتى تواظب على اكتئابك، [العائلة] بالمعنى الفلسطيني للكلمة تعني ان على أفرادها المهاجرين في أوروبا ان يدعموا (بالعملة الصعبة) أكاذيب أفرادها المقيمين في المخيم...
قطع عسعس عليّ صفنتي:
" عن جد يا زلمي، ليش ما ترجع لمخيمك وتعيش بين أهلك؟"
" أيش أعمل بينهم وهم سبب فاجعتي "

حتى أحوِّل النقاش باتجاهه سألته عما حصل ليده المجبورة فخبطها بالمقود وقال انها متعافية من زمان ولكنه ما زال يحتفظ بالجبس الطبي ليقبض تعويضات البطالة، لمعتْ عيناه بالنصيحة :
" لو أنا مكانَك يا بلد كنت استغليت الإحباط والجنون وأعلنتْ اني معاق فأكسب بالشهر خمس آلاف فرنك من صندوق الكوتوريب عالبارد المستريح "[53]
...تره لماذا يلاحقني هذا الرجل العالة بقصصه الخرائية؟ الكثير من أبناء مخيم البداوي لاجئون في الدانمرك يخدعون الشؤون الاجتماعية فيسجلون (زورا) بناتهن (وبعضهن بالغات) شخاخات حتى يقبضوا علاوة بطانيات إضافية، معظم اللاجئين الفلسطينيين في أوروبا شخاخون وعسعس أكبر شخاخ، أنا وهو من بلد واحد بس مُشْ من طينة واحدة، أنا طفرة وراثية بين الأشهر الهجرية، أنا فلسطيني من صنف خاص جدا، أنا معاق حقيقي لذا لا أطلب شيئا، يكفيني إحباطي، ذخري وذخيرتي...
أرخيتُ سمعي لضجيج محرك السيارة حتى لا أستمع إليه، لكن ضجيجه نفذ إلى أذني رغما عني :
"إلى متى ستبقى على هالحال يا بلد؟ غربتك غريبة. لا تزوجتْ، ولا اشتريتْ سيارة. ولا عندك حساب توفير عقاري ولا جنسية. "
لم أستغرب هذا الاستغراب من شخص وصل لفرنسا بعدي وصار عنده جنسيتين وبيت وسيارة، وغدا سيكون عنده زوجتين، هو يعتبر البقاء في حظيرة العروبة مأساة وأنا أعتبر الهروب منها ملهاة، أنا أرفضُ الجنسية بوصفها كذبا مزدوجا من الذي يعطيها باسم الهوية الكونية لفرنسا ومن الذي يأخذها باسم المصلحة وتيسير الأمور...
نكايةً بصمتي أقحمَ في المسجلة شريط سورة الرحمن، مع روائح الغلمان والمردان وشراميط الجنة المقززة تفاقم حنيني لرائحة الخراء والصنة، كم أشمئزُ من هذه السورة، كنتُ أسمعها في المآتم وهي تصوِّر الجنة بنبرة جهنمية جنازية صفراء فأحس أني ميت أو فاقد لطفولتي،...

[53] صندوق خاص لمساعدة المعاقين

هممتُ ان أشعل سيجارة فمنعني وذكَّرني أن رئيسة الممرضات وضعتني في عهدته وذمته وتحت وصايته، هكذا يتقاذفاني مثل طابة بينغ بونغ، هو وضعني تحت رعايتها وعنصريتها وهي وضعتني تحت مراقبته وصلعميته.
رفع صوت الترتيل فشعرتُ بارتجاج في طبلة أذني، فتحتُ النافذة حتى أغطي على صوت المرتل الجنائزي ورحتُ أردد بصوت داخلي يلعنْ رب الرحمن، يلعنْ ألّلا، يلعنْ دين اللي كتب القرآن، حتى بلغ الرحمن نهايته، انتابني هلع شديد أن يفقس عسعس على زر replay[54] في المسجلة ويعلن عن جنازة ثانية، أخذت أتسلى بمراقبة هيكل السيارة، مرسيدس عتيقة انتهى عمرها الافتراضي وليس فيها شيء تحسد عليه سوى أيقونات الإسلام الحافظة من عيون الحساد، دائما يتباهى علي بما يملك لأني أتباهى عليه بما لا أملك، الإيمان بالله، بالعائلة، بالمستقبل، بحوريات الجنة، بمساعدات السوسيال، بالحساب البنكي، بالجنسية الفرنسية، بأسهمه في شركة إيروتونيل، بالبيت الذي اشتراه في الضاحية، ببدلاته الرسمية التي يشتريها من الحرامية الجزائريين المداومين بين المسجد ومقهى بوسيف، لكن هذه السيارة هي أبرز أسباب تباهيه، يقودها بيد واحدة...
التفت نحوي:
"أكَلتْ؟"
"لا وليس عندي شهية"
رغم ذلك أعلن بأريحية أنه عازمني لمطعم تركي على أكلة لحمة بعجين، أفهمته اني خلال إقامتي بالمصح والفتُ على أكل لحم الخنزير لدرجة اني لم أعد أهضم اللحم الحلال.
قال بنبرة علمية أنتروبولوجية:
"لحم الخنزير يقتل الغيرة على العرض، لهذا السبب تشتم أختك، أتقوا الله في أعراضكم، ربنا سبحانه وتعالى أوصى بالأم والأخت".

---

[54] هو زر الإعادة في المسجلة

أحلم بيوم يحدثني فيه بلا آيات قرآنية او أقوال عمومية، دائما يحشر الله فيما بيني وبينه، وفيما بيني وبين نفسي، وفيما بيني وبين الأشهر الهجرية، لا يقترح علي أكثر من محاصرتي بالصنم الكبير والتوبة النصوح.
قللي:
"نشف ريقي وأنا أحاول أقنعك ان الإسلام أفضل علاج للاكتئاب بس الظاهر انك مجنون"
" انا صحيح مجنون بس مش حمار".
قلتُ له فاستطرد:
"صدقني يخوي يرمضان، الإسلام دين الوسطية".
كيف وجد وسطا ثابتا لطرفين متحركين؟ هذه هي المسألة التي حلها الفقهاء ولم تحلها الفيزياء، أين الوسط في عماء الكاوس والصيرورة الحركية والنسبية؟ أغبياء هؤلاء المثاليو الأفكار الذين يتوسلون بالهندسة الإقليدية القديمة لقياس المسافات، عندما يغتصب الفقهاء اسم العلماء فعلينا الحذر من العلم، فعدم أخذ المعنى بحرفيته عند هؤلاء الفيلولوجيين هو الشرط الأول للتمكن من اللغة والسيطرة على عقول العوام...
حتى أغيِّر موضوع الحديث قلت بلساني:
"تسمح بالجريدة ألقي نظرة على برجي الفلكي؟ "
خطف الجريدة من يدي:
"دعك من الخرافات، أنا ما جئت علشان برجك الفلكي، جئت لإيقاظك من الغفلة"
قلت له قاطعا الطريق على مناوراته:
" مدامww قالتلي لازم تراجع مستشفى مارموتون بأقرب وقت، ما قالتلي لازم تراجع أقرب مسجد بأقرب وقت، بصراحة لا مكان لي بقلب ألّلاه ".
أجابني على الفور:
" قل لا مكان لله في قلبك"
هذا صحيح لحد ما فأنا قلبي دليلي وأعرف لمن يتسع وبمن يضيق، لا أستطيع، لم يعد بمقدوري الاستطاعة، أن أنتمي إلى رب يعد بالخلاص، ألّلاه وهو يعدنا بالخلاص يخلّص علينا، كيف

تستقيم حريتي ومسؤوليتي مع وجود إلهْ مطلق الفعل والإرادة؟ أنا إنسان حر أفكر بنفسي ولا أسمح لأي شيخ أن يفكر عني، أفضل أن أتعلَّم من طير واحد كيف يغنِّي على أن أعلِّم عشرة آلاف نجمة ألا ترقص[55]، أنا حر بخياري مُشْ بخيار غيري، أرفضُ السعادة الغوغائية، أرفض الجنة وغلمانها وشراميطها، لا أبحث عن الكمال لأني أكتمل في النقصان، أنا مغني الشخصية القلقة، أنا هو تجديفي ولن يشيّد علي شيء وطيد، أمديتي لا تنفتح إلا مع اللايقين، أشرعتي لا تبحر إلا في بحر الشك، الإيمان أصبح مستحيلاً في عصر الزوابع والأعاصير، ذلك أن شجرة العلم ليست شجرة الحياة، لم يعد بوسعنا قبول الظلاميات بعد كل ما زرعته فينا الأجيال المتنورة من أنوار...

قال والسيارة تقترب من ضاحية سان ديني:

" ماشي الحال، ترافقني لحي باربيس، تشرب قهوة عند بوسيف بينما أنا أصلِّي ركعتين".

لكني أعرف نواياه، سيجرني بالرضا إلى المقهى ثم يجرني بالقوة لمحجر الكرنتينا الصلعمي ويحجر علي كما بالمصح، ويتآمر مع جيلاني على إخراج الجني مني بالسكاكين والمطاوي وما كان هو ما سيكون، الله جريمة وإنكاره جريمة أكبر، وقد دفعتُ ثمنا باهظا لاستيعاب هاتين الحقيقتين، كيف لسلب الإرادة أن يكون؟ أنا وهو بلديات ولكننا نرطن لغتيْن مختلفتيْن، لغة الضاد ولغة الضد، لا يستطيع أحدنا أن يهزم الآخر غير أني مستعد للمواجهة...

صارحته:

" لا تضيع وقتك معي، يكفيني من الإسلام أن إسمي رمضان ولقبي أبو عيد، إعتبِرني متل أبو طالب مات دون أن يشهر إسلامه"

صارت ملامحه أكثر صلافة، جاء كلامه على شكل توترات :

" إخرسْ يا عدو الله، لا تشبه نفسك بأبو طالب، أنت أبو لهب زوج حمالة الحطب، شاعر فاجر حشاش سُكَرجي عربيد "

---

[55] أفضل أن ... ألا ترقص " اقتباس من كامنغز

عاودتني تشنجاتي بسبب الرسالة المزعجة وبسبب الخرمة على سيجارة وبسبب الأدوية المدمِّرة وبسبب كلامه الفارغ، صار رأسي صفحة من سواد كامل، داهمتني لمعة خاطفة من نوبات الشيزوفرانيا والصرع، فقدتُ إحساسي بذاتي، سمعتُ صوتي وأنا أصرخ كأني بوق لشخص آخر:

"أنا رمضان مُشْ أبو عيد، أنا حاخام لوبلين، أنا يهودي كاشير في أوشفتز، أنا فرناندو بيسووا، كان يظن نفسه يهوديا مظلوما، أنا أنا وأنت أنت، أنت نازي هتلري من أنغال الحاج أمين الحسيني، أين كان إلهك حين تعذب شعبه المختار في الهولوكوست؟، اذهب أنت وإلهك ضعه في بقجة مع شوية نفتالين "

فنجر عينيه استنكارا، كبح الفرامل عنوة، هَمَّ ان يصفعني فلم تطاوعه يده المغلولة، فتح الباب بيده ورفسني برجله نحو الرصيف:

" مْخَشْخِش، مْضيّع الطابق الفوقاني، روح خلي اليهودية تنفعك.

من أشقاه الوحشُ هل تسعده المدامُ ؟

وقفتُ عند الباب فسمعتُ عزفها على البيان، لم أشأ ان أقطع عليها انسجامها فتريثتُ وتخيلتُ أناملها وهي (تتكلم) مع الأزرار السوداء والبيضاء، وتخيلتها هي ذاتها ترفع رأسها عن النوتة أمامها لتغمض عينيها.
كبستُ على زر الجرس، سمعتُ نباح الكلب جازي، بمجرد أن انفتح الباب قفز يصأصئ ويلعق جبيني، لبثتُ في الردهة مثل الدرويش بتاع زوروني كل سنة مرة، يغيب غيبات طويلة ويظهر فجأة، تهدلتْ تقاطيع وجهها كعلامة استفهام ، ارتعشتْ شفتاها في انتباه طقوسي، ما كانت عيناها تشبعان من الشبح الواقف أمامها بعينين غائرتين ووجه نفخته العقاقير، صفعتْ صدرها بيدها:
" مون ديو، رام. قلبي دليلي كنت أعرف انك ستجيء".
مددتُ يدا باردة لمصافحتها لكنها طبعتْ على فمي بوسة كعبوة ناسفة، وعبقَ عطرها الباتشولي وهي تسحبني من يدي نحو الصالون:
" ويلك، أين كنت كل هذه الغيبة؟ "
" في مصح كليرمون"
" ما الذي أودى بك لهناك؟ "
" سي لافي، ملماتُ الحياة "
قلتُ وسألتها عن أحوالها فتحسستْ نجمة داوود برقبتها:
" أنا أتعفن مللاً لولا ريشتي والبيانو بتاعي وحيواناتي".
وجلستُ على الكنبة الفيكتورية كمخصي في حرملك السلطان دون ان أجرؤ على إدامة النظر لجسدها المتوثب، جلسنا مُتقابلين، 27 شمعة مطفئة مقابل 40 شمعة مُشَعشعة، راحت أنوار حدقتيها تحدقان بشحوبي، لبثنا صامتَيْن نتقرى ملامح بعضنا البعض ونرصد التحولات والتغيرات الطارئة على كل منا، هي عينها أم عيون السّود بكسلها البورجوازي، بكل ما في قلبها الطيب من طيب، كل شيء فيها ينز بالنزوة، بطارياتها المشحونة، مزاجها البوفاري، نظرتها العربيدة الراغبة جدا، حساباتها الشرسة، لديها

ضعف خاص تجاه ضعفي، أنا في عينها بضاعة إكزوتيكية، أمتازُ عليها بقوة الشباب (نظريا) وتمتاز علي بحكمة السنين (نظريا أيضاً) في الحقيقة فإن المعادلة معكوسة وأمتاز عليها بإحباطي...
انفعلتْ وصارت حركاتها آلية فأشعلتْ سيجارة، نفختْ على عود الثقاب ورمته وراء ظهرها، شمشمتْ باقة الميموزا التي أهديتها إياها وقالت إن رائحتها رائعة (قالتها عن مجاملة فالزهور بلا رائحة) وحرَّكتْها غريزةُ الأنثى فدخلتْ مخدعها لوهلة بدلّتْ ثوب التافتا الهندي بالميني جوب، عادت في أَوْج زِينَتِها فاردةً شعرها الذي كان معقوصا، قالت وهي تمرر أصبع أحمر الشفاه على شفتيها:
"سرّني اني خطرت ببالَكْ، وجودك رائع، كل ما يمنحنا الفرح رائع، ما تُحبّه الحبّ الصحيح لن يُغتصبَ منك، دعني أحتفي برجوعَك الميمون، ما رأيَك بكأس؟"
لم تنتظر رأيي بل جهزتْ لوازم القعدة بحركات سنكرونيكية مموسقة كعزف البيانو، ليس ثمة حركة مجانية في حركاتها، برجلها دفعت كراجة الميني بار النقّالة نحو الصالون، بيسراها فتحت الجارور وتناولت قدحين، بكوعها أغلقت الجارور، بأسنانها نزعت غطاء قنينة فودكا، بيمناها صبَّتْ، وبلسانها قالت:
"أنتَ لا تفهم معاناة العشق، إننا لا نستطيع أن نحب أحدا إلا إذا ظل متخفيا عن أعيننا "
أمعنتُ النظر في أركان الصالون كأني أعيد اكتشافه، الرسمات، الشخابير، المكتبة العامرة بالكتب، تمثال بوذا الرصين، البيانو، هرمتُ أنا وهرمتْ هي ولكن وجوه أجدادها الحاخامات في اللوحات لم تهرم، سبعة أشهر منذ موت المرحوم يانوش، حاولتُ ان أتخيل هيئة البولندي في العالم الآخر فخرجتْ معي قبضة رماد.
بلعتُ حبتين من البروزاك، أفرغتُ كأسا على ريق بطني ومددته لها فارغا ، صبي المُدام يمَدام واسقيني من بركاتك...
شطفتُ معدتي بكأس آخر، بينما مزمزتْ هي وقضمتْ بعض المقبلات البيولوجية بامتعاض واضح (لا يمكنها أن تتذوق شيئاً دون أن يعذبها عذاب التفكير بالسعرات الحرارية)، خيَّرَتْني بين

الجاز والبلوز وقبل أن تسمع خياري بَعْبَصَتْ في الغراموفون فصدحت موسيقى ييدش بألحان كمنجية الإيقاع
داعبتْ أذني وهي تقول:
" هكذا كانت جوزفين تداعب نابليون(ها) في مالميزون "
أجهدتُ نفسي في لملمة أفكاري المبعثرة.... هل صدفة. جوزفين كانت تكبر نابليون بعدة أعوام، حُضنُها كان المكان المفضل للإمبراطور بعد ساحة المعركة، شيكل أيضاً شد أذني وقال لي هكذا كان نابليون يداعب جنوده في البيريزينا، اليهود كانت مهمتهم بعد كل معركة نابليونية قلع أسنان الذهب من أفواه القتلى ونزع حوافر الخيل النافقة، والمضاربة (غير الشريفة) في بورصة لندن، كانوا المنتصرين الوحيدين في كل هزائم نابليون....
جاءت بسمتها العفوية ردا جازما على التساؤلات العابثة برأسي:
"انك تختلف عن بقية العرب".
هل أقول لها أني لا أختلف عن أبناء جلدتي إلا بإحباطي. هي على كل حال لزقة أمريكانية ألعن من عسعس، وتريد أن ترد لي الابتسامة المفقودة كما تريد استرداد شبابها المفقود، لا تناسبني هذه الحالة حيث يكون الشغف بإنسان ميت كاملاً جدًّا، أنا متأكد من ان حضوري يساوي شوقها مثلما اني متأكد من ان حبها لي ليس سوى أنانية مضلِّلة، تحتاج أن تشيِّدْ عليَّ ما ينقصها...
انتبهتُ للعصفور في القفص فأرخيتُ الكأس وقلتُ بلهجة حازمة:
" أطلقي سراح الكنار من فضلِك "
ونظرتْ لي منتظرة ان أشرح لها السبب فألححتُ عليها :
" كرامة لي أطلقيه "
هزتْ كتفها بلامبالاة :
" أطلقه، هو على أي حال لم يعد يغرد "
فتحتُ كوة القفص وسرّحتُ الكنار، رفرف بجناحيه بشكل أخرق كأنه نسي عادة الطيران، ظل محلقا بعيدا بعيدا حتى صار نقطة سوداء فوق نهر السين، عدتُ إليها فخيَّرَتْني بين أن نشاهد (على الفيديو) فيلم [إمبراطورية الحواس] أو فيلم [إيمانويل] الذي اصطف 12 مليون فرنسي في طابور طويل لمُشاهدته، تخيلتُ الغايشا اليابانية في أول الفيلمين تقص أير عشيقها فازداد أيري

ارتخاءا على ارتخاء، كان عسعس قد حذرني بأن اليهوديات لديهن طقوس شيطانية، يعجنْنَّ فطير الفصح بدم الأغيار. ماذا لو كانت فعلا عميلة للموساد تسعى لابتزازي في لقطات إباحية. أوه رام لا نريد منك إلا شوية معلومات عن أصدقائك الذين تربوا في معسكرات أبو نضال وجورج حبش ووديع حداد، برجي الفلكي أيضاً حذرني "إحترسْ من الذين يحرسونك يا أسد" هؤلاء القتلة الأعزاء حولوا فلسطين برمتها إلى أوشفتز، خوزقونا واتهمونا بالإرهاب، كانوا لا يتورعون حتى عن اغتيال الكُتّاب مثل غسان كنفاني وبيت صائغ وسواهم...

ارتسم في ذهني منظر يهوديت وهي تجز رقبة القائد الآشوري عليفانا، تسللتُ إلى سريرها المصنوع من خشب الأكاجو باحثا تحت المخدات عن ساطور لم أجده، بعثرتُ عينيَّ في أرجاء المخدع باحثا عن كاميرة خفية لم تظهر، رجعتُ للصالون ناظرا حولي وحيثما وكيفما وأينما وجهتُ بصري يصطدم بنظراتها الجشعة كشفرة سكين.

نادتْ "أنغورا "فقفز القط الأناضولي من حضن تمثال بوذا إلى حضنها ، داعبتْ ظهره بطريقة مثيرة، تحولتْ الشهوة فيها إلى ألم فكشفت عن لحم فخذيها، توترتْ أوتارها الصوتية وهي تقول:

Une femme infidèle, c’est une femme fidèle à deux hommes[56].. أشتهيكْ خذني في ذراعيك، هذا وقتَ أنْ نحرِّرَ أنفسَنا مِمّن لم نعد نُحب، فلنعشق فلنعشق، هذا آخر سلاح بأيدينا "

... لا تنتهي مفاجآت هذه المجنونة. الجنون هو أيضا أسمى أشكال الحب. دائما تفاجئني بالمتوقع، وتفاجئني لدرجة انني لم أعد آبه بمفاجآتها، خيالها موبوء بفانتازمات ورموز ، رغباتها ثقيلة وكتمانها أثقل ماذا يحببها بجثة غير هامدة هذه العمياء النكروفيلية. الرجل الخربان دائما قلبه طيِّبْ مع النساء، لكن النساء (الشبقات) لا يبحثْنَ دائما عن القلب الطيب...

---

[56] المرأة الخائنة هي امرأة وفية لرجلين

ثملتْ واشتدت نزوتها فغالبتْ رغبة قوية لاحتضاني، لم يتجاوب قطبي السالب مع قطبها الموجب، انكمشتُ على نفسي ، كبحتُ خجلي بحياء لاهوتي، طأطأتُ رأسي كزهرة حانية... ، أنني مكتئِب أكثر من اللزوم، من لم يشاهد زورقا يغرق وسط البحر لا يعرف مغزى الاكتئاب، هذا الوحش المتوحش، أعطه رجلا وبعض الوقت فيجعل منه جثة، الوحش إذا استولى على قلب إنسان أخلاه من غيره، لقد مات قلبي فلم أعد أحفل بالإناث أنا الذي كنت أتصوّرُ الجنةَ دائماً على شكلِ أنثى، أنا رجلٌ ناقص رجولة ومُشْ بكامل قواي العاطفية، خارج دورة الطبيعة والحياة وخارج السكس وكل الحسابات، مِن عامين وأنا مُضرب عن الزِكْزِكْ...

تحججتُ بأني أشعر بدوخة بسبب الفودكا والأدوية، الأمر الذي سعّر رغبتها

غمزتني وهي تفضح اكثر مواهبها الجسدية :

" لعلك تخشى أن يفاجئنا ج ب، انه برفقة خليلته في ملعب بارك دي برنس".

وغضيتْ بصر حتى لا أرى اللحم الهبر، أغمضتُ عيني محاولاً ان أقلد تمثال بوذا البرونزي في قعدته الزّنْ، نفوري منها أخرجها عن رصانتها فكرعتْ من فم القنينة مباشرة، قالت :

" ربما كان من الأفضل أن لا أكون صديقتك يا رام. دعني لهنيهة أعتقد أنك لا زلت صديقي، هل يزعجكَ اختلافنا الديني؟ اليهودية ليست دينا بل شقاء، هل يزعجك إني أكبر منك سناً؟ أنا شابة طالما أحببتني "

... دائما بعد الفودكا تأتي الرغبة (رغبتها) لتأكسد كل شيء، رغبة الواحد وانعدام رغبة الآخر، الرغبة الجنسية للأصحاء تفسر ذاتها بذاتها، أما بالنسبة للمحبط فالرغبة لا تحتاج لتفسير لأنها معدومة، أيور المكتئبين تصدأ كالحديد، أن تكون محبطا يعني أن تكون مؤجلا عند الحد الذِي تتقَاطع فيه عطالة الروح مع بلادة الجسد مع الجحشنة مع البرود العاطفي مع السلبية والعقم والتشيؤ والغباء الشديد، الرغبة استبداد قصير الأجل بينما الوحش استبداده طويل الأجل، المكتئب كينونة افتراضية مؤقتة ونسبية...

يئستْ من بلادتي فآل الشبق على وجهها إلى تشنجات، وضعتْ يدها على شفتيها لتحبس كلمة ساخطة، وامتلأت عيناها بالدموع :
" يا لبؤس الحبُّ، انه وحشتان في وحشة، ما أتعسني اذ أضحي بحياتي من أجل رجال لا يستحقون التضحية "
حاولتُ إبداء ملاحظة فتبعثرت الكلمات بفمي لعابا سائلا، الله الذي جعل النمل يتكلم (وأنتم لا تشكون بهذا مطلقا) ربط لساني فتقوقعتُ في زهد كزهد القرود الثلاثة (لا أتكلم، لا أرى، لا أسمع)
تنكرزتْ هي رمقتني بنظرات غير مجدية :
" إحْكِ أنت يا من كله أخرس، هل تجيد لغات أخرى غير لغة السكوت البوذي المصطنع؟ تحيط نفسَك بالغموض والأسرار. ولكنَّكَ في الواقع مثل أبو الهول بلا أسرار "
بقيت لائذا بالصمت الذي يمكنني من الثرثرة مع نفسي... كيف لي أن أتكلم أنا المملوء بالفودكا، بالوحش، بالذاكرة، بالبروزاك؟ الألم يعرف القليل من الكلمات، الألم يصنع من السكوت لغة، لكن الصمت لا يعني البكم، يعني رفض الكلام، يعني الكلام دوما، رمضان إنسان محبوب لأن أبا عيد مهيأ فقط للكره، أنا على بساطتي معقدٌ، تفرقني الإنفصامات وتجمعني التناقضات، قبل أن تغلب عليَّ الخمرة أنظر لكم كيهود مضطهَدين في أوشفتز وداخاو وعندما تتغلب علي الخمرة أعتبركم مضطهِدين في كفر قاسم ودير ياسين، أنا لستُ في حضرة العشق ولكني في مطرح الانتقام، وبِودّي أحول ضعفي (الجنسي) إلى قوة للثأر، أنا لم أنسَ، نسيت أن أنسى تسخير زوجك لي، كثيراً ما أشعرني بالمهانة ونفخ دخان السيجار بوجهي، أنا عاجز عن الصلح لأني عاجز عن النسيان، أنا لا أنساك فلسطينا، ويوما ما كان لنا في صفد بيت من حجر وأمامه خرنوبة أجمل من كل أشجار غابة بولونيا، ثم جاء جدك من بولندا قتل جدي وقطع الشجرة وهدم البيت، أنا أبو عيد مُشْ رمضان، فلسطيني أولا وإنسان بالصدفة، أنا أكثر الفلسطينيين فلسطينية، الانتفاضة في الأرض المحتلة خمدت ولكنها ما زالت بقلبي مُشْتعلة، السنوات لا تزيل الأحقاد ولا تغسل الدماء، في ذروة السكر تظهر التثنية في الواحد، أنا مزدوج بوجه وقفا مثل

فرناندو بيسووا، كان يراكم الأقنعة على وجهه حتى نسي وجهه الحقيقي، كان يتصور نفسه يهودياً مظلوما كما كان يتصور نفسه نازيا ظالما، أنا كبيضة الثعبان، ملمسها ناعم من برة، سامة من جوة، وأمس رأيت بالمنام أني في القدس العتيقة متنكرا في زي نبوخذ نصّر مادا يدي على طولها وصارخا "سيغ هايل سيغ هايل...
لم يفلح تكدّسُ الصمت فوق شفتي إلا في زيادة غيظها، (أقذع أنواع الذل الطبقي ان يرفض شاب خام نكاح سيدة بورجوازية) على خلفية صورة جدها بدت قاسية أكثر من أي وقت مضى:
" سيحبطني إحباطك، من يصارع جثة ستنتصر عليه في النهاية، اذهب إلى الجحيم، وجودك يسبغ على الجو مسحة المأتم"
ركنتْ كأسها على البيانو واندفعتْ تعزف أنغاما هستيرية أنهتها بقفلة دراماتيكية صاخبة وهي تمرر كل أصابعها فوق كل الازرار ، نظرتْ الي بحقد كأنّها ندمتْ على إستضافتي، فنجرت عينيها كأفعى تتأهب للسع :
"[57] Tu es déprimé et déprimant"
وزادتْ فصبَّتْ كأسا آخر، خطتْ خطوات نحو البلكونة، أضافتْ كأنها تكتشف شيئا مكتشفا :
" Tu es dépressif "
تهالكتْ فوق الأريكة وأطفئتْ خيبتها بجرعة فودكا، تركتها تتكلم بخشونة الصوت الناعم:
" et de la pire espece "
من الواجهة الزجاجية رأيتُ الغيوم عاتية كأنها حرملك نساء غاضبات يتصارعن على خصية رجل مخصي، عاودني الإحساس بالاشتباك مع رجفتي وخرابي، رغبتها بما لا أستطيع ان أغدقه عليها تحولت إلى انفجارات صوتية:
"أنتَ فاقدَ إحْساس، أنت ورم خبيث في الرأس، سلبي في منتهى السلبية، أنت من الجماعة إياهم، الشواذ المثليين، أنت وَجْهُ الغَثَيان،

[57] الجمل الثلاث بالفرنسية ترجمتها على التوالي . أنت محبَط ومحبِط، أنت مكتئب، ومن أردأ انواع المكتئبين

المصران الأعور، أنت محبط ميئوس منك، ارجع إلى مستشفى المجانين، إرم نفسك بنهر السين، تريح وتستريح".
ثملُها، كلماتها الجارحة، حركتها من الصالون للبلكون ومن البلكون للصالون، الازدراء الكبير الذي قرأتُه في عينيها، الفودكا والبروزاك، مواء القط بوجهي وعيناه الفوسفوريتان، كل هذا كهربني فانتزعت نفسي انتزاعا من الأريكة، وأنا أطبق الباب سمعتها تنطق "مع السلامة" كأنها تقول (في ستين داهية)

كم مرة ستحترق جان دارك[58]؟
كم سندباد ستبلع هذه البحار؟
الوحش طال حتى لم أجد له وسطاً أو نهاية، تعبتُ من أنصاف الحلول، من الترقيع والبريكولاج، الله نفسه تعب واستراح يوم السبت، الحياة معركة لكن ما بِودّي أتعارك معها أكثر، لن أصمد البتة فليس الصمود مزيتي، استنفذتُ حججي واحتجاجاتي، كل شيء قيل ولم يعد ثمة ما يقال، هل تريدونني أن أكرر نفس الحكايا. أنا مش حكواتي كشهرزاد، هاتيك المحنكة كانت تجيد السردَ وتقطعه في ذروة احتدامه كي تساوم شهريار على ليلة جديدة، أما أنا فقد نفذتْ ذخيرتي بعد 700 ليلة وليلة، وشهريار الوحش قريبا ما يضرب عنقي، أجلْ، لقد انتهى أجلُ هذا المجرم، عاجلوه بالموت فهو منقذه الوحيد من سوء الحياة، عندما يواجهك عدو ظاهر تظهر له وتقاوم، عندما يتموه العدوّ تتموه لتكون مثله، إذ يحاصرك العدو من بره تحاصر حصارك، طيب، وعندما يكون اللغم مزروعا في داخلك. كلُّ ما بوسعك أن تفعله هو ان لا تفعل شيئا، خسارة الحرب أفضل وسيلة لإنهائها، هذا الوحش الوحش، القلق المتوتر، الهمجي. هذه اليقظة العديمة الفائدة، الحياة الأكثر من بائسة. هذا الألم المستخِف بالموت، الأوجاع المبرحة، العفونة اللزجة، البشاعة الجنون الغبن الخذلان، خرائب الحياة، المحن المتزايدة، هذه الصعقات الكهربائيّة العابثة في جسد متَهالِك متهالك متهالك ، ما الجدوى. إنها معاناة تشبه الفجيعة، الألم حين يخرج عن معدله المقبول يصبح إهانةً للحواس، لكن الألم لا ينوجد إلا بالحواس، إذن فلنخمد هذه الإحساس الذي نحسه فقط بالذهن، ذلك الوحش كله من نتاج ذهني، وأنا أتألم وألحس مَبارِدِ الفولاذِ في جمجمتي فقط، لا وجود لي خارج ذهني، يختفي فأختفي ويختفي معنا الوحش، قاسيا كان كلامها " وجودك وعدمك واحد" كل

---

[58] اقتباس من فاتح المدرس

فتوحاتي في المواخير لا توازي خسارتي أمامها، ما الجدوى؟ كثيرا ما قلتُ، لن أخمر معها لن أخمر، ولن أرجع إلى عوالم عسعس الورائية، دائما لدي أفكار عما يجب ألا أفعله، لماذا لا أفكر بالعكس، بما يجب أن أفعله، بالشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله؟ أنا الآن على مسافة واحدة من الوجود والعدم، الناس حولي كومة هائلة من نقاط سود تتحرك، ماذا يهم لو اختفت نقطة من هذا السديم الأسود، سيكون العالم أقل سوادا بكل تأكيد، سيقول عسعس "ضراط ريح وذهب مع الريح " أما شيكل فسوف يقول "عرافيم[59] ناقص واحد "، أنا دائما سبَّاق إلى الهزيمة الطوعية وضالع في الخسارات ولن أقبل بأقل من السقوط الكامل، لن أحبِّر رسالة توضيحية فالوحش وغضبها سيبرران كل حماقاتي الآتية، الشيء المهم هو ما لم نفعله بعد، وسأفعل ما أراه أفضَل، إن أكثر ما يخافه البشر هو ان يتقدموا خطوة إلى الأمام، ثمة لا ريب مرفأ أمان للسفينة الجانحة، مقامٌ أرحم، أفلاك أرحب، أماكن أخرى هي أيضاً نهاية النهايات، البرشامة المناسبة للوحش، من يخلو من الأمل يخلو أيضاً من الخوف، أنا ألف مسيح مصلوب، أنا روح صغيرة تنوء تحت جثة كبيرة، أنا هو الموت الذي هو أنا، جثة مؤجلة على قيد الحياة، وللحق فإني ميت منذ عامين، وليس وقوفي على رجلي دليلا على حياتي، إن مات الفيل وهو واقف فإنه يظل واقفا لبضع أيام قبل ان يسقط، وحدهم الموتى لا يخشون الموت، لا يكتئبون، لا ينتحرون، وحدهم الموتى لا يحزنون، لا يبكون لا يتحسرون، برج الأسد لهذا اليوم قال " انتظار الطوفان أسهل من صنع السفينة"، إنَّ من يحارب مدججا باليأس يحارب حتى الموت، والذي لن يجيء إليَّ سأروح إليه بنفسي، والذي كان حقاً للكثيرين سيكون لي وحدي [60]، موت بلا نزع أهون من نزع بلا موت، 27 خريفا يعني ثُلث العمر وهذا يكفي جدا، القدر الذي لم يزودني بالشجاعة الكافية لمواجهة الحياة سيعطيني الشجاعة لأضع حدا لها، يوجد في عمر كل منا مرة تُسمى أول مرة ولكنها ستكون آخر

---

[59] عبرية وتعني عرب

[60] والذي كان حقاً للكثيرين سيكون لي وحدي "نيتشه

مرة، من يَمُتْ شابا يحتفظ بشبابه إلى الأبد، تلقنتُ هذا السر وأنا أحدق في صور الشهداء المعلقة في شوارع المخيم، افكاري تتوضح ، هذه المرة أعرف طريقي ولا أحتاج لدليل، أنا الآن أشجع مما كنت عليه في بلكونة بوبور العالية، نيَّتي المبيتة في رأسي تنخطر مرحةً في قسوتها، سأدمِّرْ حياتي إنقاذاً لها، سُمْعة يقول ان الانتحار حرام إذن فهو مفيد، الانتحار متراس بوجه إحباطات قادمة، الأغلبية يموتون قبل وقتهم او بعده، وقَلَّما تجد من يمت بالوقت المناسب، نحن نفهم جيدا ان غريزة التسامي القطيعية هي التي تحفّز الجنود ليهلكوا في وثبة غرائزية نحو الفناء والإفناء، لكننا لا نفهم بالمرة ما الذي يدفع شخصا وحيدا ليموت وحده، فليس هناك ما يستحق ان يزهق إنسان ملحدٌ حياتَه الوحيدة علشانه، انما الحياة بقدر ما تصبح مستحيلة تمسي فكرة إنهاءها ممكنة، فمبرر الوجود ليس في مجرد الحياة بل في جدوى الحياة، المنتحرون دائما على صواب لأنهم أقلية، الأديان لا تبرر الانتحار، الانتحار يبرر نفسه بنفسه، ببؤس المنتحر، الكهنة يريدوننا ان نحمل صليبنا وننوء تحته، لنُنْحَرْ كل يوم، هؤلاء المنظِّرون الصغار للخلاص يوسمون المنتحر بالجبن، كذبوا، فالانتحار ميزة الأبطال الذين ما زال بوسعهم ان يقرروا مصيرهم، دانتي حشر المنتحر في أسفل مراتب جحيمه، لكن حسب علمي، المذكور لم يكتئب كما لم يرجع من العالم الآخر ليخبرنا عن وجود الجحيم من عدمه، أنا من تلك الاجناس المنحطة التي عليها أن تنزاح طوعا لتفسح المجال أمام الأعراق العليا، الأقوياء واللامحبطين، هذه المدينة اذا لم تنحر الشعراء فإنها تدفعهم للانتحار، نحرتْ نورفيد ونرفال وباييخو وتسيلان، في المنام حيث تلتقي أرواح الأحياء والأموات رأيتني مع يانوش، كان يحمل بيده مسبحة بوذية، تناوبنا نحن الاثنين على حضور جنازتيْنا ككهليْن، وهذا الصباح قرأتُ في الأهرام ان مُشَجّعا مصريا رمى نفسه في النيل بسبب خسارة الزمالك، إذا كانت لعبة كرة تسبب انتحار بنادم فما بالك بكل هذه الهزائم المجانية. الوحش ووحشته. عبد السميع وشماتته التي تعذب أكثر من الخنجر. العصفورية وعصافيرها. المسجد وصلاعمته. شيكل وسخرياته وتسخيره.

المدام وشبقها. العائلة المقدسة ودناستها. اللوكسوميل والبروزاك. جريدة الأهرام وأبراجها الفلكية. لاء لاء هذه الشدائد فوق طاقتي، أنا بشر يا ناس، جسدي مُشْ حجارة ولحمي مُشْ نحاس، لن أختار بين الجيد والأجود بل بين الفادح والأفدح، سأنصب كمينا للوحش وأصرعه مرة واحدة نهائية وإلى الأبد، أنحره بانتحاري، أريد الموت وأريده كاملا وثنياً شريفاً، لن أمارس هاراكيري على طريقة ميشيما، تمزيق الأحشاء ميتة طقوسية وأنا مضاد للطقوس، لن أرتمي تحت عجلات المترو، تخيفني الميتات المريعة، لن أشعل النار بجسدي كما في محرقة يان بالاخ، هذه نبرة احتجاجية يرتكبها الأقوياء، أريدُ ميتة مميتة جدّاً وشامِلَة لِكُلّ الميتات، بجرعة بروزاك زائدة، بِتَنشُّق الغاز كما فعل صادق هدايت، أو ببلع ثلاث قناني فودكا كما فعل يانوش في ليلته الصقيعية، ميتة انطولوجية تشبهني، تشبه إحباطي، كتلك التي اقترفتها فيرجينيا وولف، ربطتْ جسدها بحجر ثقيل وألقت نفسها في النهر، بول تسيلان أنهى حياته غرقاً عند جسر ميرابو، مصطفى سعيد أيضاً انتهى بنفس الطريقة، ليس النهر إلا ديكورا للنهاية، يمكنني أن أنتهي هنا أو هناك ، بطريقة أو بأخرى، هي الصدفة فقط التي جعلت بيتها يحاذي كورنيش السين، في علبة الغلواز ما يكفي من سجائر لتغطية المسافة حتى الجسر، هذا يكفي، طيار الكاميكاز الياباني كان يُقلع بعد ان يملئ خزان الطائرة وقودا للذهاب دون الإياب، الوحش هزمني بالنقاط وسوف أصرعه بالضربة القاضية، كش ملك، الجولة الأخيرة في المعركة الأخيرة، هذا آخر كلام عندي وهذه آخر أمتار أمشيها في جلجلتي، لأنفاسي نكهة النزع الأخير، لخطواتي معنى الهدف المقصود، نادرة هي الليلات التي تكون لي الشجاعة فيها كي أمضي نحو العمق [61]، النظرية والتطبيق تتطابقان في انخراط وجداني نحو الضرورة الأخيرة، أنشودة الوداع التي يجيدها الموتى الذين لم يموتوا بعد، والمحبطون الذين يشدون شدوهم الأخير، ستجيءُ بالرغم من كل شيء أيّها البسيطُ والرائع، فلماذا لا تجيءُ الآن؟ دعني أشربك نخبا

---

[61] نادرة هي الليلات ... كي أمضي نحو العمق " ادغار الان بو

أخيرا لحياتي التعيسة[62]، تعال بأي قناعٍ ترغب ، خذني من ظلمةِ أيامي، دعني أذهب، أرجوك، دعني أتوارى، عجِّل، أعتقني أيّهذا العدمُ الأبديّ، اقطع ظلي أيّها الحطاب، خلصني من جدبي، من رؤيةِ نفسي دونَ ثمر [63] ها هو النهر القبر النعش الكفن، الغانج المقدس الذي سيطهرني من دنس الوحش....
وقفتُ وسط الجسر حتى أحرق جسوري مع الضفتين، وجَّهتُ وجهي للجهة التي يسيل فيها الماء، صفحة النهر تبدو راكدة لكن الريح خداعة، الشمس مهيأة للغروب والغيوم لها شكل قبور فاغرة الأفواه، السماء قريبة جدا من الأرض، النهر يزحف بين روابي سان كلود ويبحث عن البحر، على قاعدة الجسر تمثال حورية تحتضن مرساة، على يميني تخوم الدائرة 16، عن يساري تخوم الدائرة 15 عند الضفة طائر كركي ينظف ريشه بمنقاره، تحت جسر ميرابو يسيل السين، السكون المرير حولي والماء تحتي وجزيرة البجع ورائي، ذاك هو خازوق إيفل، رمز القوة اللامفيدة، 300 متر من الحديد تبخش عنان السماء...
وقفتُ مُدَجَّجا بما لدي من مخزون القنوط، لم تتحرك أهداب عيني، استبعدتُ من رأسي الأفكار الجاهزة عن الموت، يانوش، كمشة الرماد، محرقة الكريماتوريوم، الأضرحة وأكاليل الآس والريحان... دقائق معدودات تنتهي اللعبة وتُرفع مرساة الرحلة الأخيرة وينتهي العالم وكل شيء، ويستريح منهكو القوى، قفزة أخيرة، قفزة رشيقة، قفزة دراماتيكية، ثم إحساس بالبلل ثم لا شي، بالمرة لا شيء، بضع فقاقيع هواء تصعد إلى السطح، والبقية بحياتكم، حياة كاملة ستحترق في الماء، الأسد برج ناري مُشْ مائي، وهذا يعني إن حظي أكبر في الجنوح نحو الأعماق مثل سفينة تغرق بجلال وبطئ، ربما يبتلِعُنِي القاع ويتحلل بدني هيكلا عظميا، وقد يحمل النهر اللامبالي قلوعي المحطمة إلى بحر المانش وأكون امتدادا لأمواج المحيط، هكذا تتحول العناصر، الشمس تبخر ماء النهر إلى هواء، الرطوبة ترطبه إلى غيوم،

[62] ستجيءُ بالرغم من كل شيء .. نخبا أخيرا لحياتي التعيسة "أخماتوفا

[63]أعتقني أيّهذا العدمُ ..خلصني من جدبي، من رؤيةِ نفسي دونَ ثمر "لوركا

البرودة تكثفه إلى ماء من جديد، تدور الدائرة من المصب للمنبع للمصب في رجوع أبدي، المادة هي نفسها ولا شيء يموت تماما، فقط ينام فينا الموتى، بنهاية دائرتي تبدأ دائرة أخرى، ففي الثواني التي يستغرقها موتي سيولد خمسون ألف نغل مكاني....
بالنظرة الهادئة المتعالية للمحكوم بالإعدام رمقتُ الضفتين ومضحل الماء وعمقه، صفنتُ لأرى وجهي للمرة الأخيرة معكوسا على صفحة الماء، أشعلتُ آخر سيجارة، مججتُ نفسا عميقا ورفعتُ بصري لأشبع بإطلالة الوداع البليدة عينيَّ اللتين سيغلقها الموتُ إلى الأبد، رأيتُ الموج يلطم الضفتين معلنا قدوم معدية نهرية، ثريثتُ قليلا وأعطيتني مهلة إضافية، بعقب السيجارة الأخيرة أشعلتُ السيجارةَ ما بعد الأخيرة... كل شيء إذن يوشك ان ينتهي، Acta est fabula[64] في نهاية الطريق يذهب كل ميت إلى قبره، جثتي لن تكون للقبور الجاحدة ولا لكلية التشريح ولا للأشهر الهجرية، هؤلاء الجوعى قد يتاجرون بها كما فعل أبناء خالي مع جثمان ابنهم في هولندا، لن أدفَن في مقابر الصلاعمة، هذه هي وصيتي الأخيرة التي سأطبقها بنفسي، لن يشيعني عسعس وسماسرة الجنة، الشاعر اذ يموت تشيعه قصائده إلى مثواه الأخير، لا عزاء لا رثاء ولا جنازة، مجرد دقيقة أتآخى فيها مع الموت والموتى memento mori تسبق الصمت الأبدي عن روح راحل وشيك يقوم بشعائر الوداع الأخير...
صفنتُ في صفحة النهر فرأيت تجليات وجهي وأقنعتي الكثيرة، تشابكتُ طفلاً وصبياً وكهلاً، رأيتني طفلا بيدي أزاهير طازجة، ثم صبياً بيدي أزاهير مبرعمة، ثم محبطا بيدي أزاهير ذابلة،... اللحظة حانت لمعتها، إنني الآن أكثر تهيئا وجهوزية، ومستعد لارتكاب جريمة قتل البشرية كلها، بيني وبين الموت تسع أمتار بطول ما بين السماء والأرض
أغمضتُ عيني الإغماضة الأخيرة فرأيت قاع النهر بجماجمه التي انمحت نظراتها منخورة صامتة مكدسة... كيف أقنع نفسي أن قاع النهر ليس كسطحه تماما؟ أن تعلم أنك بعد دقيقتين لن تكون، أنك

---

[64] لاتينية وترجمتها انتهت اللعبة / memento mori = دقيقة صمت

كائن مؤقت بالوقت القليل الباقي، مشهد الموت ليس جميلا ولكن ليس الوقت مناسبا لتبرير الموت أو عدمه، الوحش وهمٌ كالحواس وسيزول بزوالها، قررتُ يعني قررت...
استنفرتُ شجاعتي وبلعتُ لعابي، أستجمعتُ أشتات نفسي، هممتُ لأقفز فوق الدرابزون الحديدي، فتخدرت ساقاي ولبثتُ كمصعد توقف بين طابقين، يابسا كحلزون دلق عليه الملح، ما كان بوسعي قتل نفسي فقد أدركت اني أحب الحياة من النظرة الأولى والأخيرة ، ومما رسخ هذا الشعور هو ان شيئا كالمعجزة قد حصل او توهمتُ حصوله ،
سكنتْ الريح السوداء، التحمتْ العناصر الأربعة في نور يطمس نصوعه البصر، انبثقتْ الشمس من غلل الغيوم السود كما تنبثق حمامة بيضاء من برنيطة ساحر، كأن كل شيء يحدث للمرة الأولى او الثانية، كالأعشى الخارج من نفق مظلم بهرني النور، مَسَاحاتٌ خرَافية من نور عجائبيٍ صاف كالذي ينبثق من لوحات الظهور والتجسد والنشور وقيامة المسيح من بين الأموات، طفت على صفحة النهر أزهار لوتس، فوق الجسر حلقت النوارس صادحة بسيمفونية العالم الجديد، فوق الضفتين تقوَّس قوس قزح بأطيافه السبعة ، بنفسجي، نيلي، أزرق، أخضر، أصفرر، برتقالي، أحمر ،
عجبي! عجبي.!
جاء الصحو بعد المحو، جاءت البشارة عند النعي، آلتْ اللعنات إلى بركات، رجع سندباد من رحلته الثامنة، رجع من بحارِ الموت دون موت، على الضفتين انتصبتْ صفصافات النهر غابةً بيضاء من فراشات مضيئة، ورأيتُ القديس جورجيوس على حصانه يسحق التنين / الوحش، أفقتُ من عُمقِ ليلتي، من سباتي الشتوي، أحسستُ بخفقة هائلة بصدري، رغبةً غير محدودة تشب عبر روحي، اللمعان الخاطف الذي يضرب الرأس والحواس معا، دفقت في شراييني شعلة دافقة كأنما يحاصرني أربعون صيفا، اشتبهتْ عليَّ الأمور فتحسستُ بدني ومن خلاله علاقاتي الرخوة بما حولي، أنا لا أحلم ولكنني أبصر بوضوح وصرامة، أنا لست طيفا ولكني حقيقة مجسمة ثلاثية الأبعاد، أنا كتلة صلبة وليس

هناك ما هو أكثر صلابة، أنا نَفَسْ جديد في نَفْس جديدة. أنا قلب وعندليب وأغنية، النور والحبور في صدري أسمعُ اصوات ارتطامهم، تحولات صوفية لكل الحواس في واحد...
ارتسمتْ على وجهي دهشة الولادة وابتهال الأطفال بإشراقة العيد، واستقرتْ طمأنينة الجبال في قلبي، خلايا الأمل النائمة التي تجعل النبض يدب في المرمر الصلد، شعرتُ بالامتلاء والتفاعل مع الطبيعة حولي، كل هذه التجليات والإشارات النورانية. الرموز ومعناها الصوفي. الضياء النقي جدا الغير المشكوك به. الشفاء الخارق للعادة. لا بد انه حلم شفيف فكل ما نحن كل ما نرى، ان عقلي ينكر خوارق العادة لكن الطبيعة لا تفعل شيئا عبثاً، خرجتُ منتصرا من الهزيمة، وأنا أداعبُ الموت الذي يحملنا على الحياة، جاءت الولادة قيصرية لأن المولود اسمه [أمل]، فاتحة الأوديسة الشاقة كانت عند جسر أوشانج وخاتمتها عند جسر ميرابو، كم بطيئا مر الوقت. 24 شهرا منذ ذلك اليوم، ذلك اليوم المشؤوم، كأنها عشرينعام تيه عوليس، كم سريعا مر الوقت. الحورية التي ماتت ليلاً بِقُبلة عادت فجرا إلى الحياة بقُبلة أخرى، أنا هو الرجل الذي حلمَ بأنه وحش وحين استيقظ نسي أنه كان رجلا، لا يمكن القول ان ما رأيته للتو كان حلما، الحلم هو الكابوس الذي سبق ذلك، الوحش كذبة ككذبة أول نيسان، حلم كحلم أَلِيسْ التي وجدتْ نفسها في بلاد العجائب، ومن أجل أن تعود إلى الواقع كان عليها أن تفتح عينيها على يقظة مختلفة، أنا رمضان الأرسخ من الأهرامات، أنا الكائن الذي كان وسيكون، النار والرماد والعنقاء، الناسخ والمنسوخ، أنا مُشْ مصطفى سعيد الغرقان في النهر لكني الراوي الذي قاوم الغرق، أيقونة الوجود أدونيس وتموز والعازر، كوزي فان توتي، هللويا، الرجل السائر في الظلمة أبصر نوراً عظيما، صباح الخير أيها الأمل، يا من كله أخضر، لطالما انتظرتُك أيها الفجر الصادق، فَتْحَتْ يا عبد الفتاح، اليوم عيدك يا أبو عيد، نجمك آخذ بالصعود يا أسد، وقد أتاك من الأشكال راية الفرج ومن منازل القمر سعد السعود...
تخففتُ من رفقة الوحش الثقيلة ومن تصلّب الأطراف ومن صدأ المفاصل والرجفة، من الصداع ومن وحمة الخبز المحلى بالزبيب،

رميثُ علب البروزاك واللوكسوميل بالنهر، استعدتُ أندلسي الضائعة، كنوزي وبراءتي وانسجامي المفقود، صرتُ أنقى صرتُ أجمل، عادت للأشياء معانيها القديمة، السعادة التي نسيتها في تقادم الزمن، حلَّتْ فيَّ نيرفانا الخروج من دوائر التناسخ، تحررتُ من لَعْنة العارِ القديم، من كارما الوحش الخبيثة ومن سجن اللحم ومن سلاسل الدم والعظم، وعاد الشِّعر يزحف في قلبي، عاد تفكيري صافيا، عاودني خيال لبوتي فانتصب قضيبي (لأول مرة منذ سقوطي) ارتعشتُ بالدفء الذي يُشيعه تخيل أجساد النساء، حثثتُ الخطى نحو حارة اليهود، مفعماً بما اختزنه من تحرقات دمي الشبقية.

خاتمة من كِلمتينْ

إفتح يا سمسم، مي فَوالا يا رفاقي الشعراء فيني فيدي فيشي[65] لعلكم تريدوني أن أفطس، أوه ليس بتلك البساطة ينتهي الإنسان، الإنسان ضعيف وجبار كالنملة، ميتتي كانت ستكون مُشَوَّهة كحياتي، تريدونني أن أتشبه بيانوش حتى النهاية، أبو عيد لا يشبه إلا رمضان، يوجد ألف من يحمل اسمي بَيْدَ إني وحيد وفريد، انتحار الراوي ليس حلا روائيا مُقنعا (لو انتحرتُ من كان سيروي لكم هذه الرواية؟) كل الحضارات ولدتْ عند ضفاف النهر فكيف أموت عنده. كلّا ما بِودّي أموت لأني جديرٌ بالحياة، ما يزعجني أكثر من الموت هي تلك الأشياء الجميلة التي لن تكون أبدا، الناس، الخصوم الحلفاء، الحياة والموت (فليس بعد الموت موت) الماء، الفضاء، الضياء، الأشعار، الأشجار، الحلم، الحبّ، الكره، الفنون الجميلة والقبيحة، التّحليل النّفسيّ والصراع الطبقي، الأمكنة الفاسدة، عُلَبْ الليل، أفخاذ النساء وأفخاذ دجاج كنتاكي، الجعة، التِتِن، الحشيشة، الفودكا وهلم جرا، الوعي الإنساني تشكل عبر ملايين السنين فلا يحسن إلغائه في دقائق، بموتي ستموت الحياة كلها، الشمس ستنطفئ بانطفائي، النهر الخالد سيجف بجفافي، العالم برمته سيترمل بعدي، ما زلتُ في ثلث الطريق وأجملُ الأيام في انتظاري، نحن نساق بالضرورة إلى الموت، ونساق بالاختيار إلى الحياة، والضروري لا يُسعى له لأنه واصل، والاختياري لا يُكْسَل عنه لأنه غير حاصل[66] الموت يفاجِئ ولا يفاجَئ، سيأتي في كل الأحوال ويقتنصنا جثةً جثةً ولو لم يخطفني عنوةً فسأغادر في حدود عام 2040، لم العجلة؟ أحب كثيرا هذا الوقت الباقي لي، أريدُ أثنائه أن أضحك، أن أركض، أن أحكي، أن أبكي، أن أرى وأن أؤمن، وأسكر وأرقص وأصرخ وأتكل وأسبح وأنتصب وأعصي، هذا ليس كل شيء، أريدُ كذلك أن أطير وأنطلق وأعيد

[65] لاتينية ترجمتها جئت شاهدتُ انتصرتُ / مي فوالا = ها أنا ذا /

[66] نحن نساق ...لأنه غير حاصل "اقتباس أظنه من التوحيدي

الانطلاق، أن أعاني أن أعشق [67]، الإحباط، تلك حكاية وطويتها، سوء تفاهم مع الدنيا وزال، كنتُ ممثلا يلعب دورا في كوميديا إغريقية سوداء دامت عامين وانسدلت الستارة، لا بأس من حق الحياة أن تستجيب ولتكن البداية من النهاية، ثقتي بالحياة لا حد لها، قلبي يشدو بالوجد الصافي، أنا لا أبني أوهاما ولكن تفاؤلي لا عودة عنه، كل شيء يسير حسب رغباتي، ورغباتي تتطابق من مشيئة الكون، سأحيا بالعناد، بكل ضراوة العناد، ثرياً بما اكتسبته من رفقة الوحش، سأؤسس أعظم سلالة بشرية، وأنشد الأناشيد الرّائعة، سأحوّل الخشب القديم إلى نيران جديدة، يمكنني السقوط في هذا العالم ولا يمكنني السقوط من هذا العالم، كس أم الموت، الموت للموت، الموتى علِّموني كيف أحيا، أنا عازم على الحياة كرمال عينيها هي أم عيون السود، اريد أنثى تصحبني وأكون ظلها، ثمة حياة تنتظر شريكين، لن أنتحر لأن بحوزتي كثيرا من المبررات لكتابة رواية انتحارية، أعطاني الوحش طينته فصنعت منه حكاية، وهي لا تصلح للكثيرين بل للقليلين من أشباهي، أضعها بن أيديهم وفي عقولهم، ولا أفرضها عليهم بكليتها بل أنصحهم يأخذوا منها ما يناسبهم، لقد تحول الوحش إلى كتاب لكني ما زلت أحلم بيوم يتحول فيه إلى أغنية، أحلم بيوم يتجسد فيه الوحش في طابع بريدي أو في نشيد قومي، أحلم بتأسيس نقابة للمكتئبين. أحلم بتأسيس كرسي جامعي باسم الإكتئابولوجيا. بإنشاء متحف يؤرشف سلالة الوحش وجنيالوجيته، تعذبتُ عذابات القديسين، مشيتُ على الجمر، رأيت أقبح الأمور، شفتُ نجوم الظهر، وعشتُ العمر عمرين، لم يشفني بروزاك ولا شيزلونغ ولا مصاحف ولا أناجيل ولا باعة الوهم ولا حتى إرادتي، ولكن الدورة قد اكتملت، انه القانون الخاص للإحباط، ديالكتيك الأفراح والمكابدات، من الطريحة (اللذة) إلى النقيضة (الألم) إلى التوليفة (الأمل)، لا يمكن تجاوز مرحلة إلا بعد أن تستنفذ مبررات وجودها، الإسراف الطويل في الوحش والتوحش، لم يبق فيَّ ما يلتهمه الوحش فالتهم نفسه، لفظ أنفاسي فانبعثت من رماده، بعد 700 جنازة مات

---

[67] أحب كثيرا هذا الوقت الباقي لي، ..أن أعشق "من أغنية لسيرج رجياني

الوحش، كنت أظنني (متوحشا) إلى الأبد، لكن هذا الأبد سقط بالتقادم بعد عامين، الإحباط كقلعة [تار] الآشورية التي ما استطاع جيش اقتحامها غير أنها تهاوت وحدها، الطفرة اللامفهومة أو الميكانيك الجهنمي للإحباط، الإحباط أحبطني، أيوه، ولكنه أنضجني، طوّح بكل أقنعتي، كبّرَني كثيراً في عمر قليل، جعلني أجمع بين بصيرة النبي وعماء الحلزون، أنني أفكر في تلك الليالي السقيمة، أفكر بالمجروحين من الداخل ومكسوري القلوب، أفكر بكل من فقد شيئا ولم يجده، بأشباهي الذين كسرتهم الحياة وطحنتهم المقامات والظروف، اسمعوا أيها الرفاق، الحياة لا تؤمن بالبدايات، الوحش عظيم، وأنتم أعظم وغدا سيكون أجمل، الزمن يجرح ويداوي، والخلاص كامن فينا في لحظة فشلنا النهائي، ذخيرةً نفسية مستترة، تلكم هي طاقة الشفاء الذاتي، القوى البروميتوسية الخفية في الركام النفسي، هي احتمالات، هي مسألة وقت، وأحياناً مسألة صدفة، لكن الصدفة لا تنحاز إلا للذهن المستعد، وعندما نريد شيئاً ما فإن الكون بأسره يتضافر ليساعدنا، الوقوع في الإحباط يعني التَّبصر في الوجود بوجهه وقفاه، يعني السقوط مع كلّ ما يترتّب عليه من نتائج جذرية وخطيرة، ليس الكائن المحصَّن من يملك مناعة وممانعة ضد السقوط بل هو من سقط واكتشف حدود هشاشته، الإحباط دائما على حق فهو لا يحبط عشوائيا بل يختار من يستحقونه، أولئك الذين يرون فيه ضرورة ضارة لصقل إنسانيتهم، الكلام عن الاكتئاب دائما مكرر لكنه ضروري، أنا أكرّر وبكلّ مرّة أحوّر لكي أبرهن بدليل غير قاطع أن الحياة والسقوط لعبةٌ واحدة، وأننا كلنا مرضى بدرجات متفاوتة ومن لم يكتئبوا بعد هم أمرض من غيرهم، فالفارق بين العصابي والطبيعي هو في الدرجة لا في النوع، هيا هيا أيها البشر الأسوياء الذين ما عرفتم الشقاء، أن المسافة بين اختلالي وسويّتكم هي بحجم المسافة بين وجوهكم وأقنعتكم، ماذا يثبت أنكم لستم أكثر هشاشة مني؟ وماذا يثبت أني لست أكثر مناعة منكم؟ الفيلم الذي تتوهمون أنكم لستم إلا مجرد مُشاهدين له، قد يكون يوما قصة حياتكم، الإحباط هذا يحصل للمحبطين فقط، لكن المحبطين قبل ان يحبطوا كانوا أسوياء مثلكم (لا تنسوا هذا) اليأس أيضاً له خلاياه النائمة، وما أسهل أن

تكون التعاسة في متناول يد الجميع، نحن جميعا (محبطين وغير محبطين) نملك نفوسا كامنة قد تُغِير في أي وقت على حياتنا العادية وتحدث انقلابا سلوكيا، إن لكل شيء في الحياة ثمناً، الإنسان لا يتوحد إلا بعد شتات، الحياة لا تكتمل إلا بنقصانها، ان الوجود حقيقة واحدة ذات أوجه، وأن الخطيئة أمر قضى به العقل لنعرف الحقيقة، تفهمون قصدي، قصد نيتشه لقد تحتم عليَّ أن أتفوق على ذاتي، وان أكون الجهاد والمستقبل والهدف وان أكون كذلك الحائل الذي يعترضني، أصغوا إلى صوت الجسد الذي أبّلَّ من إحباطه لأن هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى من أصوات المبشرين بالموت والعوالم الماورائية، ان أقرب الطرق بين جبلين هو حبل مُشْدود بين القمتين، إن أروع ما في الوجود هو التجدد، أقول لكم أن سقطة البطل حجتُه وولادتُه الأخيرة، أنتم لست سوى أخطائكم، اهدموا وخربوا فالحرية الخلاقة تنبثق من الأنقاض والخرائب، انحرفوا فان أسوأ المتاهات هو الخط المستقيم، أُسقطوا قدر المستطاع وخاطروا فالخطر الرئيسي هو أن تبالغوا في الحذر، غيِّروا جلودكم فالحية التي لا تغير جلدها تموت، طهِّروا ضميركم من سموم الصلعم والطوطم فالمرء يحتاج كذلك إلى إله شرير، بحبحوا من الزلات الخطايا والمسرات فالحياة لا تتكرر مرتين، اعشقوا فالعشق بين الناس ألّلاه محلَّله، وارقصوا فالجسد الذي لا يرقص جسد ميت[68] كيّفوا (باعتدال) فالحشيشة الطبيعية أرحم بكثير من أفيون الوهابية، إغلطوا فالإنسان لا يكبر إلا حين يكتشف أغلاطه، انهزموا فالنصر يأتي بعد هزيمة مؤكدة، في كل الأحوال احذروا الوحش فسيأتي يوما ويخطف منكم زهرة أيامكم، لا تنسخوا درسي كربونيا ولا تتجاهلوا العبرة المستفادة منه فلستُ قدوة تُحتذى او تُجتنب ولكني حكاية تُحكى وقد اكتملتْ الحكاية واكتملتُ بالوحش، الوحش هو المصطلح الذي يطلقه الإنسان على تجاربه الفاشلة، هذا الشقاء الرائع (كان) لعنتي وخلاصي من أوهام بداياتي وعفونتي، (كان) معمودية الحرية، سمُّها الشافي، الاكتئاب في شكله الإيجابي هو داء الحياة المحتدمة، نظرة إشكّالية للحياة،

---

[68] الجسد الذي لا يرقص جسد ميت "من ابن عربي

هو الحياة وما تنطوي عليه من رعب، هو ضريبة التميِّز والإخلاف والهرطقة والسمو والتمرد والشطط والتفرد والشك، هو أزمة الإنسان وتمزقه أمام تناقضات عالمه، هو الإنسان بعظمته وهشاشته ورغبته العنيفة في التغيير والابتكار، كل واحد منا لأنه يفكر وحده فهو المسؤول الوحيد عن مصيره، إحباطي (كان) سقطتي، تتويجي الخاصّ، أسطورتي الشخصية، قدري الناتج عن حساسيتي، ذاكرتي، (كان) حكمتي وجنوني واستثنائيتي، شططي، ديونيسوسيتي، عوليسيتي، فاوستيتي، اسخريوطيتي، وهو ليس نهاية الطريق ولكنه بداية على نحو ما، مجال لمجال آخر، رمضان ما عن خطأ صاع وحشَّش، أبو عيد ما عن عبث تعثر وسقط، فالحياة قحبة خالدة لا تستقيم دون التواءات، أحبك أيتها الحياة بقدر ما تزداد عهارتك، بكل تأكيد أنت قدري وندامتي وخياري النهائي، أحبكُ يا حماقاتي، أنتِ يا من جعلتني أكتشف الحياة
طوبى لمن أخطأ ثم طبَّق فتطبيقه أنجع
طوبى لمن سقط ثم وقف فوقفته أمتن
طوبى لمن عرف الشقاء وتحرر منه فإنه لن يشقى بعد.

(تمت)